

المحتويات

مُتقدِّمًا..... ٥

٧..... • الشبهة الأولى

دعوى عدم كتابة السنة في عصر النبي ﷺ لجهل العرب بالكتابة

١٤..... • الشبهة الثانية

إنكار كتابة السنة على عهد النبي ﷺ

٢٢..... • الشبهة الثالثة

دعوى إحراق النبي ﷺ وأبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما لما دُون من الأحاديث

٣٠..... • الشبهة الرابعة

ادعاء عدم تثبت الصحابة في كتابة الحديث

٤١..... • الشبهة الخامسة

دعوى أن الصحابة تحرجوا من تدوين الحديث وروايته لعدم شرعيته

٤٧..... • الشبهة السادسة

الزعم أن الشيعة هم أول من دونوا السنة

٥٥..... • الشبهة السابعة

الزعم أن الحديث لم يكتب إلا في عهد عمر بن عبد العزيز

٦٢..... • الشبهة الثامنة

الزعم أن تأخر تدوين السنة أدى إلى ضياعها

٦٧..... • الشبهة التاسعة

دعوى ضياع خمسمائة خطبة نبوية

- الشبهة العاشرة ٧٢
دعوى أن الوضع في الحديث بدأ في عهد النبي ﷺ
- الشبهة الحادية عشرة ٧٨
اتهام مدوني الحديث بالوضع فيه
- الشبهة الثانية عشرة ٨٣
دعوى أن خلفاء بني أمية كانوا وراء وضع الأحاديث
- الشبهة الثالثة عشرة ٩٥
دعوى أن علماء المدينة الأتقياء وضعوا أحاديث ضد بني أمية
- الشبهة الرابعة عشرة ١٠٧
الادعاء أن تدوين السنة في قصور الأمراء أدى إلى الوضع
- الشبهة الخامسة عشرة ١١٨
اتهام الفقهاء بوضع الأحاديث لإرضاء خلفاء بني العباس
- الشبهة السادسة عشرة ١٢٣
ادعاء أن علماء المسلمين كانوا يخترعون الكتب وينسبونها للنبي ﷺ لإثبات قواعدهم الفقهية حين تُعوزهم الروايات
- الشبهة السابعة عشرة ١٢٧
الزعم أن التمسك الشديد بالسنة كان من دواعي الوضع
- الشبهة الثامنة عشرة ١٣٥
اتهام أئمة المسلمين بوضع أحاديث تمجّد نبيهم وأمتهم
- الشبهة التاسعة عشرة ١٣٩
الزعم أن السنة من وضع الزهاد والصالحين ومسلمي أهل الكتاب
- الشبهة العشرون ١٤٨
دعوى إهمال المُحدِّثين الأسباب السياسية الدافعة للوضع في الحديث

- الشبهة الحادية والعشرون ١٥٩
ادعاء أن القواعد الكلية للحكم على الحديث الموضوع لم تُعرَف إلا في القرن الثامن الهجري
- الشبهة الثانية والعشرون ١٦٩
دعوى أن أحاديث التفسير كلها موضوعة
- الشبهة الثالثة والعشرون ١٧٦
الزعم أن السنة مليئة بالأخطاء التاريخية
- الشبهة الرابعة والعشرون ١٨٥
الزعم أن الأحاديث الواردة في فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام كلها صحيحة
- الشبهة الخامسة والعشرون ١٩٣
إنكار الأحاديث الواردة في فضائل البلدان وأهلها
- المصادر والمراجع ١٩٩



مُقَدِّمَةٌ

لما كانت للسنة النبوية المطهرة مكانتها التي لا تُنكر في الإسلام؛ من كونها وحياً من رب العالمين، وكونها المصدر الثاني للتشريع، وكونها النموذج الحي لتطبيق تعاليم الإسلام، حرص المسلمون الأوائل على حفظها، وصيانتها، ونقلها إلى الأجيال اللاحقة نَقِيَّةً كما رُوِيَتْ عن صاحب الرسالة ﷺ.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الكتابة من أهم وسائل الحفظ - إن لم تكن أهمها جميعاً - لهذا اهتم الصحابة الكرام بكتابة السنة في حياة النبي ﷺ وبإذن مباشر منه ﷺ، وعلى نهجهم سار التابعون والذين من بعدهم.

ومن ثم توفر للسنة النبوية في عهدها الأوَّل كل وسائل الحفظ المتاحة في ذلك الزمان؛ من حفظ في الصدور، وكتابة في السطور، ونحن لا نزعم أن السنة النبوية قد دُوِّنت بأسرها في ذلك العهد، ولكن وجد في ذلك العصر المبكر النواة الأولى لتدوين السنة التدوين الرسمي الذي تم في القرن الثاني الهجري، والذي لم يمنعه أن يتم في عصر الصحابة والتابعين إلا خشيتهم على القرآن الكريم الذي لم يزل غُضًّا طريًّا؛ حتى لا يختلط بالسنة النبوية خاصة لدى الأعاجم حديثي العهد بالإسلام.

وكما اهتم المسلمون الأوائل بحفظ السنة عن طريق الكتابة والتدوين، اهتموا كذلك بحمايتها من الوضع، فأحاطوا السنة النبوية بسياج من التوقِّي والنقد حتى لا ينفذ إليها دخيل.

وعلى الرغم من كل هذه الجهود التي قام بها المسلمون لحفظ السنة النبوية وحمايتها، إلا أن خصوم الإسلام والسنة المطهرة يحاولون - بشتى الوسائل - النيل من هذا الصرح العظيم، فأخذوا يثيرون الشُّبه والاعتراضات حول كتابة السنة بأقلام الصحابة والتابعين، ويصوبون سهامهم المسمومة لمدوني السنة التدوين الرسمي، والتشكيك في أغراضهم النبيلة، والطعن في نوايا الخلفاء والأمراء الذين شجعوا على تدوين السنة، كما حاولوا - بشتى الطرق - إيهام المسلمين أن كل ما تحت أيديهم من سنة نبوية هي مجرد افتراءات زائفة وأقوال موضوعة نسبت إلى صاحب الرسالة ﷺ؛ بهدف صرف المسلمين عنها، ومن ثم التخلي عن ركن رئيس من أركان الإسلام؛ لذا جاء هذا الجزء من هذه الموسوعة التي خصصت للدفاع عن السنة النبوية المطهرة للتصدِّي لمثل هذه الافتراءات المثارة حول تدوين السنة النبوية والوضع فيها، وقد تم تقسيم هذا الجزء بطبيعة الحال إلى محورين هما:

الأول: الرد على الشبهات المثارة حول تدوين السنة مثل: إنكار كتابة السنة على عهد النبي ﷺ، والادعاء أن الصحابة تحرَّجوا من تدوين الحديث وروايته لعدم شرعيته، والزعم أن تأخر تدوين السنة أدى إلى ضياعها... إلخ.

الآخر: الرد على الشبهات المثارة حول الوضع في السنة مثل: دعوى أن خلفاء بني أمية كانوا وراء وضع الأحاديث، والزعم أن التمسك الشديد بالسنة كان من دواعي الوضع، والزعم أن السنة من وضع الزهاد والصالحين ومسلمي أهل الكتاب... إلخ.

هذا وقد أردنا من خلال معالجة هذه الشبهات التأكيد على عدة حقائق يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

- لقد بدأت كتابة السنة في حياة النبي ﷺ بأقلام الصحابة ويأذن منه ﷺ.
- أن النهي عن كتابة السنة الوارد في بعض الأحاديث كان لعلل خاصة، وقد زال هذا النهي بزوال هذه العلل، كما أن هذا النهي كان لبعض الصحابة دون الباقيين.
- لقد تنقلت السنة كتابةً بالتوازي مع تناقلها مشافهة - منذ عصر النبي ﷺ مروراً بعصر الراشدين حتى وصلت إلى مرحلة التدوين الرسمي في القرن الثاني الهجري.
- لم يظهر الوضع في الحديث النبوي في حياة النبي ﷺ، وإنما كانت بداية ظهوره بعد اندلاع الفتنة ومقتل عثمان ؓ وتفرق الأمة وانقسامها.
- لا أحد ينكر وجود أحاديث كثيرة موضوعة قد تسربت إلى السنة النبوية المطهرة، ولكن علماء الحديث قد نقدوها حديثاً حديثاً وميزوا بين صحيح السنة وسقيمها.
- وأخيراً فإن ما توفر للسنة النبوية من وسائل للحفظ، واهتمام من قبل العلماء كيدل دلالة قاطعة على حفظ الله ﷻ لسنة نبيه ﷺ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾ ﴾ (الحجر).



الشبهة الأولى

دعوى عدم كتابة السنة في عصر النبي ﷺ
لجهل العرب بالكتابة^(*)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض المتوهمين أن العرب في الجاهلية، والمسلمين في صدر الإسلام لم يكن لديهم معرفة بالكتابة والخط؛ لذا لم تكتب السنة في عصر النبي ﷺ وأصحابه، واستدلوا على ذلك باعتماد العرب الكامل على ملكة الحفظ التي كانوا يتميزون بها. وبوصف القرآن الكريم لهم بـ "الأميين" في قوله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ (الجمعة: ٢). رامين من وراء ذلك إلى التشكيك في صحة ما كُتِبَ من السنة في صدر الإسلام.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) كان العرب في الجاهلية يعتمدون على ملكة الحفظ، ويتميزون بقوة الذاكرة، لكن هذا لا يعني أنهم كانوا لا يعرفون الكتابة؛ إذ أثبتت النقوش الأثرية وجود بعض الكتابات التي ترجع إلى العصر الجاهلي، وكذلك كتابة المعلقات السبع على أستار الكعبة، وصحيفة المقاطعة التي أعلنتها قريش ضد النبي ﷺ في بداية الدعوة الإسلامية، كما عرفت أدوات الكتابة ومادتها عن طريق وصفها في كتب التاريخ والأدب.

(٢) انتشرت الكتابة انتشارًا واسعًا في عهد النبي ﷺ

وأصحابه، وثبت ذلك في بعض النقوش الأثرية أيضًا، ودل على هذا الانتشار افتداء أسرى بدر بتعليم المسلمين القراءة والكتابة، ومعاهدات النبي ﷺ ومكاتباته، كمعاهدة المدينة مع اليهود، وصلاح الحديبية مع قريش، ورسائله إلى الملوك والأمراء، وساعد على هذا الانتشار حض القرآن الكريم على الكتابة، وترغيب النبي ﷺ في التعلم، وأمره بالكتابة خاصة؛ إذ إن دعوة الإسلام قامت على العلم.

(٣) وصف القرآن الكريم للعرب بـ "الأميين" لا يعني الأمية الكتابية ولا العلمية، وإنما يعني الأمية الدينية، إذا لم يكن لهم كتاب سماوي كاليهود والنصارى.

التفصيل:

أولاً. معرفة العرب للكتابة قبل الإسلام:

كانت العرب قبل الإسلام يعتمدون على ملكة الحفظ، وقوة الذاكرة، وقد أوتوا النصب الأوفر في ذلك، فكانوا يحفظون القصائد الطوال بمجرد سماعها لأول مرة، وكان أحدهم يرتجل القصيدة الطويلة دون سابق إعداد لها، لكنهم مع هذا كانوا على معرفة بالخط والكتابة، إذ أثبتت النقوش الأثرية وجود بعض الكتابات من العصر الجاهلي، كما اشتملت كتب التاريخ والأدب على كثير من الشواهد الدالة على معرفتهم بالكتابة، ومن الأدلة على وجود الكتابة في العصر الجاهلي:

١. وجود الخط العربي:

ومما يدلنا على معرفة العرب بالكتابة قبل الإسلام أن الباحثين القدامى والمحدثين اختلفوا حول نشأة

(*) الحديث النبوي ومكانته في الفكر الإسلامي الحديث، محمد حمزة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٥م. دراسات في الحديث النبوي، د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

الخط العربي؛ فمنهم من يرى أن أول من وضع الخط العربي والسرياني وسائر الكتب آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبها في طين وطبخه، فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتاباً فكتبوه؛ فأصاب إسماعيل عليه السلام الكتاب العربي، وهذا يدل على أن تعلم الخط العربي توقيفٌ علمه الله تعالى آدم عليه السلام ثم أصابه إسماعيل عليه السلام من بعده.

ومن الباحثين من يرى أن إدريس عليه السلام أول من خط بالقلم بعد آدم عليه السلام. ومنهم من يرى أن أول من وضع الكتابة العربية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وكان أول من نطق بها، فوضعت على لفظه ومنطقه.

يقول د. ناصر الدين الأسد: "أصل الخط العربي مشكلة كانت مستعصية تتأرجح حولها الآراء، ولا تكاد تستقر، وللعرب القدامى في ذلك روايات مختلفة، وللمستشرقين المحدثين آراء متباينة"، وبعد أن أورد د. الأسد آراء الباحثين في ذلك وأشار إلى اختلافهم ذكر أن الخط النبطي هو الذي اشتق منه الخط العربي، وأكد على أن هذا الرأي هو أرجح الآراء عند الباحثين في هذا الموضوع^(١).

وعلى كل حال فإن هذا الاختلاف يعطينا مؤشراً على أن الخط العربي قديم، وأن العرب في الجاهلية كانوا يعرفون الخط والكتابة.

٢. النقوش الأثرية:

ثم يسوق الأسد أدلة ملموسة على وجود الخط

١. مصادر الشعر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد، دار الجيل، بيروت، ط٧، ١٩٨٨م، ص٢٣، ٢٤.

العربي قبل الإسلام، واستعمال العرب له، فيذكر نقوشاً أثرية عُثر عليها يرجع تاريخها إلى سنة (٢١٠ ميلادية) وقد اكتُشف هذا النقش في وادي المكتب في شبه جزيرة طور سيناء، ونقش آخر يرجع إلى سنة (٢٣٠ ميلادية)، وقد اكتشف في وادي فران في شبه جزيرة طور سيناء كذلك. ثم يذكر نقشاً من القرن الرابع الميلادي عُثر عليه في مدفن امرئ القيس بن عمرو ملك العرب في النمارة، وهي من أعمال حوران، ثم يذكر نقشين يرجع تاريخهما إلى القرن السادس الميلادي^(٢).

مما سبق يظهر لنا أن العرب ظلوا يكتبون في جاهليتهم ثلاثة قرون على أقل تقدير بهذا الخط الذي عرفه بعد ذلك المسلمون، وقد أصبحت معرفة عرب الجاهلية بالكتابة أمراً يقينياً، يقرره البحث العلمي القائم على الدليل المادي المحسوس، وكل حديث غير هذا لا يستند إلا إلى الحدث والافتراض.

٣. حلقات تعليم الكتابة:

مما يدلنا على معرفة العرب للكتابة وجود ما يشبه الكتاتيب، يتعلم فيها الصبيان الكتابة العربية، والشعر، وأيام العرب، وقد وجد هذا في البيئات المتحضرة آنذاك؛ مثل مكة والمدينة والطائف، والحيرة، والأنبار وغيرها، ومن الأدلة أيضاً وجود المعلمين الذين كانوا يعلمون الصبيان ضرباً من العلم.

ومن هؤلاء الذي تعلموا الكتابة فيما يشبه الكتاتيب عدي بن زيد العبادي، إذ طرحه أبوه في الكُتَّاب حتى حذق الخط العربي ثم أرسله إلى كُتَّاب الفارسية فصار أفصح الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية، ثم انتقل إلى

٢. المرجع السابق، ص٢٣: ٣٢.

الشعر ديوان العرب خاصة المنظوم من كلامها، والمقيّد لأيامها، والشاهد على أحكامها، حتى لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له أن عمدت إلى سيع قصائد تخيّرتها من الشعر القديم، فكتبها بساء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها بين أستار الكعبة^(٤).

ومن ذلك أيضًا تلك المقاطعة التي كتبها قريش في صحيفة وعلقتها في جوف الكعبة حينما تحالفت قريش على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم، ولا يباعدوهم، ولا يجالسوهم، ولا يجالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا إليهم الرسول ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهد وموآثيق: "أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموه للقتل"^(٥).

فهذه أدلة ملموسة تُوقفنا على حقيقة واقعية، وهي أن العرب في جاهليتهم كانوا يعرفون الكتابة، وكانوا يكتبون في موضوعات شتى، مما يقطع الطريق على القائلين بعدم معرفتهم للكتابة والخط.

٦. معرفتهم بأدوات الكتابة:

ثمة دليل آخر على معرفة العرب بالكتابة وهو وجود أدواتها كالقلم، والتي تصفه النصوص أنه مصنوع من القصب، يُقَطُّ وَيُقَلَّمُ أو يُرَى، ثم يُغمس في مداد الدواة، ويكتب به^(٦)، قال عدي بن زيد:

٤. العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، دار الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٠م، (٢/ ٣٠٦).

٥. الرحيق المختوم، المباركفوري، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ص ١٠٩.

٦. تدوين وتوثيق السنة في حياة الرسول والصحابة، د. جمال خلف، مرجع سابق، ص ٦٠، ٦١.

بلاط فارس فأصبح كاتبًا بالعربية و مترجمًا في ديوان كسرى^(١)، وكان لقيط بن يعمر الإيادي كاتبًا بالعربية، ويحسن الفارسية؛ فكان من أجل ذلك مترجمًا في ديوان كسرى أيضًا، وكان ورقة بن نوفل يكتب الكتاب العبراني.

٤. الكتب والرسائل:

مما يدل على معرفة العرب بالكتابة كثرة الرسائل التي وصلتنا عنهم؛ ومنها: كتاب المنذر الأكبر إلى كسرى أنوشروان، وكتاب عمرو بن هند إلى عامله على البحرين، وكتاب عبد العزى بن امرئ القيس الكلبى إلى قومه، وكتاب عدي بن زيد العبادي إلى أخيه أبي، ورد أخيه أبي عليه، وكتاب النعمان بن المنذر إلى كسرى، وكتاب عبد المطلب بن هاشم إلى أخواله بيثرب وغيرها^(٢).

ومن الأدلة أيضًا على قدم معرفة العرب بالكتابة، كتابة العهود والموآثيق والأحلاف التي يرتبطون بها فيما بينهم أفرادًا وجماعات، وما يتصل بها من كتابة كتب الأمان، ومنها كتاب النعمان الذي أرسله إلى الحارث بن ظالم وهو في مكة يؤمّنه^(٣).

٥. المعلقات والصحف في جوف الكعبة:

ومما يدل على معرفة العرب بالكتابة قبل الإسلام تلك المعلقات السبع التي كتبها العرب بساء الذهب وعلقوها في أستار الكعبة؛ يقول ابن عبد ربه: "كان

١. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط ٣، د. ت، (٢/ ١٠١، ١٠٢).

٢. جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت، (١/ ٩: ٣٠)، نقلا عن: تدوين وتوثيق السنة في حياة الرسول والصحابة،

د. جمال محمود خلف، مكتبة الإيوان، مصر، ٢٠٠٧م، ص ٥٥.

٣. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، مرجع سابق، (١١/ ١٢٠).

مَا تَبَيَّنَ الْعَيْنُ مِنْ آيَاتِهَا

غَيْرَ نُوْيٍ مِثْلِ خَطِّ بِالْقَلَمِ^(١)

وقال الزبيرقان بن بدر:

هُم يَهْلِكُونَ وَيَبْقَى بَعْدُ مَا صَنَعُوا

كَأَنَّ أَثَارَهُمْ خُطَّتْ بِأَقْلَامِ^(٢)

ومن أدوات الكتابة الدواة والمداد، وقد ورد ذكرهما

كذلك في الشعر الجاهلي، قال عبد الله بن عنمة:

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا دِمْنَةٌ وَمَنَازِلُ

كَمَا رُذِّ فِي خَطِّ الدَّوَاةِ مِدَادُهَا

مما سبق نستخلص أن العرب كانوا يعرفون الكتابة،

وأنها انتشرت بينهم، مما يجعلنا نظمن إلى أن عصر

الرسول ﷺ الذي أعقب عصر الجاهلية كانت الكتابة

فيه منتشرة ومعروفة معرفة جيدة.

ثانياً. انتشار الكتابة في عهد النبي ﷺ وأصحابه :

إذا كنا قد أشرنا إلى أن الكتابات العربية يرجع

تاريخها إلى العصر الجاهلي فإن وجودها في صدر

الإسلام - عصر الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين - يكون

من باب أولى بشكل أوسع، فالإسلام قد بنى رسالته

على العلم الذي يتطلب التعليم والتعلم، فكان أول ما

نزل في رسالته قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١)

(العلق).

ومن مظاهر انتشار الكتابة في ذلك العصر:

١. النقوش:

• نقش القاهرة: وهو مؤرخ في سنة (٣١)

هجريّة)؛ أي في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ؓ، وهو محفوظ في دار الآثار العربية، وإن كان هذا النقش قد كُتب بعد وفاة النبي ﷺ فإنه يدل على انتشار الكتابة في عهد النبي.

• عدة نقوش على قمة الطرف الجنوبي لـ "جبل سلع" في المدينة المنورة خارج سورها الشمالي. وقد عثر عليها د. محمد حميد الله، ويرجع تاريخها إلى غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة^(٢).

٢. الكتابات والرسائل إلى الملوك والأمراء:

والكتابات التي عُثر عليها أيضًا تدلنا على هذا الانتشار في العصر النبوي، إذ وجدت ثلاث رسائل أرسلها رسول الله ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط في مصر، وإلى المنذر بن ساوى، وإلى النجاشي في الحبشة، ولقد عثر على الأصول الحقيقية لهذه الرسائل، فضلاً عن التي لم يُعثر عليها وأخبرتنا به كتب التاريخ والسير.

٣. الموائيق والعهود:

ومما يدل على انتشار الكتابة انتشارًا واسعًا في عهد النبوة كثرة الموائيق والعهود والمعاهدات التي عقدها النبي ﷺ سواء بين المؤمنين وبعضهم، أو بين المؤمنين وغيرهم من اليهود والمشركين، بل إن النبي ﷺ جعل تعليم الكتابة والقراءة رأس مال يفندي به الأسير نفسه في بدر، فمن لم يكن لديه ما يفندي به نفسه، دفع إليه النبي ﷺ عشرة من غلمان المدينة يعلمهم الكتابة، فإن أتم مهمته فذاك فداؤه^(٤).

ومن ذلك أيضًا ميثاق التحالف الإسلامي الذي

٣. مصادر الشعر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد، مرجع سابق، ص ٣٢.

٤. الرحيق المختوم، المباركفوري، مرجع سابق، ص ٢٣٠.

١. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، مرجع سابق، (٢/ ١١٩).

٢. البيان والتبيين، الجاحظ، (٣/ ١٧٩)، نقلا عن: مصادر

الشعر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد، مرجع سابق، ص ٩٩.

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: "ما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو؛ فإنه كان يكتب ولا أكتب" ^(٦).

كما أن كتب الطبقات والرجال تُعدُّ من الصحابة عشرات بعد عشرات كلهم كاتب ضابط لما يكتب، إذ حَضَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين والصحابة على التعلُّم، وأمرهم بتعلم الكتابة خاصة، واعتنى المسلمون والصحابة بذلك، مما كان له أكبر الأثر في تعلم الكتابة والخط، وإتقان ذلك.

وليس أدل على انتشار الكتابة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وشيوعها مما أورده الجهشياري ^(٧)، وابن عبد ربه ^(٨)، والمسعودي ^(٩) - من ذكر أسماء الذين كتبوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد جعلوهم مراتب، وقدَّروهم منازل: فكتاب يكتبون بين يديه صلى الله عليه وسلم فيما يعرض من أموره وحوادثه، وآخرون يكتبون بين يدي الناس المدائنت والصدقات، وكاتب يكتب خَرَص ^(١٠) الحجاز، وآخر يكتب مغانم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثالث يكتب إلى الملوك ويحيب رسائلهم، ويترجم بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية، وكتاب آخرون يكتبون الوحي،

عقده النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين، أزال به ما كان من حزازات الجاهلية والنزاعات القبلية، ولم يترك مجالاً لتقاليد الجاهلية ^(١)، وكذلك المعاهدة التي عقدها النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود في المدينة عندما هاجر إليها ^(٢)، ومن تلك الأمور التي تدل على انتشار الكتابة في عهده صلى الله عليه وسلم انتشاراً واسعاً معاهدة الصلح التي تُسمَّى صلح الحديبية بين المسلمين بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم وقريش سنة ٦ هـ ^(٣) وغير ذلك.

٤. انتشار المصاحف ثم صحف الحديث:

ثمة أدلة أخرى على شيوع الكتابة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم منها تلك المصاحف التي كان يكتب فيها الصحابة كل ما ينزل من القرآن، وكذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن كتابة الحديث في بادئ الأمر، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا تكتبوا عني شيئاً، ومن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحِه" ^(٤)، ثم أمره بعد ذلك وترخيصه في كتابة الحديث حيث قال لعبد الله بن عمرو بن العاص: "اكتب، فوالذي نفسي بيده، ما خرج مني إلا حق" ^(٥). وبعيداً عن الخوض في موضوعات هذه الأحاديث، فإن فيها دلالة واضحة على أن أمر الكتابة كان مشهوراً ومنتشراً، وإلا لما حدَّر النبي صلى الله عليه وسلم من الكتابة ولما رخص فيها. ويدلنا على انتشار الكتابة أيضاً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ما

١. المرجع السابق، ص ١٨٧.

٢. السابق، ص ١٩٢.

٣. السابق، ص ٣٤٢.

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الزهد والرفائق، باب: الثبوت في الحديث وحكم كتابة العلم، (٩/ ٤٠٨٩)، رقم (٧٣٧٥).

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، (١٠/ ١٦، ١٧)، رقم (٦٥١٠). وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

٦. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم، (١/ ٢٤٩)، رقم (١١٣).

٧. انظر: الوزراء والكتاب، أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، مكتبة مصطفى الباي الحلبي، القاهرة، ط ١، د. ت.

٨. انظر: العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، مرجع سابق.

٩. انظر: التنبية والإشراف، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، ١٩٣٨ م.

١٠. الخَرَص: تقدير ما على النخل من الرطب تمرًا.

حالة فردية، وإنما يدل على أن هؤلاء الكاتبين من الأسرى كانوا جماعات^(٤).

ثالثاً. وصف العرب بالأميين لا يعني أمية القراءة والكتابة:

لقد حاول المغرضون الاستدلال على زعمهم بأن العرب كانوا يجهلون القراءة والكتابة بوصف القرآن لهم بأنهم أميون، وهذا جهل فاضح منهم إذ إن معنى الأمية التي وُصف بها العرب في القرآن الكريم غير ما توهموا، ولتوضيح ذلك نقول: لقد وُصف العرب في جاهليتهم بأنهم أميون في ثلاث آيات؛ قال ﷺ: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ (آل عمران: ٢٠)، وقال ﷺ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران: ٧٥)، وقال ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ (الجمعة: ٢).

غير أن هذا الوصف بالأمية لا يعني الأمية الكتابية ولا العلمية، وإنما يعني الأمية الدينية؛ أي أنهم لم يكن لهم قبل القرآن الكريم كتاب ديني، ومن هنا كانوا أميين دينياً، ولم يكونوا مثل أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين كان لهم التوراة والإنجيل.

ومن الأدلة على ذلك أن القرآن الكريم قد وصف فريقاً من أهل الكتاب بالأميين، وذلك في قوله ﷺ:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۗ﴾ (٧٨) قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ

٤. مصادر الشعر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد، مرجع سابق، ص ٥٣.

® في "أمثلة مما كُتِب من السنة في عهد النبي" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء.

ثم يعقب المسعودي بعد أن ينتهي من ذكر أسماء هؤلاء الكتاب واختصاصهم بقوله: "وإنما ذكرنا من أسماء كتابه ﷺ من ثبت على كتابته واتصلت أيامه فيها، وطالت مدته، وصحت الرواية على ذلك من أمره، دون من كتب الكتاب والكتابين والثلاثة؛ إذ كان لا يستحق بذلك أن يسمى كاتباً، ويضاف إلى جملة كتابه"^(١).

فأي شيوع نرجوه لكتابة أكثر من أن يبلغ الكاتبون من الكثرة منزلة تجعلهم يتخصصون في أنواع ما يكتبون، يستقل كل فرد منهم أو كل جماعة بضرب واحد؟ إن هذه الكثرة في عدد الكاتبين هي التي دعت عمر بن الخطاب ﷺ إلى أن يقول: "لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف"^(٢)، ودعت كذلك عثمان بن عفان ﷺ إلى أن يقول: "لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف..."^(٣)؛ إذ لو كانت الكتابة قليلة بين العرب لقبيل عمر وعثمان من أي كاتب أن يكتب.

وفي ضوء ما قدمنا نستطيع أن نفهم فداء الأسرى في بدر حين أذن الرسول ﷺ لمن كان كاتباً من الأسرى أن يفدي نفسه بتعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة والقراءة؛ إذ لا ريب أن هذا الإذن لم يكن منصباً على

١. التنبيه والإشراف، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مرجع سابق، ص ٢٤٥، ٢٤٦.

٢. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، كتاب: جمع عمر بن الخطاب ﷺ القرآن في المصحف، باب: لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف، (١/ ٣٩)، رقم (٢٩).

٣. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، كتاب: اختلاف الحان العرب في المصاحف، باب: لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف، (١/ ١٠٨)، رقم (٨٨).

شاملاً؛ وذلك لأن عرب الجاهلية قد كانوا يكتبون ويحسبون، وإنما هو نفي لأن تكون الكتابة وأن يكون الحساب نظاماً عاماً متبعاً في كل الشئون كما كان ذلك عند بعض الأمم الأخرى ذات التقاويم الفلكية^(٤).

الحديث إذن لا ينقض ما قدمنا من أمر معرفة العرب بالكتابة وانتشارها بينهم، وأن أميتهم إنما كانت أمية دينية فحسب، وبهذا تبطل حجة من يزعم أن المسلمين في صدر الإسلام لم يكن لديهم معرفة بالكتابة والخط.

الخلاصة:

- لقد استبان بالدليل المادي الملموس المتمثل في النقوش الحجرية المكتشفة، أن عرب الجاهلية قد عرفوا الكتابة بالحروف العربية منذ مطلع القرن الرابع الميلادي، وكتبوا بهذا الخط ثلاثة قرون قبل الإسلام على أقل تقدير.

- إن معرفة عرب الجاهلية بالكتابة معرفة فيها شيء من الانتشار يبعد عنهم ما وصموا به من الجهل بها، وقد دللنا على ذلك بوفرة النصوص والروايات التي تنبئ عن النشاط التعليمي في الجاهلية، وقيام ما يشبه الكتاتيب في عصرنا الحاضر، أو المكتب آنذاك، وتوافر عدد المعلمين الذين كانوا يعلمون الكتابة، وذلك كله في البيئات المتحضرة مثل: مكة والمدينة والطائف والحيرة والأنبار.

- لقد اتسع ميدان الكتابة وتشعبت موضوعاتها،

٤. انظر: مصادر الشعر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد، مرجع سابق، ص ٤٤: ٤٦.

يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلًا لَهُمْ مِمَّا كُنْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَقَوْلًا لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٨﴾ (البقرة).

فأمية هذا الفريق ليست أمية كتابية؛ لأنه قد أخبر أنهم كانوا يكتبون بأيديهم، وإنما هي أمية دينية؛ أي جهل بالدين، وإنكار له وعدم تصديق، ومن أجل هذا فَسَّرَ ابن عباس رضي الله عنهما هاتين الآيتين فيما رواه ابن جرير الطبري بإسناده إليه، قال: "ومنهم أميون؛ قال: الأميون قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله، ولا كتاباً أنزله الله، فكتبوا كتباً بأيديهم، ثم قالوا لقوم سفلة جُهَال: هذا من عند الله"^(١). وقال: "قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم؛ ثم ساءهم أميين لحدودهم كتب الله ورسله"^(٢). وأما قوله ﷺ: "إن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب"^(٣)، فلا ينقض ما قدمنا؛ وذلك لأنه قال ذلك في حديث الصيام عن رؤية الهلال، وهذا لا يعني إلا ضرباً خاصاً من الكتابة والحساب، وهو حساب سير النجوم، وتقييد ذلك بالكتابة لمعرفة مطلع الشهر، فقد أخبر أن هذا الضرب من العلم المدوّن المسجل القائم على الحساب والتقويم لم يكن للعرب عهد به، ومن هنا علق الحكم بالصوم وغيره بالرؤية لرفع الحرج عنهم في معاناة حساب التسيير.

والحديث لا يعني نفي الكتابة والحساب نفيًا عاماً

١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، (٢/ ٢٧٠).

٢. المرجع السابق، (٢/ ٢٥٩).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الصوم، باب: قول النبي ﷺ: "لا نكتب ولا نحسب"، (٤/ ١٥١)، رقم (١٩١٣).

الشبهة الثانية

إنكار كتابة السنة على عهد النبي ﷺ (*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغالطين كتابة السنة في عهد النبي ﷺ، ويعتبرون أن كتابتها بدعة نهى رسول الله ﷺ عنها في أكثر من موضع، فقد قال ﷺ: "لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن، فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه"، وعن أبي هريرة ؓ قال: "كنا قعوداً نكتب ما نسمع من النبي ﷺ، فخرج علينا، فقال: ما هذا تكتبون؟ فقلنا: ما نسمع منك، فقال: أكتب مع كتاب الله...". كما أنه ﷺ لم يأذن لأبي سعيد الخدري ؓ حين استأذنه في كتابة الحديث. وكذلك فقد نقلت الأحاديث مشافهة فقط؛ إذ لم تكن الكتابة منتشرة بين العرب. رامين من وراء ذلك إلى الطعن في كون السنة كُتبت في عهد النبي ﷺ والتشكيك في مشروعيتها كتابتها.

وجوه إبطال الشبهة:

- (١) إن الأحاديث المتقدمة من أدلة الزاعمين لا تدل على النهي العام المطلق عن كتابة الحديث، وهي تتعارض مع أحاديث أكثر ثبوتاً وأصرح دلالة أباح فيها النبي ﷺ كتابة السنة، مما يقوّي القول بنسخها.
- (٢) لقد ثبتت أحاديث كثيرة أباح النبي ﷺ فيها كتابة السنة، وأن النهي عن كتابتها في بادئ الأمر كان لعل، فلما زالت تلك العلل أذن النبي ﷺ في كتابتها.
- (٣) لا ننكر أن السنة كانت تنقل مشافهة غالباً

فكان العرب يكتبون في موضوعات شتى، كما ثبت وصف أدوات الكتابة وآلاتها عن طريق النقوش الحجرية، وما وصل إلينا في بطون كتب التاريخ والأدب.

• جاء عصر الرسول ﷺ وبدأت الكتابة تنتشر وتزداد، وهو ما دلت عليها النقوش، والرسائل والمكاتبات إلى الملوك والأمراء، كما ساعد على انتشارها حض النبي ﷺ على تعلم الكتابة والخط، وأخذ الصحابة بهذا التوجيه، حتى تعلم بعضهم اللغات الأخرى كالفارسية والعبرية وغيرها.

• من الأدلة على انتشار الكتابة في عصر الرسول ﷺ أيضاً ما ثبت من نهيه ﷺ عن كتابة الحديث، ثم ترخيصه في كتابته؛ إذ إن هذا يثبت انتشار الكتابة بين المسلمين في ذلك الوقت.

• إن وصف العرب بالأمية لا يعني الأمية الكتابية والعلمية، إنما يعني الأمية الدينية، ودليل ذلك أن القرآن وصف فريقاً من أهل الكتاب بالأميين، بقوله ﷺ: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ (البقرة)، فهذا الفريق لم تكن أميته أمية كتابية، إنما هي أمية دينية؛ إذ قد أخبر تعالى أنهم كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم.



(*) كيف ولماذا التشكيك في السنة، د. أحمد عبد الرحمن، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

ورفعه^(٣)؛ قال ابن حجر: "ومنه من أعلَّ حديث أبي سعيد، وقال: الصواب وقفه على أبي سعيد، قاله البخاري وغيره"^(٤). وقال الخطيب البغدادي: "تفرَّد همام برواية هذا الحديث عن زيد بن أسلم هكذا مرفوعاً"^(٥).

وهذا الحديث أصح ما ورد عن رسول الله ﷺ في هذا الباب، وإليك الفهم الصحيح لهذا الحديث: الحديث يبيِّن أن النهي عن الكتابة كان بخصوص الصحيفة التي كُتِبَ عليها القرآن، فخشي الرسول ﷺ أن يختلط كلامه بالقرآن الكريم؛ فنهاهم عن كتابة الحديث والقرآن في صحيفة واحدة.

والقول بنسخ الحديث قول كثير من العلماء وذهب إليه العلامة أحمد شاكر، فبعد أن دعم رأيه بالأخبار التي تبيح الكتابة قال: كل هذا يدل على أن حديث أبي سعيد منسوخ، وأنه كان في أول الأمر حين خاف اشتغاله عن القرآن، وحين خيف اختلاط غير القرآن بالقرآن، وحديث أبي شاه في أواخر حياة النبي ﷺ، وكذلك أخبار أبي هريرة - وهو متأخر الإسلام - أن عبد الله بن عمرو كان يكتب يدل على أن عبد الله كان يكتب بعد إسلام أبي هريرة، ولو كان حديث أبي سعيد في النهي متأخرًا عن الأحاديث في الإذن والجواز لعرف ذلك عند الصحابة يقينًا صريحًا، ثم جاء إجماع الأمة

وذلك لاعتماد العرب على الذاكرة أكثر من اعتمادهم على الكتابة، لكن هذا لا يعني أنها كانت لا تكتب في عهده، وأمثلة ما كُتِبَ آنذاك كثيرة.

التفصيل:

أولاً. الأحاديث التي استدلت بها الزاعمون لا تدل على النهي المطلق عن كتابة الحديث:

من الثابت تاريخياً أن كتابة السنة بدأت في حياة النبي ﷺ، فقد صحت الأخبار في إباحة النبي ﷺ الكتابة عنه، ومن المجازفة إنكار ذلك، وأما الأحاديث التي استدلتوا بها على إنكار كتابة السنة في عهده ﷺ، والتي فيها نهي النبي ﷺ عن الكتابة - فإنها محمولة على خوف اختلاط السنة بالقرآن، أي أن النهي عن الكتابة كان مرحلياً فقط، ثم نُسخ ذلك بإباحتها.

فقد جاءت أحاديث عن النبي ﷺ فهم منها خطأً أنها تفيد كراهة كتابة الحديث، ولكنها في حقيقتها تثبت كتابة الحديث، ونبين ذلك فيما يلي:

الحديث الأول: هو حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وقد روي من طريقين بألفاظ مختلفة:

الرواية الأولى: من طريق همام، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: "لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه"^(١).

وقد اختلف العلماء في هذا الحديث في وقفه^(٢)

٣. الحديث المرفوع: ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية.

٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرين، دار الريان للتراث، القاهرة، ط ١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، (١ / ٢٥١).

٥. تقييد العلم، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، ص ٣١.

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الزهد والرقائق، باب: التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، (٩ / ٤٠٨٩)، رقم (٧٣٧٥).

٢. الحديث الموقوف: هو ما روي عن الصحابة ﷺ من أقوالهم وأفعالهم وتقاريراتهم متصلاً كان إسناده أو منقطعاً.

لقد اختلف العلماء في صحة هذه الرواية؛ فمنهم من رأى أن في هذه الرواية ضعفاً؛ إذ ضَعَفَ العلماء عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فقد ضَعَفَهُ النسائي وأحمد والشافعي، وابن حبان قال عنه: "كان ممن يقلب الأخبار وهو لا يعلم، حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل، وإسناد الموقوف، فاستحق الترك"^(٤)، وقد حكم الذهبي على هذا الحديث فقال: "حديث منكر"^(٥).

فعلى فرض ضعف الرواية فلا شبهة، ولكن الرواية صححها بعض أهل العلم، وتوجيهها إن صح الإسناد فإن المتن يشير صراحة إلى عدم الكتابة مع القرآن في صحيفة واحدة، وهذا واضح في قوله ﷺ: "... أكتب مع كتاب الله..."، فقد خشي ﷺ أن يختلط القرآن بالسنة.

وقد حكم الشيخ العلامة شعيب الأرنؤوط على هذه الرواية بالصحة كما حققها في مسند أحمد رحمه الله تعالى في مسند أبي سعيد الخدري ﷺ، وعليه، فإن الرواية صحيحة، وقد صح النهي عن الكتابة، وصح الإذن فيها، فيكون بذلك الإذن ناسخ والنهي منسوخ، وكان النهي عن الكتابة لعل، فلما زالت العلة أذن في الكتابة، وعلى هذا نقيس كل الأحاديث التي صَحَّت في هذا الباب[®].

٤. كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، ابن حبان، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، سوريا، ط ٢، ١٤٠٢هـ (٢/ ٥٧).

٥. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الذهبي، تحقيق: علي محمد الجاوي، دار المعرفة، بيروت، د. ت، (٢/ ٥٦٥).

® في "حرق النبي ما كُتِب من السنة لا يعني نفيه المطلق عن كتابتها" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة، من هذا الجزء.

القطعي بَعْد قرينة قاطعة على أن الإذن هو الأمر الأخير، وهو إجماع ثابت بالتواتر العلمي عن كل طوائف الأمة بعد الصدر الأول ﷺ^(١).

والرواية الثانية: عن سفيان بن وكيع، عن سفيان بن عيينة، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري قال: "استأذنا النبي ﷺ في الكتابة فلم يأذن لنا"^(٢).

وهذه الرواية صحيحة أيضًا، وفيها دليل على أن الكتابة كانت شائعة، وإنما كان الاستئذان لأجل أمر عارض أرادوا كتابته، فلم يأذن لهم الرسول ﷺ في كتابته وتسجيله لحكمة يريد بها ﷺ، وفي لفظ "استأذنا" إشارة للجميع مما يفيد أن الكثرة كانت تكتب.

والحديث الثاني: هو حديث أبي هريرة ﷺ، فعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال: "كنا قعودًا نكتب ما نسمع من النبي ﷺ فخرج علينا، فقال: ما هذا تكتبون؟ فقلنا: ما نسمع منك. فقال: أكتب مع كتاب الله؟ فقلنا: ما نسمع، فقال: اكتبوا كتاب الله، امحضوا كتاب الله، أكتب غير كتاب الله؟ امحضوا كتاب الله..." الحديث^(٣).

١. الباعث الخيث شرح اختصار علوم الحديث، أحمد شاكر، دار التراث، القاهرة، ط ٢، ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م، ص ١٢.

٢. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذبي)، كتاب: العلم، باب: كراهية كتابة العلم، (٧/ ٣٥٦)، رقم (٢٨٠٢). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٦٦٥).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي سعيد الخدري ﷺ، رقم (١١١٠٧). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

ثانياً. لقد أجاز النبي ﷺ كتابة السنة والأدلة على ذلك كثيرة:

لقد سبق أن أشرنا إلى الأحاديث التي استدلت بها الزاعمون في النهي عن كتابة الحديث، ولكن هذه الأحاديث لا تقوى أمام أحاديث أكثر ثبوتاً وأصرح دلالة أباح فيها النبي ﷺ كتابة الحديث ومنها:

الحديث الأول: ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما أنه "لما فتح رسول الله ﷺ مكة خطب... فجاء رجل من أهل اليمن فقال: اكتب لي يا رسول الله، فقال ﷺ: اكتبوا لأبي فلان"^(١)، قال ابن حجر: "هو أبو شاه". وقيل للأوزاعي: ما قوله اكتبوا لي؟ قال: هذه الخطبة التي سمعها من رسول الله ﷺ^(٢)، وهذا أمر صريح من النبي ﷺ بالكتابة.

الحديث الثاني: روى البخاري بسنده أن رسول الله ﷺ لما اشتد وجعه قال: "اتنوني بكتاب، أكتب لكم كتاباً لاتضلوا بعده..."^(٣). ولو لم يكن النبي ﷺ يُبَيِّح الكتابة ما دعا إلى كتابة هذا الكتاب، ولهذا يقول ابن حجر: "وفي هذا الحديث دليل على جواز كتابة العلم؛ لأنه هم أن يكتب لأتمته كتاباً يحصل معه الأمن من الاختلاف، وهو لا يهيم إلا بحق"^(٤).

١. صحيح البخاري (شرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم، (١/ ٢٤٨)، رقم (١١٢). صحيح مسلم (شرح النووي)، كتاب: الحج، باب: تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاها وشجرها... (٥/ ٢١١٠)، رقم (٣٢٤٧).
٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، (١/ ٢٤٩).
٣. صحيح البخاري (شرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم، (١/ ٢٥١)، رقم (١١٤).
٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، (١/ ٢٥٣).

الحديث الثالث: روى البخاري بسنده عن وهب بن منبه عن أخيه، قال: سمعت أبا هريرة يقول: "ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب"^(٥).

فإذا كان حديث أبي شاه يحتمل أن يكون إذن الكتابة له خاصاً؛ لأنه كان أمياً وكان أعمى؛ فإن هذا الحديث بطرقه التي ذكرها البخاري وغيره أقوى في الاستدلال للجواز؛ لأن ابن عمرو لم يكن أمياً ولم يكن أعمى^(٦).

الحديث الرابع: روى البخاري بسنده عن أبي جحيفة قال: "قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، وفهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة، قال قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر"^(٧).

إن هذه الأحاديث المرفوعة إلى النبي ﷺ وغيرها إن لم تدل على أن حديث أبي سعيد غير مرفوع إلى النبي ﷺ فإنها تقضي بتأويله، والجمع بينه وبينها.

ولا نقول كما يقول بعضهم: إن حديث أبي سعيد هو المتأخر، فيكون ناسخاً لها؛ لأن حديث أبي شاه كان عام الفتح، وذلك في أواخر حياة النبي ﷺ، وحديث أبي هريرة في المقارنة بينه وبين عبد الله بن عمرو متأخر

٥. صحيح البخاري (شرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم، (١/ ٢٤٩)، رقم (١١٣).
٦. توثيق السنة في القرن الثاني الهجري: أسسه واتجاهاته، د. رفعت فوزي عبد المطلب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨١م، ص ٤٨.
٧. صحيح البخاري (شرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم، (١/ ٢٤٦)، رقم (١١١).

وفي الوقت نفسه تعليم الصحابة والأئمة من بعدهم المنهج الأمثل في المحافظة على هذا الكتاب الخالد؛ لذا جاء الإذن بكتابة السنة لمن اعتادوا أسلوب القرآن وتمييزه كعبد الله بن عمرو وغيره ممن أذن لهم النبي ﷺ، مع استمرار النهي عن كتابة السنة مع القرآن في صحيفة واحدة حتى وإن كان مميزاً بينهما.

أما سؤال بعضهم: لماذا لم يأمر النبي ﷺ بكتابة السنة في صحف على حدة، ويكتب عليها ما يفيد أنها أقوال النبي ﷺ فتمتيز السنة من القرآن فيؤمن اختلاطها؟

فقول: أذن النبي ﷺ بكتابة سنته المطهرة في صحف على حدة، ومن أذن له النبي ﷺ بذلك: عبد الله بن عمرو، وجابر بن عبد الله، وغيرهما.

وعليه، فالنبي ﷺ نهى عن الكتابة في أول الأمر، ثم أذن بعد ذلك، وكان النهي جائزاً مع الخوف (خوف الاختلاط بالقرآن)، والإذن دائر مع الأمن وجوداً وعدمًا.

٢. خشية الانشغال عن القرآن الكريم ومضاهاته بغيره من الكتب حتى ولو كانت السنة النبوية: والمراد بالانشغال عن القرآن: تقديمها في الاهتمام بها قبل الاهتمام أولاً بكتاب الله ﷻ، مما يؤدي إلى ترك كتاب الله وإهماله^(٢)، وهذه العلة صرح بها راوي حديث النهي عن الكتابة وهو الصحابي الجليل أبي سعيد الخدري ﷺ، قال أبو نضرة: قلنا لأبي سعيد الخدري: لو كتبتم لنا؟ فإننا لا نحفظ، قال: "لا نكتب لكم ولا نجعلها مصاحف، كان رسول الله ﷺ يحدثنا فنحفظ، فاحفظوا عنا كما كنا نحفظ عن نبيكم"، وفي رواية قال

أيضاً؛ لأن أبا هريرة متأخر الإسلام، وهو يدل أيضاً على أن عبد الله كان يكتب بعد إسلام أبي هريرة، وحديث همة ﷺ بكتابة كتاب لن تضل الأمة بعده كان في مرض موته ﷺ، ويعد جداً أن يكون حديث أبي سعيد الخدري قد تأخر عن هذه الأحاديث كلها خصوصاً حديث "الهم"، ولو كان حديث أبي سعيد في النهي متأخر عن هذه الأحاديث في الإذن والجواز، لعرف ذلك عند الصحابة يقيناً صريحاً^(١).

وبهذا يتبين أن النهي عن كتابة السنة لم يكن لكونها بدعة كما يدعي أصحاب هذه الشبهة، ولكن لعلل أغمض هؤلاء المدعون أعينهم عنها، على الرغم من أن هذه العلل واردة في نفس الأحاديث التي احتجوا بها.

ومن هذه العلل:

١. المحافظة على كتاب الله ﷻ، وصيانته عن خلطه بالسنة دون تمييز بينهما: ويبدو هذا واضحاً في رواية أبي هريرة: "أكتب مع كتاب الله... احضوا كتاب الله أو خلصوه". ففي رواية أبي هريرة تلك، ما يبين أن السنة في عهد النبوة والصحابة كانت تُكتب بجوار القرآن في صحيفة واحدة بلا تمييز يُحفظ معه القرآن من اشتباهه بالسنة التي كُتبت بجواره.

ومن هنا ندرك صحة علة النهي عن كتابة شيء - في أول الأمر - سوى القرآن الكريم صيانة لهذا الكتاب المعجز ممن كانوا حديثي عهد بالإسلام، ولم يعتادوا على أسلوبه وأكثرهم من الأعراب الذين لم يكونوا فقهاء في الدين.

١. السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: مناقشتها والرد عليها، د. عماد السيد الشربيني، دار اليقين، مصر، ط ١، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م، (١ / ٢٨٥) بتصرف.

٢. المرجع السابق، (١ / ٢٨٨ : ٢٩١).

وتدوينها، فلما زالت تلك العلة كان الإذن بالكتابة، تلك العلة التي غفل عنها أعداء السنة على الرغم من وجودها صراحة في نفس الأخبار والآثار التي احتجوا بها لشبهتهم، فإن سلّموا بصحة تلك الأحاديث، عليهم التسليم بالعلل الواردة فيها، وإن لم يسلموا بصحة ما استشهدوا به من الأخبار والآثار لم يبقَ لشبهتهم أساس^(٤)، وفي كلتا الحالتين يبطل ما زعموه من أن كتابة السنة بدعة نهي عنها النبي ﷺ.

والحق كما سبق أن قررنا أن النهي كان لعله، فلما زالت هذه العلة كان الإذن بالكتابة، فالخوف من التباس القرآن بالحديث، والخوف من الانكباب على الحديث والانشغال به عن القرآن، كان هذا كله سبباً للمنع من الكتابة، فلما زالت هذه الأسباب عاد الأمر إلى السماح بكتابة الحديث، وقد استقر أمر الصحابة على كتابة الحديث وتدوينه.

ثالثاً. لا ننكر أن السنة كانت تنقل مشافهة، ولكن هذا لا يعني أنها كانت لا تكتب:

سقنا في الوجه السابق الأدلة على كتابة السنة في عهد النبي ﷺ، وسنذكر أمثلة على المكتوبات التي كانت في عهده ﷺ، فنحن لا ننكر أن السنة كانت تُنقل مشافهة، وذلك لاعتماد العرب في تواريحهم وأخبارهم وتجاريتهم وسائر أحوالهم على الحفظ، حتى قويت هذه الملكة عندهم، ونُدّر أن يقع منهم خطأ أو نسيان لشيء مما حفظوه، ولقد ساعد العرب على تقوية ملكة الحفظ عندهم طبيعة جوههم، وبساطة معيشتهم، ووحدة

٤. السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام، د. عماد السيد الشريبي، مرجع سابق (١/٢٩٨، ٢٩٩) بتصرف.

أبو سعيد: "تريدون أن تجعلوها مصاحف"^(١)؟

وقال الخطيب البغدادي: "فقد ثبت أن كراهة الكتابة من الصدر الأول، إنما هي لثلا يضاهاى بكتاب الله ﷻ غيره، أو يُشغل عن القرآن بسواه"^(٢).

٣. الحرج في الكتابة: عند كتابة الصحابة للقرآن الكريم لم تكن وسائل الكتابة ميسرة عندهم؛ لأن الوسائل المتاحة لهم وقتئذ كانت بدائية وغير ميسرة، منها: رقاق الحجارة، والعظام، وسعف النخيل، وجلود الحيوانات، وكانت الأحاديث النبوية أكثر من أن يحصوها؛ ذلك لأن النبي ﷺ أتاه الله العلم والحكمة والنبوة، فكان له في كل حدث قول، وفي كل مسألة جواب، وفي كثير من الوحي تفسير وبيان، فأنى لهم الوسائل الكتابية؟! ومن أين لهم الوقت الكافي لتدوين الحديث النبوي كله تدويناً كاملاً؟ وليسوا مضطرين - مع ذلك - أن يعتمدوا على الكتابة، وقد منحهم الله حافظة في صدورهم تعوض لهم ما فاتهم من الكتابة تدويناً وتقييداً، ولم يُرد النبي ﷺ أن يشق عليهم، فيأمرهم بتدوين السنة النبوية، بل اكتفى بتدوين القرآن الكريم وكتابته^(٣).

وعليه، فقد ظهر واضحاً جلياً أن نهى النبي ﷺ عن كتابة الحديث في أول الأمر ليس لذاته، بل لعل نصت عليها الأحاديث ذاتها التي نهت عن كتابة السنة

١. أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم، كتاب: الآثار والأخبار الواردة عن كراهة كتابة العلم، باب: ذكر الأحاديث الموقوفة عن الصحابة ﷺ في ذلك، ص ٣٦.

٢. تقييد العلم، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، ص ٥٧.

٣. معالم السنة، عبد الرحمن عتر، نقلاً عن: السنة النبوية بين كيد الأعداء وجهل الأعداء، حمدي عبد الله الصعيدي، مكتبة أولاد الشيخ، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٧م، ص ٩٩: ١٠١ بتصرف.

الله ﷺ كتاباً لوائيل بن حُجر ليعمل به أهل
حضر موت^(٢) فيه أركان الإسلام وتعاليمه وفريضة
الزكاة وحد الزنا والخمر.

٤. كتاب النبي ﷺ لأهل اليمن: عندما ولى رسول
الله ﷺ عمرو بن حزم على اليمن أعطاه كتاباً فيه
الفرائض والسنن والديات وغيرها، وقد عُرف الكتاب
باسم صحيفة عمرو بن حزم^(٣).

٥. الصحيفة الصادقة: كما توجد الصحيفة الصادقة
لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما الذي
سمح له النبي ﷺ بكتابة الحديث، وقد عرف سندها
في كتب السنة باسم عمرو بن شعيب عن أبيه عن
جده، والجد هو صاحب الصحيفة عبد الله بن عمرو
بن العاص.

٦. صحيفة جابر بن عبد الله: كما توجد صحيفة
الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري، وقد ذكرها ابن
سعد في ترجمة مجاهد.

إن هذه الصحف ليست وحدها التي اشتملت على
ما كُتب في عصر النبي ﷺ وصحابته، بل هي أهم ما
دُوِّن في هذا العصر، ومع هذا فهي تحوي أموراً كثيرة
من أركان الإسلام وفروعه^(٤).

ولقد وردت آثار عن الصحابة الكرام ﷺ تشير إلى
أنهم كانوا يكتبون سنة رسول الله ﷺ، وسنذكر بعضها
هنا للتدليل على ما نحن بصدده:

٢. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: علي
محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، د. ت، (٦ / ٥٩٦).

٣. المرجع السابق، (٤ / ٢٩٣).

٤. السنة المفترى عليها، سالم علي البهنساوي، دار الوفاء، مصر،
١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ص ٥٨: ٦١ بتصرف.

ذكائهم، وقوة فهمهم لما يحدث بينهم، وسعة خبرتهم
بأساليب وطرق بيانهم، هذه حالة العرب في جاهليتهم
فما بالك بالصحابة الذين قبضهم الله تعالى لحفظ الشرع
وصيانيته، والذين دعا لهم النبي ﷺ بالحفظ والعلم
والفقه كما ورد عن أبي هريرة وابن عباس ﷺ.

وقريب من الصحابة في هذا المقام من اجتمع بهم
وشاهد أحوالهم واتبع خطاهم واقتفى آثارهم من
التابعين، كل ذلك يكاد ينفي عن سامع الحديث من
أحدهم توهم خطأ أو نسيان أو تبديل أو اختلاق، ولقد
كان كثير من الصحابة والتابعين مطبوعين على الحفظ،
مخصوصين بذلك؛ كأبي هريرة، وابن عباس، والشعبي،
والزهري، والنخعي، وقتادة، وغيرهم.

فكانت الأخبار تُنقل مشافهة دون الخوف من
ضياعتها، أو دخول النسيان، والخلط، والتصحيف
فيها، وكان الصحابة ﷺ يحفظون الأحاديث عن ظهر
قلب ويبلغونها للناس كما سمعوها من النبي ﷺ، لكن
هذا لا يعني أن السنة كانت لا تكتب في عهد النبي ﷺ،
بل ثبت كتابتها على عهد النبي ﷺ وتدوينها، ومن أمثلة
ما كُتب على عهد النبي ﷺ ما يأتي:

١. دستور المدينة: عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة
وضع قانوناً ودستوراً ينظم شئون المسلمين من ناحية،
ويقنن علاقاتهم مع غيرهم من سكان يثرب وأهلها من
ناحية أخرى.

٢. كتاب سعد بن عبادة ﷺ: وكان عند سعد بن
عبادة الأنصاري كتاب فيه بعض أحاديث النبي ﷺ^(١).

٣. كتاب النبي ﷺ لأهل حضر موت: سلّم رسول

١. السنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب، مكتبة وهبة،
القاهرة، ط ٤، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ٣٤٦.

النبي ﷺ[®].

الخلاصة:

• إن المتأمل في أسانيد ومتون الأحاديث التي استدلت بها هؤلاء المدعون في زعمهم أن النبي ﷺ نهي عن كتابة السنة لأنها بدعة، يجد أن أغلب هذه الأسانيد لا تسلم من مقال، فأما ما صح منها فقد حمله المدعون ما لا يتحمل؛ إذ إن الجمهور من العلماء قال بنسخ أحاديث النهي عن الكتابة، ومنها حديث أبي سعيد الخدري: "لا تكتبوا عني شيئاً..."، وهذا النهي كان معللاً بعلل وجوداً وعدماً كما أن متونها لا تفيد أن نهي النبي ﷺ عن كتابة الحديث كان نهياً مطلقاً عاماً.

• لقد أباح النبي ﷺ لبعض الصحابة أن يكتبوا الأحاديث كعبد الله بن عمرو بن العاص، وكأمره الصحابة بالكتابة لأبي شاه في عام الفتح، وعليه فلم يكن هذا النهي عن كتابة الحديث نهياً مطلقاً، بل كان هذا النهي لعلل منها: خشية اختلاط السنة بالقرآن، والانشغال عن القرآن بالسنة، فلما زالت هذه العلل استقر الأمر على إباحة كتابة الحديث وتدوينه، ومن ثم لا تكون كتابته بعد ذلك من البدع المذمومة في الدين.

• إن كتابة العلم مبدأ إسلامي، جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية، وعمل به السلف، ولا زالت الأمة عليه إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

• لقد وردت أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ

® في "مظاهر انتشار الكتابة في عهد النبي وأصحابه" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الأولى، من هذا الجزء.

١. روي عن بشير بن نهيك قال: "كنت أكتب ما أسمع من أبي هريرة، فلما أردت أن أفارقه أتيت به بكتابي فقرأته عليه، وقلت له: هذا ما سمعت منك؟ قال: نعم"^(١).

٢. روي عن عمرو بن أبي سفيان أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: "قيدوا العلم بالكتاب"^(٢).

٣. روي عن سعيد بن جبير أنه كان يقول: "كنت أجلس إلى ابن عباس فأكتب في الصحيفة حتى تمتلي، ثم أقلب نعلي فأكتب في ظهورهما"^(٣).

ونستطيع أن نضيف إلى كل ما سبق كتب رسول الله ﷺ ومعاهداته التي أملاها على الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومنها ما كان في قراب سيف النبي ﷺ، فقد روى الإمام البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو؛ فإنه كان يكتب ولا أكتب"^(٤).

إن هذا كله يؤكد أن كتابة السنة بدأت في عهد رسول الله ﷺ، واستمرت في عصر الخلافة الراشدة، ثم آل أمرها إلى التدوين الرسمي في عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وهذا أمر لا خلاف فيه ولا نزاع، وبه تسقط هذه الدعاوى حول كتابة السنة في عهد

١. أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، باب: ذكر الرخصة في كتاب العلم، (١/ ٣١٣)، رقم (٤٠٣).

٢. أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، باب: ذكر الرخصة في كتاب العلم، (١/ ٣٠٩)، رقم (٣٩٦).

٣. أخرجه الدارمي في سننه، المقدمة، باب: من رخص في كتابة العلم، (١/ ١٣٩)، رقم (٥٠١).

٤. صحيح البخاري (شرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم، (١/ ٢٤٩)، رقم (١١٣).

فقلنا: ما نسمع منك، فقال: أكتب مع كتاب الله؟ فقلنا: ما نسمع، فقال: اكتبوا كتاب الله، امحضوا كتاب الله، أكتب غير كتاب الله، امحضوا كتاب الله أو خلصوه، قال: فجمعنا ما كتبنا في صعيد واحد ثم أحرقناه بالنار".

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا قال: "بلغ رسول الله ﷺ أن ناسًا قد كتبوا أحاديثه، فصعد المنبر، وقال: ما هذه الكتب التي بلغني أنكم قد كتبتم؟ إنما أنا بشر، فمن كان عنده شيء منها فليأت بها. يقول أبو هريرة: فجمعناها فأخرجت".

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: "جمع أبي الحديث عن رسول الله ﷺ وكانت خمسمائة حديث، فبات ليلته يتقلب كثيرًا؛ فغممني، فقلت: أتقلب بشكوى أم لشيء بلغك؟ فلما أصبح قال: أي بُنيّة، هلمي الأحاديث التي عندك فجئت بها، فدعا بناير فأحرقها، فقلت: لم أحرقها؟ قال: خشيت أن أموت وهي عندي فيكون فيها أحاديث عن رجل ائتمنته ووثقت فيه، ولم يكن كما حدثني فأكون قد نقلت ذلك".

• عن القاسم بن محمد أن عمر بن الخطاب بلغه أنه قد ظهر في أيدي الناس كتب، فاستنكرها وكرهها، وقال: "أيها الناس، إنه قد بلغني أنه قد ظهرت في أيديكم كتب، فأحبها إليّ أعد لها وأقومها، فلا يُيقن أحد عنده كتابًا إلا أتاني به، فأرى فيه رأيي. قال: فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها، ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم، فأحرقها بالنار، ثم قال: منشاء كمثناة أهل الكتاب".

ويرمي أولئك الطاعنون من وراء ذلك إلى إنكار

تبلغ بمجموعها رتبة التواتر في إثبات ووقوع كتابة السنة في عهد الرسول ﷺ، بل وتأمّر وتحت على ذلك.

• من الأمثلة التي تدل على كتابة السنة في عهد النبي ﷺ: دستور المدينة، وكتابه ﷺ في الصدقات، وكتاب سعد بن عبادة رضي الله عنه، وكتاب النبي ﷺ لأهل حضر موت، وكتاب النبي ﷺ لأهل اليمن، والصحيفة الصادقة، وصحيفة جابر بن عبد الله، وكذلك كتب النبي ﷺ ومعاهداته التي أملاها على كتّابه من الصحابة.

• إننا لا ننكر أن السنة كانت تنقل مشافهة، لكن هذا لا يعني أنها أيضًا كانت تنقل كتابة، وقد دللنا على ذلك بأمثلة كثيرة.



الشبهة الثالثة

دعوى إحراق النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما لما دُون من الأحاديث (*)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض الطاعنين أن النبي ﷺ وأبا بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما قاموا بإحراق ما دُون من أحاديث النبي ﷺ؛ مستدلين على ذلك بالأحاديث الآتية:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "كنا قعودًا نكتب ما نسمع من النبي ﷺ فخرج علينا، فقال: ما هذا تكتبون؟

(*) دفع أباطيل د. مصطفى محمود في إنكار السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

نسمع، فقال: اكتبوا كتاب الله، امحضوا كتاب الله، أكتاب غير كتاب الله؟ امحضوا كتاب الله أو خلصوه، قال: فجمعنا ما كتبنا في صعيد واحد ثم أحرقناه بالنار، قلنا: أي رسول الله أتحدث عنك؟ قال: نعم تحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، فقلنا: يا رسول الله أتحدث عن بني إسرائيل؟ قال: نعم، تحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، فإنكم لا تحدثون عنهم بشيء إلا وقد كان فيهم أعجب منه^(١).

وهذا رغم أن كثيراً من العلماء حكم على هذا الحديث بالضعف؛ إذ إنه من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف، إلا أن الشيخ شعيب الأرنؤوط قد صححه في تعليقه على مسند الإمام أحمد، ومع صحة الحديث فإنه لا ينهض دليلاً على أن النهي عن كتابة الحديث أو حرق بعض ما كُتب كان مطلقاً ودائماً؛ إذ إن ذلك كان في بداية الأمر ولما ينزل الوحي قرآناً وسنة، ولما يزل الناس يدخلون في دين الله أفواجا، ولما يرسخ الإيمان في قلوب الوافدين الجدد، وقد يختلط عليهم الأمر فلا يفرقون بين ما هو من القرآن وما هو من السنة في تلك الصحف المتناثرة من الجلود والرقاع وسعف النخيل والعظام والحجارة، فلم تكن هناك إمكانية عمل دواوين جامعة حتى تُجمع فيها السنة وحدها بعيداً عن القرآن حتى لا يختلطاً، بل لم يكن القرآن نفسه قد جُمع بعد في مصحف واحد، وهنا نعلم خطورة الأمر الذي جعل رسول الله ﷺ ينهى عن الكتابة أو يحرق المكتوب إن صح ذلك حتى لا يحدث

١. أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي سعيد الخدري، رقم (١١١٠٧).

تدوين سنة النبي ﷺ والدعوة إلى حرق ما حُفظ منها؛ انسلاخاً من القول بحجيتها، ومن العمل بها.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) لا وجه للاستدلال بحديثي أبي هريرة؛ إذ إن استنكار النبي ﷺ كتابة حديثه كان في بادئ الأمر لعله ألا تختلط السنة بالقرآن فيختلط الأمر على الناس، وألا يضاهاى القرآن بشيء حتى ولو كانت السنة، هذا فضلا عن ضعف الحديث الثاني والنزاع حول صحة الأول.

(٢) ما روي عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه أحرق أحاديث كانت عنده، لا يصح سنده؛ لأن في إسناده راوياً مجهولاً، وعلى فرض صحته فلماذا لم يتخذ إجراءً شرعياً ضد رواة الأحاديث وكتابتها وهو الخليفة آنذاك؟!

(٣) ما روي عن عمر بن الخطاب ﷺ من إحراقه لكتب دُونت فيها أحاديث رسول الله ﷺ لا يصح؛ لانقطاعه؛ إذ لم يثبت سماع القاسم بن محمد من عمر بن الخطاب ﷺ.

التفصيل:

أولاً. حديثاً أبي هريرة كانا في بادئ الأمر لعله ألا تختلط السنة بالقرآن:

الحديث الأول: إنَّ الحديث الأول الذي يستدل به هؤلاء المدَّعون رواه الإمام أحمد في مسنده من طريق عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال: "كنا قعوداً نكتب ما نسمع من النبي ﷺ فخرج علينا، فقال: ما هذا الذي تكتبون؟ فقلنا: ما نسمع منك، فقال: أكتاب مع كتاب الله؟ فقلنا: ما

عن الكتب القديمة أن تُتخذ؛ لأنه لا يعرف حقها من باطلها، وصحيحها من فاسدها، مع أن القرآن كفى عنها، وصار مهيمناً عليها، ونهى عن كتب العلم في صدر الإسلام؛ لقلّة الفقهاء في ذلك الوقت والمميزين بين الوحي القرآني وغير القرآني، لأن أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا في الدين ولا جالسوا العلماء العارفين، فلم يؤمن أن يلحقوا من الصحف بالقرآن ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه كلام الرحمن^(٢).

والحديث الثاني: رواه أيضًا الخطيب البغدادي في تقييد العلم من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال: "بلغ رسول الله أن ناسًا قد كتبوا حديثه، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما هذه الكتب التي بلغني أنكم قد كتبتُم؟! إنما أنا بشر، من كان عنده منها شيء فليأت به؛ فجمعناها فأخرجت، فقلنا: يا رسول الله، نتحدث عنك؟ قال: تحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار"^(٣).

وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم هذا كما سبق أن قلنا: "ضعيف"، ضعّفه كبار علماء الحديث، فمن أقوالهم فيه ما يأتي:

يقول ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧): عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مولى ابن عمر بن الخطاب روى عن أبيه، وأبي حازم وصفوان بن سليم، وروى عنه ابن وهب، ومرحوم بن عبد العزيز العطار، وأصبع بن الفرّج،

التحريف الناشئ عن اختلاط القرآن الكريم بالسنة المطهرة كما حدث في الأمم السابقة، وهذا معنى قوله ﷺ: "احضوا كتاب الله أو خالصه"، ثم أمر بحفظ حديثه والتحديث به وحذّر من الكذب عليه، ولو كان المقصود هو محو السنن لما أمر بالتحديث عنه، ومعلوم أن التحديث لا يكون إلا لما هو محفوظ ولا يحفظ الحديث إلا بمدارسته ومراجعته وتطبيقه علميًا وهذا ما كان.

والذي يدل على أن النهي عن كتابة الحديث النبوي كان مؤقتًا في بداية الأمر وليس مطلقًا ودائمًا - فضلًا عن العلل المذكورة في الحديث السابق - إذنه ﷺ لبعض أصحابه في الكتابة كعبد الله بن عمرو وغيره، وأمره ﷺ للذي شكّا إليه سوء الحفظ أن يستعين بالخط، بل إن الأمر بالكتابة بعد ذلك صار عامًا لقوله ﷺ: "قيدوا العلم بالكتاب"^(١).

والأحاديث في بيان الرخصة من النبي ﷺ بكتابة العلم كثيرة حتى أفرد لها البخاري في كتاب العلم بابًا خاصًا بها سمّاه: باب كتابة العلم، وخصص له الخطيب كتابًا سماه: تقييد العلم، وأفرد كثير من العلماء أبوابًا لذلك، مما يدل على أن استحباب كتابة العلم أمر مستفيض مشهور وأن النهي كان في بداية الأمر للعلل التي صاحبت ذلك النهي.

قال الخطيب البغدادي: "فقد ثبت أن كراهة من كره الكتاب من الصدر الأول إنما هي لثلاث يضاهاى بكتاب الله تعالى غيره أو يُشتغل عن القرآن بسواه، ونهى

٢. تقييد العلم، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، ص ٥٧.

٣. أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم، كتاب: ذكر الرواية عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، ص ٣٤، ٣٥.

١. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب: العلم، (١/ ١٨٨)، رقم (٣٦٢). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٠٢٦).

وابن أبي مريم، وعبد العزيز الأوسي، ويحيى بن صالح الوحاظي.

ثم ذكر بعد ذلك أقوال العلماء فيه فقال: قال عمرو بن علي: لم أسمع عبد الرحمن بن مهدي يحدث عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بشيء، وقال أبو طالب: سألت أحمد بن حنبل عنه فقال: ضعيف. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يُضعف عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال العباس بن محمد الدوري، عن يحيى بن معين أنه قال: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ليس حديثه بشيء، ضعيف.

وقال ابن أبي حاتم: "ليس بقوي الحديث، كان في نفسه صالحاً، وفي الحديث واهياً، وقال: سُئل أبو زرعة عنه فقال: ضعيف الحديث ضعّفه علي بن المديني جداً" (١).

وذكره ابن حبان في المجروحين، وقال: "كان ممن يقلب الأخبار وهو لا يعلم حتى كثر في روايته من رفع المراسيل، وإسناد الموقوف، فاستحق الترك" (٢).

وقد قال الذهبي: "قال البخاري: عبد الرحمن ضعّفه علي - أي ابن المديني - جداً، وقال النسائي: ضعيف"، ثم أورد حديثه في جمع ما كتب من حديث النبي ﷺ وإحراقه ثم عقّب عليه وقال: "هذا حديث منكر" (٣).

وقال ابن حجر: "عبد الرحمن بن زيد بن أسلم

١. الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، (٥ / ٢٣٣، ٢٣٤).

٢. كتاب المجروحين، ابن حبان، مرجع سابق، (٢ / ٥٧).

٣. ميزان الاعتدال، الذهبي، مرجع سابق، (٢ / ٥٦٤، ٥٦٥).

العدوي مولا هم، ضعيف، من الثامنة" (٤).

مما سبق يتضح أن هذا الحديث ضعيف؛ لضعف عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ولم يصحح أحد من المعاصرين هذا الحديث مما يدل على اتفاقهم على ضعفه؛ وعليه فلا مجال للاحتجاج به؛ لأنه لا تصح نسبته إلى أبي هريرة ؓ فضلاً عن النبي ﷺ، أما ما ثبت بالسنة الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ فهو خلاف ذلك؛ إذ "تجاهل المستشرقون ومن قلدهم من المسلمين أن كتابة الحديث النبوي بدأت في عصر النبي ﷺ ولكن بطريقة فردية" (٥).

فقد روى الحاكم: أن عبد الله بن عمرو، حدثهم أنه قال: "يا رسول الله، أكتب ما أسمع منك؟ قال: نعم، قلت: في الرضا والسخط؟ قال: نعم، فإنه لا ينبغي لي أن أقول في ذلك إلا حقاً" (٦).

إن هذا هو أكبر دليل على كتابة الصحابة للحديث بعلم النبي ﷺ، وبأمره أحياناً؛ فقد أمر أصحابه أن يكتبوا لأبي شاه خطبته ﷺ عندما طلب منه ذلك (٧).

كما ثبت أن بعض الصحابة كانت لهم صحف يدوّنون فيها بعض ما سمعوه من رسول الله ﷺ؛ كصحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص التي كان يسميها

٤. تقريب التهذيب، ابن حجر، تحقيق: أبي الأشبال صغير أحمد شاغف، دار العاصمة، الرياض، ط ١، ١٤١٦ هـ، ص ٥٧٨.

٥. السنة المفترى عليها، سالم البهنساوي، مرجع سابق، ص ٥٧.

٦. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، (١١ / ١٣٩)، رقم (٦٩٣٠). وصححه أحمد شاکر في تعليقه على المسند.

٧. انظر: صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم، (١ / ٢٤٨)، رقم (١١٢).

بالبصاق^(١).

للجهالة، وميزوه من الحديث - زال الخوف عنهم، فُسخ الحكم الذي كان مرتباً عليه، وصار الأمر إلى جواز، كما أن النهي لأجل ألا ينشغل المسلمون بالحديث عن القرآن، فأراد أن يحفظ المسلمون القرآن في صدورهم وعلى الألواح والصحف والعظام توكيداً لحفظه، وترك الحديث للممارسة العملية؛ لأنهم كانوا يطبقونه.

وإلى جانب هذا سمح لمن لا يختلط عليه القرآن بالسنة أن يدون السنة كعبد الله بن عمرو، وأباح لمن يصعب عليه الحفظ أن يستعين بيده حتى إذا حفظ المسلمون قرآنهم، وميزوه عن الحديث جاء نسخ النهي بالإباحة عامة^(٢).

يقول د. عبد الموجود محمد عبد اللطيف: "إن النهي عن كتابة السنة لم يكن مقصوداً به الصحابة كلهم، وإنما كان المقصود به طائفة معينة ممن كان يكتب القرآن والسنة معاً في صحيفة واحدة؛ لشدة خطر هذا الأمر وقوة الالتباس فيه بين المكتوب قرآنًا كان ذلك أوسنة، وسواء كان في وقت نزول القرآن أو في غيره، فإن العبرة بالنهي هو صيانة القرآن عن خلطه بالسنة دون تمييز بينهما"^(٣).

وبهذا يتبين أن هذين الحديثين على فرض صحتها لا تقوم بهما حجة؛ لأن ذلك كان في بداية الإسلام خشية أن يختلط القرآن بالسنة، فلما تمكن الناس من ذلك، وأمن اللبس جاء الإذن بالكتابة، وهو ثابت

وكان عند سعد بن عباد الأنصاري كتابٌ فيه بعض أحاديث النبي ﷺ، وروى الإمام البخاري أن هذه الصحيفة كانت نسخة من صحيفة عبد الله بن أبي أوفى الذي كان يكتب الأحاديث بيده في عصر النبي ﷺ^(٤).

وهناك الكثير من الأدلة نكتفي منها بما أوردناه، ليعلم الجاهل ويتنبه الغافل إلى أن كتابة سنة النبي ﷺ أحد أهم وسائل الحفاظ عليها.

وإن ثبوت كتابة الأحاديث عن النبي ﷺ في عهد النبوة بعلمه وإذنه، يقطع الطريق على الخائضين في السنة والحاقدين عليها على حد سواء.

أما أحاديث النبي ﷺ في النهي عن كتابة الأحاديث فلم يصح منها إلا حديث أبي سعيد الخدري، وهو محمول على عدم جمع القرآن الكريم والحديث في صحيفة واحدة، أو أن ذلك كان في بداية الإسلام؛ لأن النبي ﷺ أمر من كتب عنه سوى القرآن أن يمحوه أو يجرقه، وهذا يدل على أن الكاتبين كانوا يكتبون القرآن الكريم، ثم شرع النبي ﷺ يحدتهم، فخشي النبي ﷺ أن يختلط القرآن بالحديث، فأمر الكاتبين أن يمحو ما كتبوا من الحديث حتى لا تختلط صحائفه بصحائف القرآن.

يقول محب الدين الخطيب: إن النهي عن الكتابة إنما كان في أول الإسلام مخافة اختلاط الحديث بالقرآن، فلما كثر عدد المسلمين، وعرفوا القرآن معرفة رافعة

٣. السنة قبل التدوين، د. عجاج الخطيب، مرجع سابق، ص ٣٠٦: ٣٠٨ بتصرف.

٤. السنة النبوية بين دعاة الفتنة وأدعياء العلم، د. عبد الموجود محمد عبد اللطيف، مكتبة الإبيان، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ١٠٤.

١. تقييد العلم، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، ص ٨٤.

٢. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، (٦/ ٥٤).

بالرسول ﷺ قد تشكك إلى هذا الحد في بطلان الرواية عن النبي ﷺ، فما بال الأمة في عصر العولمة تحتفظ بهذه الأحاديث؟! أليس لهم في صنيع أبي بكر أسوة حسنة؟ أم أن الأمة الآن أدري بالسنة وأعلم من أبي بكر رفيق النبي ﷺ في الغار وصاحبه الذي ما كان يمر يوم دون أن يراه أو يسمعه؟! أن يراه أو يسمعه؟!!

إن هذا الخبر على فرض صحته ليس فيه دليل على ما أرادوه منه؛ فأبو بكر ﷺ تردد في صدق الذي أملى عليه مجموعة الأحاديث، فسارع - احتياطاً - إلى إعدامها بالحرق، حتى لا ينشر بين الناس أحاديث لم تثبت كل التثبت من صدق صدورها عن رسول الله ﷺ، إنه لم يحرقها لعدم الثقة في رواة الأحاديث كلهم كما يُروَّج الآن منكرو السنة، وإنما حرقها لترده في صدق راوٍ واحد، هو الذي أملى عليه تلك الأحاديث.

وأبو بكر - مع هذا - لم يتهم من روى له تلك الأحاديث بالكذب على رسول الله ﷺ متعمداً؛ لأنه صحابي، والصحابة كلهم عدول بشهادة القرآن نفسه، وإنما هناك أسباب أخرى، مثل: النسيان، وعدم الضبط، والسهو والغفلة، وهي كلها أسباب تحمل الصحابة ذوي الورع والتقوى من أمثال أبي بكر على دقة التحري، وترك ما يريب إلى ما لا يريب (٤).

ثالثاً. ما روي عن عمر ﷺ من إحراق كتب فيها أحاديث لا يصح لانتقطاع ذلك الخبر:

إن الخبر الذي استدلوا به هنا من إحراق عمر بن الخطاب لكتب دُوِّنت فيها أحاديث للنبي ﷺ أخرجه

٤. الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية، د. عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مرجع سابق، ص ٣٦، ٣٧ بتصرف.

صحيح مستفيض مشهور وعليه العمل بالإجماع (٥).

ثانياً. ما روي عن أبي بكر ﷺ من إحراق الأحاديث لا يصح؛ لأن في إسناده راوٍ مجهول:

لقد ذكر الذهبي رحمه الله خبر إحراق أبي بكر ﷺ للأحاديث الشريفة لكنه لم يتركه هكذا، وإنما علَّق عليه قائلاً: "وهذا لا يصح والله أعلم" (١).

والذهبي إمام لا يُشَقُّ له غبار في علوم الحديث ونقده، وعبارته هذه ذات دلالة قاطعة على شكه في صحة هذه الرواية التي نحن بصدددها (٢).

على أن الذهبي ليس وحده الذي حكم بعدم صحة الخبر، وإنما ردّه أيضاً الحافظ ابن كثير حيث قال: "هذا غريب من هذا الوجه جداً، وعلي بن صالح - أحد رجال الإسناد - لا يُعرف". وهكذا يتضح أن الخبر غير صحيح، وفي إسناده راوٍ مجهول، مما جعل الخبر في دائرة الرد، لا في دائرة القبول (٣).

لقد أراد المستشرقون وأذناهم - من إيراد هذا الخبر - زعزعة ثقة المسلمين في الأحاديث الموجودة بين أيديهم، فيقصدون أنه ما دام أبو بكر مع صحبته وقرب عهده

(٥) في "نهي النبي عن كتابة الأحاديث ليس مطلقاً" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء.

١. تذكرة الحفاظ، الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، (٥ / ١).

٢. الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ص ٣٦.

٣. دفع أباطيل د. مصطفى محمود في إنكار السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، مرجع سابق، ص ٦٩، ٧٠ بتصرف. وانظر: الأنوار الكاشفة، المعلمي السباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ٤٣، ٤٤.

الخطيب بإسناده عن القاسم بن محمد: "أن عمر بن الخطاب بلغه أنه قد ظهر في أيدي الناس كتب، فاستنكرها وكرهها، وقال: أيها الناس، إنه قد بلغني أنه قد ظهرت في أيديكم كتب، فأحبها إلى الله أعدلها وأقومها، فلا يُبَيِّن أحد عنده كتابًا إلا أتاني به، فأرى فيه رأيي. قال: فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم، فأحرقها بالنار، ثم قال: مثناة^(١) كمثناة أهل الكتاب" (٢)!

وواضح من هذا الخبر أن عمر لم يقدح في كتابة السنة، وإنما مدح الكتب التي في أيدي الناس، وقال: "أحبها إلى الله أعدلها وأقومها". وأنه يبين المنهج السوي في الكتابة، وأنه يجب أن تُحَقَّق الكتب وتُقَوَّم.

ويريد عمر بن الخطاب في هذا الخبر أن يكون الاهتمام الأكبر بالقرآن الكريم، فأراد أن ينبههم إلى عدم الاشتغال عن القرآن بشيء آخر، فإنه لا تجوز روايته بالمعنى، وإنما لا بد أن يحفظ لفظه، ويقرأ كما أنزله الله؛ ولذا يقول: "مثناة كمثناة أهل الكتاب"؟! وفي رواية أخرى: "إني ذكرت قومًا كانوا قبلكم كتبوا كتبًا فأكبوا عليها، وتركوا كتاب الله ﷻ" (٣).

إنه يريد ألا يصرف الناس صارف عن القرآن الكريم، فهو المتعبد بلفظه، وهو الكتاب المهيمن. وهذا

١. المثناة: كتاب وضعه أحبار بني إسرائيل بعد موسى ﷺ فيما بينهم على ما أرادوا.

٢. أخرجه الخطيب في تقييد العلم، كتاب: وصف العلة في كراهة كتابة الحديث، باب: عمر يعدل عن كتب السنن ويحرق الكتب لذلك، ص ٥٢، بلفظ: "أمنية كأمنية أهل الكتاب".

٣. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب: الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي، باب: كتاب العلم، (١١ / ٢٥٧)، رقم (٢٠٤٨٤).

الخبر لا يفيد أن عمر أحرق الكتب خوف المدسوس فيها كما يدعي هؤلاء، وإنما أراد عمر أن يوفر الاهتمام كله للقرآن الكريم، وإلا فعمر ممن كتب كغيره من الناس، وكان يستجيز كتابة السنة.

فقد وُجِدَ في قائم سيفه صحيفة فيها كثير من أمور السنة النبوية، وكتابه في تنظيم شئون الدولة شائع ذائع.

ومن جهة أخرى فإن الخبر الذي ذكره هؤلاء خبر لا يُحتج به، جاءوا به ولم يبينوا لنا ما فيه من علة، فكان الواجب أن يقولوا: إنه من رواية القاسم عن عمر، والقاسم بن محمد بينه وبين عمر سنوات، فلقد ولد القاسم بعد وفاة عمر بثلاث عشرة سنة، وعليه فالإسناد منقطع، والانقطاع فيه ظاهر، وهو مما يضعفه، ويبعده عن دائرة الاحتجاج.

وهكذا يتضح لنا أن ما ادَّعاه هؤلاء - من أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما أحرقا ما وصل إلى أيديهما من أحاديث رسول الله خشية التقولات والاختلافات - تجنُّ على الحقيقة؛ فما أحرق أبو بكر، وإنما خبر إحراق الكتب غير صحيح، وما أحرق عمر، وإنما خبر إحراقه الكتب لا يصلح للاحتجاج به (٤).

ويرى د. عبد المهدي عبد القادر أن الرسول ﷺ نهاهم عن كتابة شيء من غير القرآن مع القرآن، وطلب ممن كتب أي كلمة في صحيفة القرآن من غيره أن يمحوها، والأمر كله دائر على المحافظة على نصوص القرآن الكريم من أن يدخل فيها ما ليس منها، أما

٤. دفع أباطيل د. مصطفى محمود في إنكار السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، مرجع سابق، ص ٧٠: ٧٤ بتصرف.

وعمل السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين بذلك" (٣).

وبهذا يتضح أن النهي عن كتابة الحديث إنما كان في بداية الإسلام لعل فصلناها، فلما زالت تلك العلة أبيضت الكتابة؛ إذ لم تكن محرمة في ذاتها سواء صاحب هذا النهي تحريق أم لم يصاحب[®].

الخلاصة:

● الحديثان اللذان استند إليهما الطاعنون في دعوى حرق النبي ﷺ لما كتب من الأحاديث مدارهما على عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أحد روايتها، وقد ضعفه كبار علماء الحديث كأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وليس هذا فحسب، بل إن الحديثين لم يصرحا بإحراقه ﷺ للأحاديث أو أمره بذلك، وإنما أمر ﷺ بمحو ما كتب منها مع القرآن.

● إن الخبر الذي روي عن أبي بكر ﷺ أنه أحرق أحاديث كانت عنده لا يصح الاحتجاج به؛ لأنه ضعيف، وذلك لأن في إسناده راويًا مجهولًا، وإذا كان هذا هو رأي أبي بكر ﷺ، فلماذا لم يتخذ إجراءً شرعيًا ضد رواة الأحاديث وكاتبها وهو الخليفة؟

● على فرض صحة الرواية فإن أبا بكر ﷺ لم يتهم من روى الأحاديث بالكذب على رسول الله متعمدًا، وإنما تردد في صدق راوٍ واحد قد يكون هو الذي أملى عليه تلك الأحاديث التي أحرقتها.

● إن الخبر الذي استدل به هؤلاء على حرق عمر

كتابة السنة منفردة فإنه ﷺ قد أجاز لهم أن يكتبوا، ومع الكتابة كلفهم بحفظها، فتوافر لنصوص الوحي من كتابٍ وسنة الحفظ في الصدور، والحفظ في السطور^(١).

ولقد بين الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي (ت: ٣٦٠) وجه امتناع الصحابة والتابعين عن كتابة الحديث، وتحديد معنى نهى الرسول ﷺ عنها فقال: "إنما كرهه الكتاب من كرهه في الصدر الأول لقرب العهد، وتقارب الإسناد، ولثلا يعتمد الكاتب فيهمله، ويرغب عن حفظه والعمل به، فأما الوقت متباعد، والإسناد غير متقارب، والطرق مختلفة، والنقلة متشابهون، وآفة النسيان معترضة، والوهم غير مأمون، فإن تقييد العلم بالكتاب أشفى وأولى، والدليل على وجوبه أقوى، وحديث أبي سعيد: "حرصنا أن يأذن لنا النبي ﷺ في الكتاب فأبى"، أحسب أنه كان محفوظًا في أول الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن"^(٢).

قال الخطيب: "إنما اتسع الناس في كتب العلم وعولوا على تدوينه في الصحف، بعد الكراهة لذلك؛ لأن الروايات انتشرت والأسانيد طالت، وأسماء الرجال وكناهم وأنسابهم كثرت، والعبارات والألفاظ اختلفت فعجزت القلوب عن حفظ ما ذكرنا، وصار علم الحديث في هذا الزمان أثبت من علم الحافظ مع رخصة رسول الله ﷺ لمن ضعف حفظه في الكتاب

١. المرجع السابق، ص ٦٧ بتصرف.

٢. المحذت الفاصل بين الراوي والواعي، الرامهرمزي، تحقيق: د. محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص ٣٨٦.

٣. تقييد العلم، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، ص ٦٤.

® في "التفسير الصحيح لأقوال مانعي كتابة الحديث من الصحابة" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة، من هذا الجزء.

للأحاديث ضعيف؛ لانقطاع السند فيه، فقد ولد القاسم بن محمد بعد وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بثلاث عشرة سنة، وهذا ما يضعف الخبر، ويخرجه من دائرة الاحتجاج. وعلى فرض صحته، فإنه كان يريد أن يوفر الاهتمام كله للقرآن الكريم، وأنه خشي من اختلاطه بالسنة النبوية.



الشبهة الرابعة

ادعاء عدم تثبت الصحابة في كتابة الحديث (*)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض الطاعنين أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يكتبون الحديث خلف النبي صلى الله عليه وسلم على عجل، ودون تثبت مما يقول، وهذا يعني أن في السنة جانباً كبيراً من الأحاديث غير موثوق بها. ويستدلون على ذلك بأن هناك من بين الصحابة من أنكر أحاديث صحابة آخرين وردّها، وأن بعضهم كانوا ينهون عن تحديث الناس بأحاديث ينكرونها. ويهدفون من وراء ذلك إلى التشكيك في صحة ما انتهى إلينا من سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) لقد توافرت عوامل كثيرة لحفظ السنة النبوية، والتثبت في نقلها، وكتابتها من حيث شخصية النبي صلى الله عليه وسلم وطريقة تعليمه لأصحابه، ومادة السنة نفسها، والمتلقين لها.

(*) دفاع عن الحديث النبوي، د. أحمد عمر هاشم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

(٢) ما ورد عن تثبت الصحابة الكرام ورد أحاديث بعضهم بعضاً، إنما كان لزيادة الاستيثاق والحيطه والتثبت، وكان ذلك في حالات قليلة، ولو كانت تدل على وجود خلط أو اضطراب في السنة المطهرة - نتيجة التعجل - لوجدنا الشاهد يردُّ حديث الغائب، لكن الحقيقة أنه كان يؤيده ويثبته.

(٣) لم يكن امتناع الصحابة عن التحديث ببعض الأحاديث بسبب إنكارهم لها - كما زعموا - بل كان من باب مخاطبة الناس على قدر عقولهم، فعدم إدراكهم لدلالات بعض الأحاديث قد يؤدي إلى تكذيبهم لها، ومن ثمّ تكذيبهم لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

التفصيل:

أولاً. توافر عوامل الحيطه والتثبت في السنة:

اصطفى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ليبلغ الرسالة الإلهية إلى الناس جميعاً؛ يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وأعد الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم لهذه المهمة إعداداً كاملاً، فربّاه بعنايته، وكأله برعايته، وعصمه من الناس، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً.

وقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم بأداء الرسالة خير قيام، وأدّى الأمانة الإلهية على أكمل وجه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَىٰ

أَلْفَيْ بِضْعِينَ ٱلْفَيْ﴾ (التكوير) (١).

قال الشافعي رحمه الله: "إن الله صلى الله عليه وسلم وضع رسوله صلى الله عليه وسلم موضع الإبانة لما افترض على خلقه في كتابه، ثم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وإن لم يكن ما افترض على لسانه نصّاً في

١. السنة النبوية وعلومها، د. أحمد عمر هاشم، مكتبة غريب، القاهرة، ط ٢، د. ت، ص ٤٦ بتصرف.

كتاب الله .

ولذلك فإن صحابة رسول الله ﷺ قد نقلوا السنة بحیطة وثبتت، بل بأعلى درجات الحیطة والتثبت، ولقد توافرت عوامل كثيرة ساعدت على حفظ السنة ونقلها وكتابتها صحيحة سليمة من الخلط أو الخطأ، ومن هذه العوامل:

١. هُدِيَهُ ﷺ فِي تَبْلِيغِ السَّنَةِ:

إن الدارس لهُدِي النبي ﷺ في تَبْلِيغِ السَّنَةِ وتعليمها يجد أنه ﷺ نهجاً يُؤدِي إلى حفظ السَّنَةِ حفظاً سليماً، دون اختلاط كلمة بكلمة، ودون عجلة تُؤدِي إلى عدم السماع أو عدم الإدراك، يتضح هذا مما يأتي:

• كان النبي ﷺ لا يحدِّث أصحابه إلا إذا كانوا في حالة يكون سماعهم لحديثه سماعاً تاماً، يدلنا على هذا ما أخرجه البخاري عن جرير بن عبد الله، أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع: "استنصتِ النَّاسَ" (٤) ... الحديث" (٥).

وفي هذا دليل على أنه ﷺ لا يحدِّثهم إلا إذا كانوا في حالة إنصات وإصغاء. وما كان الصحابة ﷺ بأهل ضوضاء وفوضى، وإنما حدث ذلك من أجل كثرة الزحام، ولعدم علمهم بأنه ﷺ سيحدثهم، فلما أراد ﷺ أن يحدِّثهم أمر جريراً أن يطلب منهم الإنصات، ودليلنا على أن الصحابة ما كانوا أهل ضوضاء وفوضى، وإنما كانوا أهل سكينه وهدوء - ما رواه أسامة بن شريك قال: "أتيت النبي ﷺ وأصحابه كأنما على رءوسهم

فأبان في كتابه أن رسول الله ﷺ يهْدِي إلى صراط مستقيم: صراط الله، ففرض على العباد طاعته، وأمرهم بأخذ ما آتاهم والانتها عما نهاهم عنه" (١).

ولقد حرص الرسول ﷺ على تبليغ المسلمين سنته الشريفة، وحبَّب إلى أصحابه الكرام ﷺ حفظ الحديث وتبليغه، فوضع منهج التلقي والتحديث، وأرسى بينهم قاعدة التثبت العلمي التي ساروا عليها، واتخذوها منهجاً في الرواية بعد ذلك، وسار الصحابة في حرصهم على حضور مجالس الرسول ﷺ إلى جانب ما يقومون به من أمور المعاش، وإذا تعذَّر على بعضهم الحضور تناوب مع غيره، كما كان يفعل عمر بن الخطاب ﷺ حيث قال: "كنت أنا وجاري من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك" (٢)(٣).

واستناداً إلى ما سبق، فإذا كان الرسول ﷺ مبلغاً عن ربِّه، وقد بلغ رسالته على أكمل وجه، وقد أوجب الله على المسلمين طاعته، فكان لزاماً عليهم أن يسمعوا له ويحضروا مجالسه، ويحفظوا ما يقوله ويكتبوا ما يمليه عليهم.

١. اختلاف الحديث، الإمام الشافعي، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ٣٥.

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: التناوب في العلم، (١ / ٢٢٣)، رقم (٨٩).

٣. السنة النبوية وعلومها، د. أحمد عمر هاشم، مرجع سابق، ص ٤٩.

٤. استنصتِ الناس: أي: اطلب منهم أن ينصتوا، والإنصات أبلغ من الاستماع؛ إذ الاستماع عدم الكلام، والإنصات عدم الكلام، واشتغال الذهن بما يُقال.

٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: الإنصات للعلماء، (١ / ٢٦٢)، رقم (١٢١).

الطير" (١).

• كان النبي ﷺ لا يحدث أصحابه إلا إذا كانوا في حالة شوق إلى السماع؛ إذ ذاك أكد لرسوخ المسموع، وضمان عدم الملل والسآمة، بدلنا على هذا ما أخرجه الإمام البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا" (٢).

• كان ﷺ إذا تكلم حرص على أن يفهم كلامه، فإذا كانت الكلمة تحتاج إلى إعادة أعادها، وقد يقولها ثلاثاً؛ وذلك حتى يطمئن إلى أنها قد عقلت عنه، فكم من أمور يحتاج الذهن أن تكرر له حتى يستوعبها، يدلنا على هذا ما صحَّ عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ "أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه" (٣).

• كان النبي ﷺ إذا تحدث تحدث بتروءٍ، لا يُدخل الكلام بعضه في بعض، ولا يسرده سرداً، وهذا أدعى لسلامة المسموع، وحفظ السامع، وفهم الحديث، يدلنا على هذا ما أخرجه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً، يفهمه كل من سمعه" (٤)، وفي رواية مسلم: "إنما كان النبي ﷺ

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: الطب، باب: في الرجل يتداوى، (١٠ / ٢٣٩)، رقم (٣٨٤٩). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٣٨٥٥).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، (١ / ١٩٥)، رقم (٦٨).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: من أعاد الحديث ثلاثاً ليُفهم عنه، (١ / ٢٢٧)، رقم (٩٥).

٤. حسن: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: الأدب، باب: الهدى في الكلام، (١٣ / ١٢٦)، رقم (٤٨٢٩). وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٤٨٣٩).

يحدث حديثاً لو عدّه العادُّ لأحصاه" (٥).

• كان رسول الله ﷺ أحياناً يقدم الفائدة في صورة سؤال، مما يجعل السامع يتشوق إلى الجواب، وهذا يجذب انتباهه أكثر، فحينما يجيب النبي ﷺ يقع حديثه في القلب كل موقع، ويرسخ في الذهن أيما رسوخ.

• استعمال النبي ﷺ المثل لتقريب المراد وإيصاله إلى الذهن كي يفهم ويُعقل ويُحفظ، فمثل لهم البعيد بالقريب، والمجهول بالمعلوم، والمعنوي بالمحسوس، وفي ذلك من التقريب ما فيه، فضلاً عن أنه يصبح قرينة تذكّر بالجواب، وكل هذا أدعى إلى الحفظ وتمكين اللفظ في القلب.

٢. ما أوتيته النبي ﷺ من البلاغة وجوامع الكلم:

لقد اصطفى الله ﷻ رسوله ﷺ، وجعله أفصح العرب، وأكمل الخلق بلاغة وأدباً، كما اختصه بجوامع الكلم؛ فهو يعبر عن المعاني الكثيرة باللفظ القليل، وأي تعبير يساوي قوله ﷺ: "الدين النصيحة" (٦)، حتى قال الخطابي: "ليس في الكلام كلمة مفردة تستوفي بها العبارة عن معنى هذه الكلمة" (٧).

ولهذين الأمرين - البلاغة وجوامع الكلم - دور كبير في حفظ السنة؛ أما البلاغة، فجعلت أحاديث النبي ﷺ محببة إلى نفوس العرب؛ إذ هم أصحاب

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الزهد، باب: التثبيت في الحديث، (٩ / ٤٠٨٩)، رقم (٧٣٧٤).

٦. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الإيمان، باب: الدين النصيحة، (١ / ١٦٦) معلقاً. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة، (١ / ٤٣١)، رقم (١٩٣).

٧. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١ / ١٦٧).

صدورهم" (٣)؛ أي: صحفها صدورها.

فكانوا يعتمدون على صدورهم في حفظ أنسابهم ومفاخرهم وأشعارهم وكل ما لهم، فهذا ابن عباس رضي الله عنهما يحفظ في سَمْعَة واحدة قصيدة عمر بن أبي ربيعة التي يقول في مطلعها:

أمن آل نَعْم أنت غادٍ فمُبَكِّر

غداة غد أم رائح فمهبجر (٤)

وها هو ذا قتادة يقول: "ما سَمِعْتُ أذناي شيئاً قط إلا وعاه قلبي" (٥).

وهذا ابن شهاب الزهري يقول: "إني لأمرُّ بالبقيع فأسُدُّ أذاني مخافة أن يدخل فيها شيء من الحنَّاء (٦)، فوالله ما دخل أذني شيء قط فنسيته".

ولقد انتفع الصحابة - ومن بعدهم - بهذه الملكة في خدمة الكتاب والسنة، فكانت عاملاً من عوامل الحفاظ على السنة، إذ سجلوها في صدورهم وتناقلوها فيما بينهم (٧).

ولا ريب أن حفظ السنة أيسر وأسهل من حفظ الأنساب التي برع فيها العرب براعة فائقة لا مثيل لها. وجدير بالذكر أن النبي ﷺ أمر الصحابة ﷺ بحفظ سنته وتبليغها إلى من يستطيعون، وحذَّره من ترك

٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، (١/ ٣٤).

٤. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، مكتبة التوعية، القاهرة، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، (١/ ٢٩٦).

٥. شرح علل الترمذي، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: نور الدين عتر، (١/ ١٥١).

٦. الحنَّاء: فُحْش الكلام.

٧. السنة النبوية: مكانتها، عوامل بقائها، تدوينها، د. عبد المهدي عبد القادر، مرجع سابق، ص ٧٣.

الفصاحة، الذين يعتقدون أسواق الأدب، ويتبارون في البيان، وأما جوامع الكلم، فكان سبيل التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة وتعبيرات وجيزة، وهذا أيسر في الحفظ وأسهل للاستيعاب.

٣. سمو تعاليم السنة:

لقد وجدت الأمة في السنة النبوية نظاماً يفوق كل نظام، وأسلوب حياة يسمو على كل الأنظمة، وماذا بعد حكم: "لا ضرر ولا ضرار" (١)، لقد نقلوا السنة النبوية إلى حياة يسودها السمو الخلقى الذي يسمو على كل رأي وتفكير مهما كان، ويوافق الفِطْر، بل وتسعد به في كل زمان ومكان، مما جعلهم في أعلى درجات الحب للسنة، يُنفذون كل تعاليمها، ويحرصون على معرفة كل نصوصها، مما كان سبباً في الحفاظ على السنة، فإن تحويلها إلى واقع عملي جعلها في أعلى درجات الحفظ، وحبهم لها جعلها في أعلى درجات طلب أهلها لها (٢).

٤. قوة ذاكرة الصحابة واستعدادهم الفطري:

إن المتتبع لحياة العرب في الجاهلية وصدر الإسلام يتضح له أن العرب كانوا أصحاب ذاكرة قويّة، يذهبون إلى أسواق الأدب، فيلقى الشاعر قصيدته مرة واحدة فتُحفظ، بل وتُنقَد.

ويتضح هذا الأمر لمن درس أحوال العرب الفكرية؛ ولذا جاء في وصف هذه الأمة: "أناجيلهم في

١. أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الأفضية، باب: القضاء في المرفق، (٢/ ٧٤٥)، رقم (١٤٢٩).

٢. السنة النبوية: مكانتها، عوامل بقائها، تدوينها، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، دار النصر، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٦٢: ٦٦ بتصرف.

سنته؛ إذ قال ﷺ: "لا أُلْفَيْنَ أحَدكم متكئًا على أريكة، يأتيه الأمر من أمرى - مما أمرت به أو نهيت عنه - فيقول: لا ندرى، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه"^(١).

كما أمرهم ﷺ بتبليغ سنته بقوله: "ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب"^(٢)، وحضهم على التمسك بالسنة بقوله: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وستتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض"^(٣).

ولا نظن أن الصحابة لا يحتاطون ولا يتثبتون في الحديث وكتابته وحفظه بعد قول النبي ﷺ: "نصر الله امرأً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره"^(٤).

وكانت وفود القبائل والمدن ترد عليه ﷺ في المدينة لتلقي القرآن وتلقي العلم، وكان النبي ﷺ يأمرهم عند عودتهم أن يعلموا أقوامهم إذا رجعوا إليهم، فعندما ودع النبي ﷺ وفد عبد القيس بعدما علمهم قال لهم: "... احفظوه، وأخبروه من وراءكم"^{(٥)(٦)}.

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سنته (بشرح عون المعبود)، كتاب: السنة، باب: لزوم السنة، (١٢/ ٢٣٠)، رقم (٤٥٩٢). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٤٦٠٥).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، (١/ ٢٤٠)، رقم (١٠٥).

٣. أخرجه مالك في الموطأ بلاغاً، كتاب: القدر، باب: النهي عن القول بالقدر، (٢/ ٨٩٩)، رقم (١٥٩٤).

٤. صحيح: أخرجه الترمذي في سنته (بشرح تحفة الأحوذى)، كتاب: العلم، باب: الحث على تبليغ السماع، (٧/ ٣٤٧، ٣٤٨)، رقم (٢٧٩٤). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٦٥٦).

٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: تحريض النبي ﷺ وفد عبد القيس على أن يحفظوا، (١/ ٢٢١)، رقم (٨٧).

٦. دراسات في السنة النبوية، صديق عبد العظيم أبو الحسن، دار هجر، القاهرة، ط ٢، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص ٦٠.

وقد حذر النبي ﷺ من يكذب عليه، فقال: "من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"^(٧).

أَوَنْظُنُّ بعد هذا كله أن ينقل صحابي من صحابة رسول الله ﷺ حديثه دون تثبت أو حيطه، أو يكتبه على عجل دون تمهل أو روية؟ وأين تذهب هذه العوامل جميعاً؟ وأين يكون التسرع والاضطراب والرسول ﷺ لا يحدثهم إلا وهم مشتاقون إلى سماعه، وهم في حالة هدوء، ويكرر الكلام أكثر من مرة، ويرسله إرسالاً، مع تقديم الكلام أحياناً في هيئة سؤال للتشويق وتمام الفائدة، فضلاً عما أوتيه النبي ﷺ من جوامع الكلم، ووجازة العبارة، والتعبير عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، إضافةً إلى قوة ذاكرتهم واستعدادهم الفطري للحفظ، وقد استخدموا هذه الذاكرة في حفظ السنة؟

ولننح كل هذا جانباً - مع أهميته - ولنذكر ما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ من تذاكرهم فيما بينهم حديث رسول الله ﷺ، وكل ما يسمعون منه ليحفظوه كما كانوا يحفظون القرآن الكريم، ولقد كانوا يقبلون على ما يسمعون من رسول الله ﷺ من قرآن وسنة فلا يفارقونه حتى يحفظوه، ويتعلموا ما فيه من علم، ثم يطبقون ذلك هم وأهلهم.

قال أبو عبد الرحمن السلمي: "حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن؛ كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود، وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات

٧. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: إثم من كذب على النبي ﷺ، (١/ ٢٤٢)، رقم (١٠٨). صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، (١/ ١٦٩).

العوامل[®]؟!

ثانياً. تثبت الصحابة في قبول الحديث:

لقد احتاط الصحابة ﷺ في تلقيهم الحديث عن بعضهم البعض، وقد ورد هذا عن الخلفاء الراشدين، فقد روي عن أبي قبيصة بن ذؤيب قال: "جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق تسأله ميراثها، فقال: ما لك في كتاب الله من شيء وما أعلم لك في سنة رسول الله، فقال أبو بكر: ما أجد لك في كتاب الله شيئاً، فارجمي حتى أسأل الناس، فسأل الناس، فقال المغيرة بن شعبة: حضرت رسول الله ﷺ أعطاهما السُّدُس، فقال: هل معك غيرك؟ فقام محمد بن مسلمة الأنصاري فقال: مثل ما قال المغيرة، فأنفذ لها أبو بكر السدس..."^(٢).

ومنه ما رواه أبو سعيد الخدري أنه قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار، إذ جاء أبو موسى كأنه مدعور، فقال: "استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع، فقال: والله ليقمين عليه بيته، أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ؟ فقال أبي بن

® في "تثبت الصحابة في نقل الأحاديث والأخبار" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها)، والوجه الثالث، من الشبهة السادسة، من الجزء الثالث (أبو هريرة)، والوجه الثاني، من الشبهة الخامسة، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة). وفي "الحفظ أسلم في الحفاظ على السنة من الكتابة" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثامنة، من هذا الجزء.

٢. حسن: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: الفرائض، (١٣/ ٣٩٠)، رقم (٦٠٣١). وقال شعيب الأرناؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان: رجاله ثقات.

لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا العلم والعمل جميعاً"^(١).

هذه هي العوامل التي تضامنت وتوافرت في سبيل حفظ السنة المشرفة في عهد الرسول ﷺ، تمثلت في شخصية الرسول ﷺ من حيث هو مربِّ ومعلم، وفوق هذا وأكثر منه من حيث هو رسول رب العالمين؛ والسنة من حيث مادتها؛ والصحابة وهم الطلاب الذين تلقوا السنة وشاركوا في تطبيقها، وتجاوبوا مع المعلم الأول، بقلوب عظيمة انطوت على رغبة ملحة وإرادة قوية في اتباع ما يتم به إيمانهم، ويقطع صلتهم بما كانوا فيه من ضلال. كل ذلك كان له الأثر الكبير في حفظ الصحابة للسنة دقيقتها وجليلها، ثم نقلها إلى التابعين الذين نقلوها إلى من بعدهم.

وخلاصة ما سبق أن الصحابة انطلقوا من حديث رسول الله ﷺ انطلاق المحافظ على الدين، ولقد توفرت العوامل التي تساعدهم على الحفاظ على السنة، وإذا ثبت أن الصحابة كانوا يكتبون خلف النبي ﷺ مباشرة، فإنهم ما كانوا يكتبون الأحاديث على عجل كما يدعي المشككون، وإنما كانوا في غاية الثبوت والحيطه، وقد توفرت العوامل التي تساعد على هذا من إرسال رسول الله ﷺ للكلام وتكراره، واستنصات الناس عند الحديث، وشغف الصحابة الكرام لسماع الحديث حتى إنهم ليجلسون أمامه وكأن على رؤوسهم الطير، مع ما ذكرناه من قوة ذاكرتهم، فكيف يستقيم الاضطراب أو الخلط أو الكتابة على عجل مع كل هذه

١. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٢٣٥٢٩)، وقال شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: إسناده حسن.

"كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بها شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني غيره استحلفتة، فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر... الحديث" (٦).

ومن التوقف في قبول الحديث ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن أبا هريرة ؓ حَدَّثَهُ بِحَدِيثٍ: "من تبع جنازة فله قيراط"، فتوقف فيه ابن عمر حتى سأل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فصدقت أبا هريرة، وعندئذ قَبِلَ ابن عمر رضي الله عنهما الحديث وندم على أنه لم يعمل به، وقال: "لقد فرطنا في قراراتنا في قراراتنا كثيرة" (٧) (٨).

والأمثلة في هذا الأمر كثيرة، وقد ذهب المدَّعون يستدلون بهذه الروايات على أن الحديث كُتِبَ على عجل، وكأن الصحابي الذي كان يَرُدُّ حديث صحابي آخر كان يَرُدُّه في لفظ أخطأ فيه؛ أو لأنه لم يَرَوْه هكذا عن النبي ﷺ، وهذا ما لم يحدث وما لم يكن، فإن أحدهم كان يطلب شاهداً يؤكد أن هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، وليس ذلك لأنهم كانوا يكذبون ناقل الحديث، فلم يثبت أن أحداً من الصحابة ؓ رمى أخاه بالكذب

٦. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: الوتر، باب: الاستغفار، (٤ / ٢٦٨)، رقم (١٥١٨).
وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (١٥٢١).

٧. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: فضل اتباع الجنائز، (٣ / ٢٢٩)، رقم (١٣٢٤). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجنائز، باب: فضل الصلاة على الجنائز واتباعها، (٤ / ١٥٤٦)، رقم (٢١٥٤).

٨. توثيق السنة في القرن الثاني الهجري، د. رفعت فوزي عبد المطلب، مرجع سابق، ص ٣٣.

كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم، فقامت معه فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك" (١).

ولم يكن عمر ؓ يعلم أن المرأة ترث من دية زوجها، بل يرى أن الدية للعاقلة حتى كتب إليه الضحاك بن سفيان الكلابي يخبره أن رسول الله ﷺ ورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها، فترك رأيه لذلك (٢)، وقال: لو لم نسمع بهذا لقضينا بخلافه (٣).

وكذلك عثمان بن عفان ؓ لم يكن عنده علم بأن المتوفى عنها زوجها تعتد في بيت زوجها الميت، حتى حدثته الفريفة بنت مالك أخت أبي سعيد الخدري بقصتها لما توفي زوجها، وأن النبي ﷺ قال لها: "امكثي حتى يبلغ الكتاب أجله" (٤)، فأخذ به عثمان.

وأهدى له ﷺ مرة صيد كان قد صيد لأجله، فهمم بأكله حتى أخبره علي ؓ أن النبي ﷺ ردَّ لحمًا أهدى له (٥).

وأخرج أبو داود عن علي بن أبي طالب ؓ قال:

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الاستئذان، باب: التسليم والاستئذان ثلاثاً، (١١ / ٢٨)، رقم (٦٢٤٤).

٢. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: الفرائض، باب: المرأة ترث من دية زوجها، (٨ / ١٠٢)، رقم (٢٩٢٥). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٢٩٢٧).

٣. رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ابن تيمية، مكتبة السنة، القاهرة، ط ١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ص ١٣.

٤. صحيح: أخرجه الدارمي في سننه، كتاب: الطلاق، باب: خروج المتوفى عنها زوجها، (٢ / ٢٢١)، رقم (٢٢٨٧). وصححه حسين سليم أسد في تعليقه على سنن الدارمي.

٥. رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ابن تيمية، مرجع سابق، ص ١٨.

والحيطة.

ومن هنا يُؤوّل ما جاء عن أبي بكر رضي الله عنه بأن ذلك لم يكن إلا زيادة في الاحتياط والتثبت، وخاصة أن توريث الجدة إثبات لحكم لم يرد في القرآن الكريم، فكان تشريعاً لا بد فيه من الاحتياط والتوقي، وليس ذلك خطة دائمة له، وطريقة درج عليها، فلم يُرو عنه أنه طلب راوياً آخر إلا في تلك الحادثة.

وأما حديث أبي موسى في الاستئذان، فإن عمر رضي الله عنه لم يكذب أباً موسى ولم يرتب منه؛ لأنه صحابي، والصحابة أبعد الناس عن الكذب، ولكنه أحب أن يستوثق، بدليل أنه لما رجع معه أبو سعيد الخدري وشهد له، قال عمر رضي الله عنه لأبي موسى: إني لم أتهمك، ولكنني خشيت أن يتقول الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويجوز للإمام أن يتوقف مع انتفاء التهمة لمثل هذه المصلحة.

ويشهد لعدم تكذيب عمر رضي الله عنه لأحد من الصحابة ما رواه البخاري من تناوب عمر رضي الله عنه ورجل من الأنصار على مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وإتيان كل منهما بالخبر عن رسول الله وحديثه إلى صاحبه في اليوم الذي لا يحضر فيه.

وأما ما روي عن علي رضي الله عنه واستحلافه للراوي، فإن هذه لم تكن خصلة له، وإنما هو كبقية الصحابة في استيثاقه واحتياطه في رواية الأحاديث، وهو إن استحلف فإنه لا يستحلف لتهمة الكذب، ولكن للاحتياط ونقل الحديث على وجه الصحيح.

وقد نُقل عنه أنه قبل خبر المقداد بن الأسود في حكم

٣. صحيح: أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الاستئذان، باب: الاستئذان، ص ٣٧٦، رقم (١٧٦٨).

على رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كانوا يجتاطون ويتثبتون، ولقد نفى البراء رضي الله عنه الكذب عنه وعن إخوانه رضي الله عنهم فقال: "ليس كلنا كان يسمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت لنا ضيعة وأشغال، ولكن الناس لم يكونوا يكذبون يومئذ، فيحدث الشاهد الغائب"^(١).

ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه نافيًا الكذب عن الصحابة رضي الله عنهم: "وما كان بعضنا يكذب على بعض"^(٢)، ولكن كانوا يتشدّدون في الرواية ويجتاطون فيها حتى لا يأخذوا حديثاً منقطعاً، فكان بعضهم يروي عن بعض، حتى يعرفوا من سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن هنا نشأت بذور الإسناد والحرص على بيان سلسلة من نقلوا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونظرًا لهذا الاهتمام البالغ بسنة النبي صلى الله عليه وسلم فقد وصلت إلينا نقيّة كما أداها الصحابة خالية من الخطأ والتحريف لم تشبها شائبة.

ولا تدل هذه الروايات على أن هناك كذباً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما كان ذلك للاختلاف في فهم تلك الأحاديث وما تدل عليه، أو أن مدلول الحديث كان معمولاً به أولاً ثم نُسخ بعد ذلك، ولم يبلغ راويه هذا النسخ فلم يترك العمل به، أو توقف الصحابي فيما لم يبلغه قبل من الأحاديث حتى يتأكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قالها، وعندما يتأكد للصحابي أن ما توقف فيه قد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه لا يتردد في التسليم به والعمل بما جاء فيه، فالأمر لا يعدو أن يكون للاستظهار والتثبت

١. المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، الراهمزمي، مرجع سابق، ص ٢٣٥.

٢. الكامل في ضعفاء الرجال، الحافظ أبو أحمد بن عدي الجرجاني، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط ٣، ١٤٠٩ هـ / ١٩٩٨ م، (١ / ١٥٧).

يقول: "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"^(٤)، وسمع وعلم حديث النبي ﷺ: "من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين"^(٥)، وحاشا للصحابة العدول الذين علّم تعديلهم بتعديل الله ورسوله لهم أن يكذبوا على رسول الله ﷺ.

"إن رسول الله ﷺ الذي قال الله ﷻ له: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة، ٦٧) كان يكتفي بإرسال الأفراد من أصحابه الأمانة دعاة ومبلّغين عنه القرآن والسنة، وكان الناس عربهم وعجمهم يقبلون ويصدّقون بكل ما جاءهم به هؤلاء الأفراد لا يشكّون في شيء مما بلّغهم به كل واحد بمفرده، والناس على اختلاف شعوبهم ومللهم لهم عقول وفطر ومدارك، ومع ذلك لم يكذبوا هؤلاء الأفراد ولا شكّوا في صدقهم أو حقيقة ما بلّغهم"^(٦).

ولا ريب أن النبي ﷺ كان يرسلهم وهو يعلم أنهم سيُعلمون الناس القرآن والسنة والأحكام، ولم يكن ليعتصمهم دون أن يتأكد من قدرتهم على تحمل هذه التبعة، وقد أدّوا المهمة كما هي، فأين الكتابة على عجل

المذّي من غير تحليف^(١)، ولم يستحلف أبا بكر ﷺ فيها رواه عنه بل قال: وصدق أبو بكر، فلم يكن الاستحلاف قاعدة عامة^(٢).

ظهر إذن مما سبق أن ما ورد عن الصحابة من طلب التأكد إنما هو للاحتياط والاستيثاق وأخذ الحيطة في تلقي الحديث، فلقد كانوا حريصين على نقل الحديث على أكمل وجه، ولقد روي عن عمر ﷺ أنه كان يقول: "من سمع حديثاً فحدّث به كما سمع، فقد سلم"^(٣). ولا شك أن هذا التثبت وتلك الحيطة تُناقض ما قاله المدّعون من عدم تثبت الصحابة وعدم حيظتهم أو تعجلهم في نقل الحديث وكتابته.

كما أن هذه الروايات - التي استدلووا بها على كتابة الصحابة الكرام للحديث على عجل - لم يذكر فيها أن الصحابي الذي شهد للراوي خطأ الراوي، أو ذكر خلاف ما قال، بل هو يصدّق على ما قاله بحروفه، ويقول: هكذا سمعت من رسول الله ﷺ، فإذا كانوا يستدلون بهذه الروايات على أن الحديث كُتب على عجل، فأين الخطأ الذي وقع من الصحابي الراوي، ولم نجد أن أي صحابي شهد للراوي قد خطأ الراوي، ولو كان ثمة خطأ فيما يخبر به الراوي لبيّنه وأظهره من يشهد له، وحاشا لله أن يكذب صحابي على رسول الله ﷺ، أو

أن يقول حديثاً ويشهد بنسبه إلى الرسول ﷺ وهو يعلم أنه ليس بحديث، كيف ذلك وقد سمعوا رسول الله ﷺ

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: إثم من كذب على النبي ﷺ، (١/ ٢٤٢)، رقم (١٠٧). صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، (١/ ١٦٩).

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: وجوب الرواية عن الثقات، (١/ ١٦٨).

٦. حجية خبر الأحاد في العقائد والأحكام، ربيع بن هادي عمير المدخلي، دار المنهاج، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ٩٤.

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الحيض، باب: المذي، (٢/ ٨٤٨)، رقم (٦٨٢).

٢. في السنة النبوية ومصطلح الحديث، د. حسين سمرة، دار الهاني، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ٥٦: ٥٠ بتصرف.

٣. الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، الخطيب البغدادي، مكتبة ابن عباس، القاهرة، ٢٠٠٢م، (١/ ٥٠٦).

أو الحفظ دون تثبت كما يزعمون[®]؟

علي^ﷺ: "حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أُرِيدُونَ أَنْ يُكْذَبَ
الله ورسوله"^(٣)!

ثالثًا. امتناع الصحابة عن التحديث بما لا تفهمه العامة:

وقد سار الصحابة^ﷺ على هذا الهدي النبوي،
فامتنعوا عن التحديث بما لا تدركه عامة الناس خشية
أن يُفْتَنُوا فَيَتْرَكُوا بعض الفرائض الدينية.
وقد روى مسلم عن ابن مسعود أنه قال: "ما أنت
محدثٌ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم
فتنة"^(٤).

لقد كان تثبت الصحابة^ﷺ قائمًا على ميزان النقد
العلمي الصحيح؛ لهذا منع الصحابة الرواة من أن
يحدثوا بما يعلو على فهم العامة؛ لأن في هذا مدعاة
لتكذيبهم للمحدث فيما لا يفهمونه، ومدعاة للخطأ
والشك في الدين^(١).

ويروي البخاري عن أبي هريرة^ﷺ أنه كان يقول:
"حفظت من رسول الله^ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثته
(أي نشرته)، وأما الآخر فلو بثته قُطِعَ هذا
البلعوم"^(٥).

وقد روى الإمام مسلم رحمه الله في مقدمة صحيحه
عن النبي^ﷺ قوله: "كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما
سمع"^(٢).

وما زال الصحابة والتابعون والأئمة يكرهون
التحديث بما يكون مشار فتن وقلقل بسبب قصور
بعض الناس في الفهم.

وذلك لأن تحديث العامة بكل شيء مدعاة إلى
تكذيبهم للمحدث فيما لا يفهمونه، ومن هنا قال

® في "توقف النبي والصحابة في قبول خبر الواحد" طالع:
الوجه الرابع، من الشبهة العاشرة، من الجزء الأول (مصدر
السنة وحجيتها). وفي "براءة الصحابة من الكذب على رسول
الله" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية عشرة، من الجزء
الأول (مصدر السنة وحجيتها). وفي "سبب قول النبي: من
كذب عليّ متعمدًا" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة العاشرة، من
هذا الجزء. وفي "استدراكات السيدة عائشة على كبار الصحابة
من قبيل الثبت لا الطعن" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة
السادسة، من الجزء الثالث (أبو هريرة). وفي "براءة أبي هريرة
من الكذب على النبي فيما يخص عليًا" طالع: الوجه الثالث، من
الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثالث (أبو هريرة). وفي "نفي
الكذب عن عبد الله بن سلام" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة
السادسة عشرة، من الجزء الثالث (أبو هريرة). وفي "أسباب رد
بعض الصحابة روايات بعضهم الآخر" طالع: الوجه الثالث،
من الشبهة الخامسة، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة).

لذلك أمسك الصحابة الكرام^ﷺ عن التحديث بما
يكون ذريعة للتقصير والتهاون بسبب قصور النظر، أو
يكون سُلْمًا لأهل الأهواء والبدع ومن هم على اكلتهم
حتى لا تكون فتنة في الأرض وفساد كبير^(٦).

والواقع الحي يقرر أن صحابة رسول الله^ﷺ - ومن

١. دفاع عن الحديث النبوي، د. أحمد عمر هاشم، مرجع سابق،
ص ٥٠.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: النهي عن
الحديث بكل ما سمع، (١/ ١٧٠).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب:
من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا، (١/
٢٧٢) معلقًا.

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: النهي عن
الحديث بكل ما سمع، (١/ ١٧٠، ١٧١).

٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب:
حفظ العلم، (١/ ٢٦١)، رقم (١٢٠).

٦. علوم السنة وعلوم الحديث، د. عبد اللطيف محمد عامر،
مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ص ٨٧.

تبعهم - اختلفت مشاربهم وتباينت قدراتهم وتنوعت أنشطتهم، شأنهم في ذلك شأن جميع الناس، فهم لم يكونوا خلاف المعهود من أمور الفطرة.

ولما كان هذا معلوماً للصحابة فقد كانوا يدركون اختلاف القدرات البشرية، ولذا لم يعاملوا الناس معاملة واحدة، ولكنهم راعوا ما بين الناس من تفاوت في المدارك، وقَدَّروا ما بينهم من تباين في التنبه، ولحظوا ما بينهم من فروق حيوية، فانفقوا لكل ما يناسبه من الأقوال ليصلوا بهم إلى حكم الله ويقودهم إلى المنهج الإسلامي^(١).

يتبين لنا مما سبق أن النهي عن تحديث العامة ببعض الأحاديث إنما كان خوفاً من عدم فهم العامة لهذه الأحاديث التي لا تدرکها عقولهم، ومِنَ تَمَّ يَكْذِبُونَ المحدث لهم بها مما قد ينتج عنه تكذيب النبي ﷺ فيما قال، وفتح باب فتنة كبيرة وفساد عظيم، وليس ذلك لأن الأحاديث لم تُحفظ أو لم تكتب بثبوت وحيطة، أو لأنها كُتبت على عجل^(٢).

الخلاصة:

• تثبت المسلمين وحيطتهم في نقل الحديث من خصائصهم والبدهيات المعروفة عنهم، حتى توصلوا من خلالها إلى علم الإسناد الذي كانوا يعتبرونه ديناً،

١. في رحاب السنة النبوية، د. إبراهيم عوضين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، ص ١٥ بتصرف.

② في "أسباب نهي الصحابة عن الإكثار في الحديث" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها). وفي "حقيقة تحرُّج الصحابة في التحديث عن النبي" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الخامسة، من هذا الجزء.

فكيف يُتَّهم المسلمون بعد ذلك بعدم الحيطة والتثبت؟! • لقد حرص رسول الله ﷺ على تبليغ المسلمين سنته الشريفة، وحرص المسلمون على تلقيها وحضور مجالسه ﷺ، وكتبوا الأحاديث وتدارسوها فيما بينهم حتى حفظوها كما هي.

• لقد توافرت في السنة عوامل عدة ساعدت على حفظ السنة ونقلها كما هي، ومن هذه العوامل:

○ هديه ﷺ في تبليغ السنة إلى الصحابة، من استنصت الناس قبل الحديث إليهم، وشوق الصحابة للاستماع إليه، وجلسهم أمامه كأن على رؤوسهم الطير، وكان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة، ولا يحدثهم إلا في وقت تشوقهم للسمع، وتكرار النبي ﷺ للكلام حتى يُحفظ عنه ﷺ ويُفهم، كما أن النبي ﷺ أوتي جوامع الكلم وهذا أيسر في الحفظ.

○ سمو تعاليم السنة المشرفة.

○ حرص الصحابة على تلقيها، وصدورها من الرسول ﷺ في مناسبات مختلفة جعلها ترتبط بهذه الظروف والتي عُرفت فيما بعد بأسباب ورود الحديث عند العلماء، كل هذا أدى إلى حفظ السنة كما هي، كما أن قوة ذاكرة الصحابة تنفي أن يحفظ الحديث بغير لفظه.

○ كان الصحابة يكتبون الحديث بعد حضور المجلس، وهذا أدعى بأن يكون بغير عجلة؛ لأنهم كانوا يتذكرونه فيما بينهم ويكتبونه كما ورد عن رسول الله ﷺ.

• إن عدالة الصحابة معلومة بتعديل الله ورسوله ﷺ لهم، كما أنهم علموا عقوبة الكذب على رسول الله، وكل هذا ينفي أن يكونوا قد كتبوا الحديث

الشبهة الخامسة

دعوى أن الصحابة تحرّجوا من تدوين الحديث
وروايته لعدم شرعيته (*)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض المشككين أن كبار الصحابة كانوا يتحرّجون من رواية الحديث وتدوينه، ويستدلون على ذلك بما أثير عنهم من أقوال ينهون فيها عن تدوين السنة النبوية، وبأن الخلفاء الراشدين كانوا ينهون حُفَظَ الحديث عن التحديث به، بل كانوا يزجرون من يكثر من التحديث عن النبي ﷺ. هادفين من وراء ذلك كله إلى التشكيك في كيفية تدوين السنة ورواية الصحابة لها.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) إن تخرج الصحابة ﷺ في رواية الحديث النبوي الشريف وكتابته، وتثبتهم - بشتى طرق التثبيت - مما يُروى عن النبي ﷺ - أمر ثابت تنص عليه كتب السنة والتاريخ والطبقات. وقد تحولت هذه المحمّدة العظمى لدى مثيري هذه الشبهة إلى مذمة، وذلك عن طريق قلب النتائج التي تسلم إليها تلك المحمّدة.

(*) الشفاعة: محاولة لفهم الخلاف القديم بين المؤيدين والمعارضين، د. مصطفى محمود، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٩م. دور السنة في إعادة بناء الأمة، جواد موسى محمد عفانة، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م. السنة قبل التدوين، د. محمد عجّاج الخطيب، مرجع سابق، أخطاء وأوهام في أضخم مشروع تعسفي لهدم السنة النبوية، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م. شبهات القرآنيين حول السنة النبوية، د. محمد محمد

مزروعة. www.saaaid.net

على عجل دون التثبت من ألفاظه.

• إن تثبت الصحابة وطلبهم - في بعض الأحيان - شاهداً يشهد بسماحه حديثاً رواه آخر عن النبي ﷺ لا يعني تكذيب الراوي الأول، أو أن الكلام لم يُروَ بلفظه، وإنما هو زيادة استثياق، وزيادة في الحيطه والتثبّت، ودليل ذلك أنه لم يرد أن أحدهم خطأ الراوي الأول مما يدل على أنه رواه كما هو.

• كان النبي ﷺ المبلّغ عن ربه يرسل الأفراد من أصحابه إلى الأمصار لتعليمهم القرآن والسنة، ولم يكن النبي ﷺ ليعيئهم دون أن يتأكد من قدرتهم على تحمل هذه التبعة، وأنهم قادرون على تبليغ القرآن وسنة النبي ﷺ كما هي دون خلط أو اضطراب أو تخليط، ولقد قاموا بهذه المهمة على أكمل وجه، وصدّقهم الناس فيما قالوا.

• إن امتناع الصحابة عن تحديث العامة بما لا يفهمونه كان الغرض منه ألا يكذب الله ورسوله ﷺ، وحتى لا يقع الخلط والشك في الدين، ولا تقع الفتن والقلقل، وليس سبب ذلك أن الحديث كُتِبَ على عجل كما يزعم المبطلون.



هؤلاء ما افتتوا يطعنون في الصحابة الكرام ﷺ فيما كان ينبغي أن يُحمَدوا من أجله.

وإن المرء ليعجب من موقف هؤلاء تجاه تخرُّج الصحابة الكرام ﷺ من رواية الحديث الشريف وتدوينه؛ فإذا افترضنا - جدلاً - أن الصحابة الكرام لم يتخرجوا في هذا الصدد، ولم يتثبتوا فيما يُروى عن النبي ﷺ مشافهة وكتابة وتدويناً - جاز لنا أن نتوقع من المشككين جميعهم الطعن تلو الطعن في الصحابة - والتابعين من بعدهم - والذهاب إلى أن عدم تخرُّج هؤلاء الصحابة والتابعين لا بد أن يُسَلِّم إلى نتيجة مؤداها أن السنة النبوية التي بين أيدينا الآن مُحرفة، وأن النبي ﷺ لم يقل شيئاً منها.

أما أن يُطعن في الصحابة الكرام لأنهم تخرجوا في رواية الحديث وكتابته فهذا لا يُقبل عقلاً.

لقد اعترف هؤلاء المشككون بالحق، إلا أنهم قلبوا النتيجة التي يؤدي إليها؛ اعترفوا بأن الصحابة تخرجوا في رواية الحديث الشريف وكتابته، وهذا حق لا نختلف معهم فيه، ولكننا نختلف معهم في ذهابهم إلى أن الدافع الذي دفعهم إلى مثل هذا التخرُّج إيمانهم بأن السنة ليست شرعاً كالقرآن، وبأن في القرآن غنى عنها. إن تخرُّج الصحابة في رواية الحديث النبوي الشريف وكتابته وتدوينه، وتثبتهم - بشتى طرق الثبوت - فيما يُروى عنه ﷺ - أمر ثابت تنص عليه كتب السنة والتاريخ والطبقات.

"فلا تنازع في أن كثيراً من صحابة رسول الله ﷺ كانوا يتخرَّجون من رواية الحديث - أي من ترديده - وأنهم كثيراً ما كانوا يتثبتون حينما يسمعون حديثاً من أحد الرواة، وليس معنى هذا رفضهم للسنة، أو أنها

(٢) إن الأقوال التي أُثرت عن كبار الصحابة في المنع من كتابة الحديث تدل دلالة واضحة على مدى حرصهم وحيظتهم في رواية الحديث وكتابته، وهي في الوقت نفسه موقوتة بالعلة التي دفعتهم إلى مثل هذا، وهي الخوف من أن تختلط السنة بالقرآن في بادئ الأمر، فلما انتفت هذه العلة وجدنا الصحابة المانعين أنفسهم يكتبون الأحاديث.

(٣) لقد كره الخلفاء الراشدون كثرة التحديث، ونهوا المكثرين من الصحابة، إلا أن هذه الكراهة شملت نوعين فقط من الأحاديث، وهما: أحاديث الرُّخص، والأحاديث التي يصعب فهمها على العامة من الناس، ولم تكن هذه الكراهة مطلقة، كما يُفهم من كلام مثيري هذه الشبهة، وكل هذا أدى إلى حفظ السنة لا ضياعها كما يدعي المغرضون فبقيت نقية كما خرجت من فم المصطفى ﷺ.

التفصيل:

أولاً. "التخرُّج" كلمة حق أريد بها باطل:

من المسلّمات التي يؤمن بها العقل المنصف أن يُمدح المرء بمحمدة له، وأن يذم بمذمة فيه. لكن... أن تغيب محامد المرء ولو كثرت، وتُذاع مساوئه ولو قلَّت، فهذا مما لا يقبله عقل ولا منطق. وإذا كان أحد الشعراء تعجب من هذا الأمر، قائلاً:

إن يسمعو ربيّةً طاروا بها فرحاً

مني وما سمعوا من صالحٍ دَفَنُوا

فإنه يحق لنا - نحن المسلمين - أن نعجب أشد العجب مما درج عليه المشككون والطاعنون من تحويل المحاسن إلى مساوئ، والمحامد إلى مذمات؛ وذلك أن

ومن المظاهر التي تؤكد تثبت الصحابة الكرام ﷺ فيما يروى عن رسول الله ﷺ ارتحالهم - ومن بعدهم التابعون - في طلب الحديث، فلقد اهتموا بالرحلة بعد وفاة النبي ﷺ عندما تفرقوا في الأمصار بعد الفتوحات؛ فرحل - على سبيل المثال - جابر بن عبد الله إلى عبد الله بن أنيس في الشام واستغرق شهراً ليسمع منه حديثاً واحداً لم يبق أحد يحفظه غير ابن أنيس^{(٤)(٥)}.

ورحل أبو أيوب الأنصاري إلى عقبة بن عامر في مصر فلما لقيه قال: حدثنا ما سمعته من رسول الله ﷺ في ستر المسلم، لم يبق أحد سمعه غيري وغيرك، فلما حدثه ركب أبو أيوب راحلته وانصرف عائداً إلى المدينة ولم يحل رحله^(٦).

ثم استمرت الرحلة في جيل التابعين حيث تفرق الصحابة في الأمصار بعد الفتوحات يحملون معهم ميراث النبوة، وما كان يتيسر أن يحيط أحد علماء بحديث رسول الله ﷺ دون الرحلة إلى الأمصار، وملاحقة الصحابة المتفرقين فيها.

"قال سعيد بن المسيب، سيد التابعين: إن كنت لأسير في طلب الحديث الواحد مسيرة الليالي والأيام. وقال بسر بن عبد الله الحضرمي: إن كنت لأركب إلى مصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه. وقال

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب:

الخروج في طلب العلم، (١/ ٢٠٨، ٢٠٩) معلقاً.

٥. انظر: السنة النبوية حجية وتدوينها، محمد صالح الغرسي، مؤسسة الريان، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م، ص ٤٢: ٤٦.

٦. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، مرجع سابق، (١/ ٣٩٢).

ليست من الدين، بل كانوا يقفون هذا الموقف حتى يتأكدوا من صحة ما يروى عنه ﷺ"^(١).

وإن مظاهر التحرج والتثبت في هذا الصدد كثيرة، منها:

١. تحامي الرواية عن الرسول ﷺ والإقلال منها.
٢. التشدد في الحرص على أداء الحديث كما سُمع من النبي ﷺ.
٣. التثبت في قبول الحديث والاحتياط في روايته والعمل به.

٤. الارتحال في طلب الحديث^(٢).

لقد بلغ تحرج الصحابة وتثبتهم في رواية الحديث النبوي مبلغاً عظيماً، حتى إننا نرى منهم من تأخذه الرعدة ويقشعر جلده ويتغير لونه ورعاً واحتراماً لحديث رسول الله ﷺ، ومن هذا ما رُوي عن عمرو بن ميمون قال: "ما أخطأني ابن مسعود عشية خميس إلا أتته فيه، قال: فما سمعته يقول بشيء قط: قال رسول الله. فلما كان ذات عشية قال: قال رسول الله ﷺ. قال: فنكس رأسه، قال: فنظرت إليه، فهو قائم محللة أزرار قميصه، قد اغرورقت عيناه، وانتفخت أوداجه. قال: أو دون ذلك، أو فوق ذلك، أو قريباً من ذلك، أو شبيهاً بذلك"^(٣).

١. أخطاء وأوهام في أضخم مشروع تعسفي لهدم السنة النبوية،

د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ص ١٥.

٢. انظر: من جهود الأمة في حفظ السنة، د. أحمد حسين محمد إبراهيم، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، ص ٧٧: ٨٦.

٣. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب: التوقي في الحديث عن رسول الله ﷺ، (١/ ١٠)، رقم (٢٣). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٢٣).

الأول - في الذهاب إلى أن ذلك دليل على أنهم أيقنوا أن السنة ليست من الدين.

هذا وقد فسّر د. محمد عجّاج الخطيب هذه الأقوال تفسيراً يضع الحق في نصابه، ويدفع ما ذهب إليه هؤلاء الطاعنون، وذلك في سياق حديثه عن كتابة الحديث في عصر الصحابة، يقول: "مع ما روي عن النبي ﷺ من إباحة للكتابة، ومع ما كُتِبَ في عهده من الأحاديث على أيدي من سمح لهم بالكتابة - نرى الصحابة يجمعون عن الكتابة، ولا يقدمون عليها في عهد الخلافة الراشدة؛ حرصاً منهم على سلامة القرآن الكريم والسنة الشريفة، فنجد بينهم ﷺ من كره كتابة السنة، ومن أباحها، ثم ما لبث الأمر أن كثر المجيزون للكتابة، بل رُوي عن بعض من كره الكتابة أولاً إباحته لها آخرًا، وذلك حين زالت علة الكراهة.

فهذا عمر يفكر في جمع السنة، ثم لا يلبث أن يعدل عن ذلك، فعن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب ﷺ أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبي ﷺ في ذلك، فأشاروا عليه بأن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهرًا، ثم أصبح يومًا وقد عزم الله له، فقال: "إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قومًا كانوا قبلكم كتبوا كتبًا، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدًا"^(٢).

وهذا يدل على خشية الفاروق عمر من أن يهمل كتاب الله تعالى أو أن يُضَاهَى به كتاب غيره، ونحن نرى عمر نفسه يأبى أن يُبقي رأيه مكتوبًا ويأبى إلا

٢. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب: الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي، باب: كتاب العلم، (١١ / ٢٥٧)، رقم (٢٠٤٨٤).

عامر الشعبي: لم يكن أحدٌ من أصحاب عبد الله بن مسعود أطلب للعلم في أفق من الآفاق من مسروق"^(١).

فهل يعقل أيها الطاعنون أن يتكبد المرء عناء الرحلة والسفر طيلة شهر - أو أقل أو أكثر - لكي يطلب ويلتمس حديث النبي ﷺ، وهو يؤمن بأنه ليس من الدين في شيء، وبأن في القرآن غنى عنه!؟

ونخلص مما سبق كله إلى أن تخرج الصحابة من رواية الحديث وكتابته يؤكد ثبوتهم من صحة ما ينسب إلى النبي ﷺ من أحاديث، لكي ينقلوه إلى من بعدهم صحيحًا سالمًا من أي زيف أو تدليس أو وضع، ولا يُفهم من ذلك بحال من الأحوال أنه دليل على أن السنة لديهم لم تكن من الدين، كما ادعى مثيرو هذه الشبهة[®].

ثانيًا. التفسير الصحيح لأقوال مانعي كتابة الحديث من الصحابة في الصدر الأول؛

لقد استند مثيرو هذه الشبهة إلى الأقوال التي أشرت عن كبار الصحابة في كراهة كتابة الحديث في الصدر

١. المحدث الفاضل، الرامهرمزي، مرجع سابق، ص ٢٢٤.

® في "ثبوت الصحابة في نقل الأحاديث والأخبار وصدمة تفریطهم في ذلك" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية عشرة، والشبهة الثلاثين، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها)، والوجه الأول، من الشبهة الرابعة، من هذا الجزء، والوجه الثالث، من الشبهة السادسة، من الجزء الثالث (أبو هريرة)، والوجه الثاني، من الشبهة الخامسة، والوجه الثاني، من الشبهة العاشرة، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة). وفي "أسباب مهي الصحابة عن الإكثار في الحديث" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها). وفي "امتناع الصحابة عن التحديث بما لا تفهمه العامة" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة، من هذا الجزء.

وقد بلغ ابن مسعود: "أن عند ناس كتابًا يعجبون به، فلم يزل بهم حتى أتوه به فمحاها، ثم قال: إنما هلك أهل الكتاب قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وتركوا كتاب ربهم"^(٥).

وها هو ذا زيد بن ثابت يقول: "إن رسول الله ﷺ أمرنا ألا نكتب شيئًا من حديثه"^(٦).

وقال ابن عباس: "إنا لا نكتب العلم ولا نُكتبه"^(٧). هؤلاء معظم الذين كرهوا كتابة الحديث في الصدر الأول، قال الخطيب البغدادي: "إن كراهة الكتابة في الصدر الأول إنما هي لثلاث يضاهاى بكتاب الله ﷺ غيره، أو يُستغل عن القرآن بسواه؛ ونهي عن الكتب القديمة أن تتخذ؛ لأنه لا يُعرف حقها من باطلها؛ وصحيتها من فاسدها، مع أن القرآن كفى عنها، وصار مهيمنا عليها، ونهي عن كتب العلم في صدر الإسلام، لقلّة الفقهاء في ذلك الوقت، والمميزين بين الوحي وغيره؛ لأن أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا في الدين، ولا جالسوا العلماء العارفين، فلم يؤمن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن، ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه كلام الرحمن"^(٨)، أضف إلى هذا ورع الصحابة وخشيتهم من أن يكون ما يملونه أو يقيدونه غير ما سمعوه من الرسول ﷺ"^(٩).

أن يمحوه؛ فعندما طعن استدعى طبييًا، فعرف دنو أجله، فنادى ابنه قائلاً: "يا عبد الله بن عمر، ناولني الكتف، فلو أراد الله ﷻ أن يمضي ما فيه أمضاه، فقال له ابن عمر: أنا أكفيك محوها، فقال: لا والله، لا يمحوها أحد غيري، فمحاها عمر بيده، وكان فيها فريضة الجد"^(١٠).

ونرى عمر نفسه حين يأمن حفظ القرآن، يكتب بشيء من السنة إلى بعض عماله وأصحابه، فعن أبي عثمان النهدي قال: "كنا مع عتبة بن فرقد، فكتب إليه عمر بأشياء يحدثه عن النبي ﷺ، فكان فيما كتب إليه: إن رسول الله ﷺ قال: لا يلبس الحرير في الدنيا إلا من ليس له في الآخرة منه شيء إلا هكذا، وقال بأصبعيه السبابة والوسطى. قال أبو عثمان: فرأيت أنها أزرار الطيالة حين رأينا الطيالة"^(١١).

وها هو ذا ابن مسعود يقول: "القلوب أوعية، فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بما سواه"^(١٢).

وهذا يدل على أنه خشي أن يشتغل الناس بكتابة السنة ويَدَعُوا القرآن، أو أن يشتغلوا بغير القرآن الكريم، ونراه يكتب بعض السنة بيده حين زالت علة المنع، فعن مسعر عن معن قال: "أخرج إليّ عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كتابًا وحلف لي أنه خط أبيه بيده"^(١٣).

٥. أخرجه الدارمي في سننه، المقدمة، باب: من لم ير كتابه الحديث، (١/ ١٣٣)، رقم (٤٦٩).

٦. تقييد العلم، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، ص ٣٥.

٧. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، مرجع سابق، (١/ ٢٧٥).

٨. تقييد العلم، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، ص ٥٧.

٩. السنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب، مرجع سابق، ص ٣٠٩: ٣١٥ بتصرف.

١. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، مرجع سابق، (١/ ٢٧٥).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم لبس الحرير، (٨/ ٣١٩٠)، رقم (٥٣١٤).

٣. تقييد العلم، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، ص ٥٤.

٤. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، مرجع سابق، (١/ ٣١١).

يجب أن نضعها في الاعتبار وهي:

أن كراهة كثرة التحديث في عصر الخلفاء لم تكن شاملة لكل الأحاديث، بل كانت مقصورة على أحاديث الرخص؛ خشية أن يركن إليها الناس ويتركوا أحاديث العزائم.

كذلك كانوا يكرهون ذكر الأحاديث التي قد يكون فيها مشكلات يصعب فهمها على عامة الناس، وقد اعتنى علماء الحديث من بعد بهذا النوع وعالجوه علاجاً علمياً جيداً، مثل "مُشكل الآثار" للطحاوي، و"تأويل مختلف الحديث" لابن قتيبة.

هذان النوعان هما اللذان كانا موضع كراهة الإكثار منها. أما أحاديث العمل والأحكام الفقهية، وكل ما يتعلق بأعمال المكلفين إيجاباً وحظراً، فهذه لم تكن محظورة ولا منهيّاً عنها. وهذا ما غفل عنه، أو تغافل عنه دعاة هدم السنة النبوية^(١).

وخلاصة القول أن مثيري هذه الشبهة اعترفوا بالحق إلا أنهم أرادوا به باطلاً؛ وذلك بقلب النتائج التي تسلم إليها المقدمات.

وإلا فأي عيب في التحرج من رواية أحاديث النبي ﷺ وكتابتها؟ أية مذمة بل وأية منقصة في أن يسلك الصحابة الكرام كل الطرق التي تعينهم على الحفاظ على أحاديث النبي ﷺ، وتمكنهم من أن يؤدوها للأجيال التي بعدهم سليمة صحيحة؟

إن العيب كل العيب فيمن يلبسون الأمور على الناس، ويحاولون أن تتحول محامد الصحابة ﷺ إلى

١. أخطاء وأوهام في أضخم مشروع تعسفي لهدم السنة النبوية، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ص ١٦، ١٧.

ونخلص من هذا كله إلى أن الأقوال السابقة التي أُثرت عن بعض الصحابة في المنع من كتابه الحديث - تُسَلِّم إلى نتيجة تخالف النتيجة التي زيفها هؤلاء المتعسفون، فهي تدل على مدى حرص الصحابة وحيطتهم في رواية الحديث وكتابه، وهي في الوقت نفسه موقوتة بالعلة التي دفعتهم إلى مثل هذا التحرج، وهي الحفاظ على كتاب الله ﷻ، والحرص على عدم إهماله، والخوف من اختلاط السنة به، فلما انتفت هذه العلة وجدنا الصحابة المتحرجين أنفسهم يكتبون الأحاديث[®].

ثالثاً. نوعاً الأحاديث التي نهى الخلفاء عن الإكثار من روايتها:

لقد ادعى مثيرو هذه الشبهة أن الخلفاء الراشدين كانوا ينهون حُفَظَ الحديث عن التحديث به، لا سيما المكثرون منهم. وإن في قولهم هذا جزءاً من الحق أريد به باطل؛ وذلك أنهم خلصوا من ادعائهم السابق إلى أن الخلفاء الراشدين لم يؤمنوا بأن للسنة دوراً كبيراً في التشريع الإسلامي، فأهملوها، بل ومنعوا الناس من التحديث بها.

وقد تكفل د. عبد العظيم المطعني بذكر الحقيقة كاملة، وذلك في سياق تفنيده لادعائهم هذا، يقول: "أما شبهة نهى الخلفاء عن الإكثار من التحديث عن رسول الله ﷺ؛ بالأحاديث التي كانت محفوظة في صدور الرجال، فكان من الحيلة الاقتصاد في سوقها، وعدم الإسراف في التحديث بها. على أن هناك حقيقة

® في "عدم صحة ما رُوي عن أبي بكر من حرقه لكتب السنة"، وفي "حقيقة حرق عمر لكتب السنة" طالع: الوجهين الثاني والثالث، من الشبهة الثالثة، من هذا الجزء.

الشبهة السادسة

مطاعن يُطعن فيهم بسببها[®].

الخلاصة:

الزعم أن الشيعة هم أول من دونوا السنة^(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن الشيعة هم أول من تقدم لجمع الآثار والأخبار وتدوين السنة، ويستندون في تقوية هذا الادعاء إلى أن الشيعة اقتدوا في ذلك بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان له كتاب عظيم مدرج وصحيفة معلقة بسيفه، كما أن أبا رافع عليه السلام مولى رسول الله صلى الله عليه وآله هو أول من ألف في الأحاديث وله كتاب "السنة والأحكام والقضايا"، وقد كان - على حد زعمهم - شيعياً توفى في أول خلافة علي عليه السلام سنة خمس وثلاثين من الهجرة، فلا أقدم من أبي رافع بالضرورة. رامين من وراء ذلك إلى إبراز أن الشيعة هم المؤسسون لعلوم الإسلام، وأول من دونوا السنة والأخبار، وأن ما دون في كتبهم سنة صحيحة، وليست مكذوبة من أجل تأييد مذهبهم.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) لقد بدأ التدوين الرسمي للسنة قبل ظهور فرق الشيعة، وعلي بن أبي طالب وأبو رافع لم يكونا شيعيين، ولم يدعوا إلى التشيع، وأول من دون من الشيعة هو الكليني في كتابه "الكافي"، بعد قرابة قرنين من التدوين الرسمي لأهل السنة.

(٢) إذا صحَّ خبر أبي رافع فيكون ممن دون في عصر الصحابة، وقد سبقه عبد الله بن عمرو بن العاص، وإذا

• إن تخرج الصحابة الكرام عليهم السلام في رواية الحديث وتدوينه أمر ثابت ومقرر، وهو محمداً من محامدهم، وقد تحولت هذه المحمداً إلى مذمة على السنة الطاعنين الذين قلبوا النتائج التي تسلم إليها هذه المحمداً.

• إن مظاهر تخرج الصحابة الكرام في رواية الحديث النبوي وتدوينه، وثبتهم - كثيرة، منها: تشددهم في الحرص على أداء الحديث كما سُمع عن النبي صلى الله عليه وآله، وارتحالمهم في طلب الحديث، وكان ذلك كله من أجل الحفاظ على السنة وليس إهمالاً لها.

• إن الأقوال التي رويت عن الصحابة في المنع من كتابة الحديث كانت موقوتة بالعلة التي انطلقت منها هذه الأقوال، وهي الخوف من أن يختلط القرآن بالسنة، فلما أمن ذلك الخوف كتب هؤلاء المانعون أنفسهم الأحاديث.

• لقد نهى الخلفاء الراشدون عن كثرة التحديث بأحاديث الرخص، والأحاديث التي قد تكون فيها مشكلات ويصعب على العامة فهمها، دون غيرها من الأحاديث، ولم يُطلقوا نهيهم كما ادعى المغرضون.



® في "دور الخلفاء الراشدين في الحفاظ على السنة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة).

(*) السنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب، مرجع سابق. تأسيس الشيعة لعلوم الشريعة القرآنية، حسن الصدر، شركة الطباعة والنشر، بغداد، ١٩٥١م.

ويقول: "وكان المسلمون على ما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول، فلما قُتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ووقعت الفتنة فاقْتل المسلمون بصفين، مرقت المارقة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وآله: "تمرق مارقة عند فُرقة من المسلمين يقتلهم أولى الطائفتين بالحق"^(١)، وكان مروقها لِمَا حُكِّم الحكمان، وافترق الناس على غير اتفاق.

وهنا حدثت أيضًا بدعة التشيع للإمام علي رضي الله عنه وآل بيته، فمنهم من أفرط في المغالاة وادّعى لعليّ الألوهية، ومنهم من ادعى النص على إمامة علي رضي الله عنه، ومنهم السَّابُّون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فعاقب أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الطائفتين: قاتل المارقين، وأمر بإحراق أولئك الذين ادّعوا فيه الألوهية.

وأما السَّابُّون الذين يسبُّون أبا بكر وعمر، فإن عليًا لما بلغه أمر السبِّ طلب ابن السوداء الذي بلغه ذلك عنه، وقيل: إنه أراد قتله، فهرب منه إلى أرض قرقيسيا. وأما المفضلة الذين يفضّلونه على أبي بكر وعمر، فروي عنه أنه قال: لا أوتي بأحد يفضّلني على أبي بكر وعمر إلا ضربته حدَّ المفتري"^(٢).

هذا هو تاريخ ظهور الشيعة، فإذا علمنا أن كتابة السنة بدأت في عصر النبي صلى الله عليه وآله بوضع دستور المدينة، وبكتابه صلى الله عليه وآله في الصدقات، وكتاب سعد بن عبادة، وبكتابه صلى الله عليه وآله لأهل حزموت، وكتابه صلى الله عليه وآله لأهل اليمن، والصحيفة الصادقة أو الصحيفة الصحيحة، وصحيفة

صح أن كتابه كان مرتبًا على الأبواب (الصلاة والصيام والحج والزكاة والقضايا)، كان لأبي رافع شرف الأولية في التأليف لا في التدوين.

(٣) الشيعة لا يقرون بالسنة؛ لأنها منقولة عن طريق أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، الذين ارتدوا كلهم - حسب المنظور الشيعي - إلا ثلاثة: مقداد، وأبو ذر، وسلمان. فكيف ينسبون لأنفسهم شرف الأولية في تدوين السنة النبوية والمحافظة عليها، وقد جرّحوا الطبقة الأولى (الصحابة) الواسطة بين النبي صلى الله عليه وآله وأمته، التي إذا فقدت انقطع السند والاتصال!؟

التفصيل:

أولاً. كتابة الحديث بدأت قبل ظهور الشيعة أصلاً، والتدوين الرسمي للسنة كان قبل تدوين الشيعة بقرنين من الزمان على الأقل:

لقد كُتِبَ الكثير من السنة النبوية في العصر النبوي وبعده، ثم دُونت بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز تدوينًا رسميًا، وذلك من أفواه من حفظوها عن الصحابة مباشرة، أو من الكتب التي تركها صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله.

ومعنى هذا أن كتابة السنة بدأت قبل ظهور الشيعة أصلاً، فإن الشيعة فرقة ظهرت في آخر عصر عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم نمت وترعرعت في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ الذي كان كلما اختلط بالناس ازدادوا إعجابًا بمواهبه، وقوة دينه وعلمه، فاستغل الدعاة ذلك الإعجاب، وأخذوا ينشرون آراءهم فيه ما بين رأي فيه مغالاة، ورأي فيه اعتدال.

قال ابن تيمية رحمه الله: "لما أحدثت البدع الشيعة في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ردها،"

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم، (٤/ ١٦٩٥)، رقم (٢٤١٩).
٢. منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، (١/ ٢٠٨، ٢٠٩).

وأما المذهب الزيدي فمن كتبه: "أحاديث البحر الزخار" لابن بهران (ت: ٩٥٧هـ)، و"المجموع الفقهي"، ويضم ما رواه الإمام زيد.

والجعفرية يخلطون الحديث بالفقه، أي أقوال النبي ﷺ بأقوال أئمتهم بسبب العصمة...

والجدير بالذكر أن صحيفة الإمام علي التي أشار إليها كتاب "الكافي" تتضمن أموراً حصرها علي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة، قال: قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: "العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر"^(٢)، فهذه الصحيفة قد دخلت من ذكر حديث الغدير الذي يُبنى عليه الخلاف بين السنة والشيعية، وهي لا تُعدُّ من مدوّنات الشيعة؛ لأن مذهبهم ظهر بعد قتل الإمام علي ﷺ^(٣).

كما أن أبا رافع قد تُوفِّي قبل ظهور الانقسامات المذهبية والفرق الإسلامية؛ فمن التعسف اعتباره شيعياً بالمفهوم المذهبي لفرقة الشيعة، فإن حبه وولاه لأهل البيت كحب وولاء أهل السنة لهم، وهذه ترجمته كما وردت في كتب السير: "فهو أبو رافع القبطي، مولى رسول الله ﷺ ويقال: اسمه إبراهيم، ويقال: أسلم، ويقال: ثابت، ويقال: هرmez".

رُوي أنه كان عبداً للعباس بن عبد المطلب فوهبه للنبي ﷺ، فلما بشره بإسلام العباس أعتقه، شهد أحدًا،

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم، (١/ ٢٤٦)، رقم (١١١).

٣. السنة المفترى عليها، سالم البهنساوي، مرجع سابق، ص ٥٥، ٥٦.

جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، هذا بالإضافة إلى ما أرسله النبي ﷺ من كتب ورسائل إلى الملوك والرؤساء، وما زوّده النبي ﷺ رسله إلى قومهم بكتب تضمنت الحلال والحرام، وأمور الدين، وقد جُمع أكثرها في كتاب "مكاتيب الرسول ﷺ" ويضم (٣١٦) كتاباً^(١).

إذا علمنا ذلك تيقناً أن السنة كُتبت قبل ظهور هذه الفرق الشيعية بسنوات. فإذا أضفنا إلى ذلك أن التدوين الرسمي للسنة كان في عصر عمر بن عبد العزيز؛ أي: حوالي سنة مائة هجرية، وكان أول من دوّن السنة من الشيعة هو الكليني في القرن الرابع الهجري، إذا علمنا ذلك، تبين لنا أن أهل السنة لا الشيعة هم أول من دوّنوا السنة، وحفظوها لنا من الضياع، وأن تدوين الشيعة للسنة كان قد تأخر قرابة قرنين من الزمان.

أما دعوى أن تدوين السنة بمعرفة الشيعة بدأ بصحيفة الإمام علي التي أملاها النبي ﷺ، ومنها ما كان في قراب سيفه، ثم دوّن أبو رافع القبطي مولى رسول الله ﷺ كتاب السنن والأحكام والقضايا، فإن هذا الادعاء مردود؛ لأن ذلك التدوين كان في عصر الصحابة، أي قبل ظهور الشيعة أصلاً، كما وضحنا أن أول من دون من الشيعة هو الكليني (ت: ٣٢٩هـ) في كتابه "الكافي"، ثم دوّن ابن بابويه (ت: ٣٨١هـ) كتاب "فقيه من لا يحضره الفقيه"، ثم دوّن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ) كتاب "تهذيب الأحكام"، وبعد ذلك كتاب "جامع الأخبار" للشيخ عبد اللطيف الهمداني (ت: ١٠٥٠هـ).

١. انظر: السنة المفترى عليها، سالم البهنساوي، مرجع سابق، ص ٥٧: ٦٢.

وتقريرهم بأحاديث نبوية، حتى ولو لم ترفع إليه ﷺ، فهي أحاديث نبوية في ذاتها لعصمة الأئمة عندهم^(٢).

وبهذا العرض يتضح لنا أن الشيعة ليسوا هم أول من دَوَّن أحاديث النبي ﷺ، وأن السنة قد دُوِّنت في عهد رسول الله ﷺ وعهد أصحابه من بعده، وأن التابعين جاءوا بعد الصحابة الكرام وتناقلوا مدوناتهم وصحائفهم حتى كان عصر التدوين الرسمي في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، ففي عصره وبأمره جُمع ما عند التابعين، وهم الذين نقلوا عن الصحابة مباشرة.

ثانياً. إذا صح أن أبا رافع كتب كتاباً رتبته على الأبواب، فإنه بذلك يكون من بين من كتب الحديث في عصر الصحابة:

بداية نذكر أننا لم نقف فيما بين أيدينا من مصادر على هذا الخبر؛ لنستطيع أن نحكم عليه بالقبول أو الرفض، ولسنا ندرى من أين جاء به المغرضون، ولكن الثابت أن صحابة رسول الله ﷺ كانوا يكتبون الحديث على عهده ﷺ، وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة تؤكد ذلك، لا بل تأمر وتحث على كتابة الحديث عن رسول الله ﷺ، مما يدحض ويبطل هذا الزعم القائل بأن الشيعة هم أول من دَوَّنوا الحديث عن رسول الله ﷺ، ومن الأحاديث الواردة في هذا الصدد:

١. حديث أبي هريرة ﷺ قال: "ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب"^(٣).

٢. السنة المفترى عليها، سالم البهنساوي، مرجع سابق، ص ٩٥، ٩٦.

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم، (١ / ٢٤٩)، رقم (١١٣).

والخندق وما بعدهما من المشاهد، ولم يشهد بَدْرًا وكان إسلامه قبل بدر، روى عن النبي ﷺ وعن عبد الله بن مسعود، قال الواقدي: مات بالمدينة بعد قتل عثمان بيسير، وقال غيره: مات قبل قتل عثمان، وقيل: مات في خلافة علي، وروى له الجماعة^(١).

وعلى فرض أن الإمام علياً وأبا رافع رضي الله عنهما هما أول من كتبا في سنة رسول الله ﷺ، فهذا لا يعني أن الشيعة أول من دَوَّن في السنة؛ لأن الإمام علياً وكذلك أبا رافع رضي الله عنهما لم يدعوا إلى التشيع بالمعنى المذهبي الذي تعارفت عليه فرق الشيعة فيما بعد، إذ هما قد تُوِّفيا قبل ذلك.

لقد كان المسلمون في عصر النبي ﷺ وحتى خلافة الإمام علي ﷺ لا يختلفون في أمر السنة النبوية، ثم ظهرت الفتنة بعد خروج معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ومن معه، واعتراضهم علي الإمام علي ﷺ، بدعوى أنه تهاون في إقامة الحد على قتلة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ.

ولقد أشعل المنافقون نار الفتنة فنشبت الحرب بين معاوية ومن معه من جهة، وبين الإمام علي خليفة المسلمين من جهة أخرى، وعندما قبل الإمام علي ﷺ التحكيم حقناً للدماء خرجت عليه فرقة سُميت بالخوارج وحاربوه، فكان رد الفعل أن ظهرت طائفة الشيعة وتغالت في حب علي ﷺ، وردَّت الطائفتان الأحاديث النبوية التي رويت عن غير طريق أئمتهم، وانفردت الشيعة باعتبار أقوال أئمتهم وأفعالهم

١. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ المزي، تحقيق:

د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٠،

١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، (٣٣ / ٣٠١، ٣٠٢).

لمفهوم التشيع، ولم يدعُ إلى التشيع، ولقد تُوفِّيَ ﷺ قبل ظهور الانقسامات المذهبية، مما لا يدع مجالاً للشك في زيف هذه الشبهة وبطلانها.

إذن صحة خبر أبي رافع لا تنفي ما ثبت تاريخياً من أخبار التدوين الفردية في عهد رسول الله ﷺ وما تلاه؛ فقد بدأ تدوين السنة في حياة النبي ﷺ كما سبق أن أوضحنا، وإن كان المُشْتَهَر بين عامة الناس من غير ذوي التبعية والاستقصاء أن الحديث - أو ما يطلق عليه علماء الحديث لفظ "العلم" - ظل أكثر من مائة سنة يتناقله العلماء حفظاً دون أن يكتبوه، واستمر هذا الظن قرابة خمسة قرون متتابعة وهو يزداد توسعاً، ويَطَّرِد قوة، حتى جاء الخطيب البغدادي فتبع مسائل هذا الموضوع وجمع شتاته وألَّف في ذلك كتاب "تقييد العلم"، أما سبب هذا الظن فهو خطأ في تأويل ما ورد عن المحدثين في تدوين الحديث وتصنيفه، فقد ذكر هؤلاء أن أول من دَوَّن العلم ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ أو سنة ١٢٥هـ، وذكروا أول من صنف الكتب فإذا هم جميعاً ممن عاش حتى بعد سنة ١٤٣هـ تقريباً.

ولم يعط العلماء قبل الخطيب البغدادي هذه الأقوال حقها من التأويل العميق والفهم الدقيق، بل رَوَّاه هذه الأقوال بشكل يوهم بأن أول من كتب الحديث ودونه فعلاً هو ابن شهاب الزهري، وأول من صنَّفه في الكتب أتى بعده.

وغلبت هذه الفكرة على أصحاب الكتب الجامعة:

كأبي طالب المكي، والإمام الذهبي، والحافظ ابن حجر، والمقرئزي، وصاحب أبجد العلوم وغيرهم، فكانوا يؤيدونها رغم أنهم كانوا يجدون لها نقيضاً، وذلك أنهم

وهذا الحديث يشير إلى أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان أكثر الصحابة كتابة للحديث، وهذا يعني أن منهم كتاباً كثيرين ولكنه يعد أكثرهم كتابة للحديث.

٢. عن ابن عباس قال: "لما اشتد بالنبي ﷺ وجعه قال: اتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده. قال عمر: إن النبي ﷺ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط، قال: قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع، فخرج ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه"^(١). ولو لم يكن النبي ﷺ يبيع الكتابة ويحْتُّ عليها ما دعا إلى كتابة هذا الكتاب في أثناء مرضه^(٢).

وبهذا يتبين أن أبا رافع مولى رسول الله ﷺ ليس أول من كتب عن رسول الله ﷺ، بل هو واحد ممن كتبوا عن الرسول ﷺ.

ولكن إذا صح أن أبا رافع كتب كتاب "السنن والأحكام والقضايا"، وكان مرتباً على الأبواب: (الصلاة والصيام، والحج، والزكاة، والقضايا) - كان لأبي رافع بذلك شرف الأولوية في التأليف والتصنيف لا في مجرد الكتابة والتدوين الذي يقتصر على جمع الأحاديث في كتاب واحد دون ترتيبها على الكتب والأبواب.

وهذا بالضرورة لا يعني أن الشيعة هم أول من دَوَّن السنة، وذلك لأن أبا رافع لم يكن شيعياً بالمعنى المذهبي

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم، (١/ ٢٥١)، رقم (١١٤).

٢. تدوين وتوثيق السنة النبوية في حياة رسول الله ﷺ والصحابة، د. جمال محمود خلف، مرجع سابق، ص ١٠٨.

يذكرون أن مَنْ جاء بعد الصحابة والتابعين كانوا يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة كُتبت في عصر الصحابة والتابعين.

إذن؛ فقد كان ثمة تدوين قبل عصر الإمام الزهري الذي يُعدُّ من طبقة صغار التابعين.

وقد أثبت الخطيب أن تقييد العلم كان موجودًا في حياته ﷺ وفي عصر الصحابة والتابعين كذلك، فجمع الأحاديث والأخبار التي لها صلة بنشأة تقييد العلم، وخرج بالتأج التالية:

١. أنه لم يصح حديث في النهي عن كتابة الحديث النبوي سوى حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه الإمام مسلم، مع اختلاف بين البخاري ومسلم في رفعه ووقفه^(١).

٢. أن الأمر استقر في حياته ﷺ على إباحة الكتابة، بل هناك أدلة تدل على الحث على الكتابة.

٣. أن التدوين بمعناه الواسع - وهو الجمع - قد بدأ في زمن النبي ﷺ.

٤. أن امتناع من امتنع من الصحابة والتابعين عن كتابة الحديث ليس للنهي الوارد في حديث أبي سعيد الخدري، ولكن هذا الامتناع مغلل بأسباب أُخر، منها: خوف انكباب الناس على الكتب وانشغالهم بها عن القرآن، وقد أورد الخطيب عن السلف النصوص الكثيرة المصراحة بذلك^(٢)، ومنها الحفاظ على ملكة

١. وقد اتفق العلماء على نسخه، بل ونسخ كل أحاديث النهي عن الكتابة بأحاديث أباحتها.

٢. تدوين السنة النبوية: نشأته وتطوره، د. محمد بن مطر الزهراني، مكتبة الصديق، السعودية، ط ١، ١٤١٢ هـ، ص ٦٥: ٧٣ بتصرف.

الحفظ عند المسلمين؛ إذ الاتكال على الكتابة يضعفها، ولذلك كان بعضهم يكتب ثم يمحو ما كتب، ولو كان النهي عن الكتابة مستقرًا عندهم لما كتبوا ابتداءً^(٣).

٥. ولكي نؤكد على صحة أن الصحابة كانوا يدوّنون السنة بالمفهوم الواسع لهذا المصطلح - نذكر جهودهم ﷺ في تدوين السنة، حتى يتضح أن أبا رافع - إن صح الخبر السابق عنه - لم يكن وحده الذي كان يدوّن السنة، كما لا ينفي أن غيره من الصحابة كانوا يدونون ما يحفظون من الحديث، فقد كان بعضهم يكتب السنة لبعض، ومن أمثلة ذلك:

• كتب أسيد بن حضير الأنصاري ﷺ بعض الأحاديث النبوية، ودوّن أفضية أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ، وأرسل ذلك كله إلى مروان بن الحكم^(٤).

• وكتب جابر بن سمرة ﷺ بعض أحاديث رسول الله ﷺ وبعث بها إلى عامر بن سعد بن أبي وقاص؛ بناءً على طلبه ذلك منه^(٥).

• وكتب زيد بن أرقم ﷺ بعض الأحاديث النبوية وأرسل بها إلى أنس بن مالك ﷺ.

• وكتب زيد بن ثابت في أمر الجد إلى عمر بن الخطاب ﷺ، وذلك بناءً على طلب عمر نفسه^(٦).

٣. تقييد العلم، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، ص ٥٨ بتصرف.

٤. صحيح: أخرجه النسائي في سنته، كتاب: البيوع، باب: الرجل يبيع السلعة فيستحقها مستحق، (١/ ٧٥٩)، رقم (٤٦٩٧). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٤٦٨٠).

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: الناس تبع لقريش والخلافة في قريش، (٧/ ٢٨٦٧)، رقم (٤٦٣٠).

٦. أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب: الفرائض، باب: من ورث الإخوة للأب والأم، (٦/ ٢٤٧)، رقم (١٢٢٠٨).

طريق أصحاب محمد ﷺ، وإن أصحابه ارتدوا كلهم بما فيهم سادة بني هاشم، وغيرهم من الأنصار والمهاجرين إلا ثلاثة: المقداد، وأبو ذر، وسلمان، وهؤلاء لم يُرو عنهم إلا القليل، وأما البقية فلا يُطمئن إليهم، ولا إلى مروياتهم؛ لانقلابهم على أعقابهم إلى الكفر، بعد رسول الله ﷺ ولا يُعتمد عليهم ولا يُوثق بأخبارهم ويعتبرونها مكذوبة، موضوعة - حسب المنظور الشيعي - نعوذ بالله من ذلك، ونستغفر الله من الكذب على الرسول ﷺ، والافتراء على أصحابه ﷺ.

فكل حديث أو خبر نُقل عن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، أو ورد في سنده من ينتهج منهجهم، ويتبع خطاهم - يسقط من الاعتبار، فهذه قاعدة محكمة متينة في مصطلح الحديث عند الشيعة، حتى أقر بذلك أحدهم؛ إذ قال: "إن الشيعة لا يعتبرون بشيء من السنة، أعني الأحاديث النبوية، إلا ما صح لهم عن طريق أهل البيت عن جدتهم - يعني ما رواه جعفر الصادق - عن أبيه الباقر عن أبيه زين العابدين عن الحسين السبط عن رسول الله، سلام الله عليهم جميعاً، أما ما يرويه مثل أبي هريرة وسَمْرَةَ، ومروان بن الحكم، وعمران بن حطَّان الخارجي، وعمرو بن العاص ونظائرهم، فليس له عند الإمامية من الاعتبار مقدار بعوضة، وأمرهم أشهر من أن يُذكر" (٣).

فعمَّن دَوْن الشيعة السُّنَّة إذن، إذا كانوا لا ينقلون عن جُلِّ الصحابة بعد وفاة نبيهم ﷺ ١٩

٣. أصل الشيعة وأصولها، محمد الحسين آل كاشف الغطاء، ص ٧٩، نقلاً عن: بين الشيعة وأهل السنة، إحسان إلهي ظهير، إدارة ترجمان السنة، باكستان، ط ١، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م، ص ١٠٤، ١٠٥.

• وجمع سمرة بن جُندب ما عنده من حديث رسول الله ﷺ وبعث به إلى ابنه سُلَيْمان، وقد أثنى الإمام محمد بن سيرين على هذه الرسالة، فقال: في رسالة سمرة إلى ابنه علم كثير (١).

• وكتب عبد الله بن أبي أوفى بأحاديث رسول الله إلى عمر بن عبید الله (٢).

وهذا كله يدل دلالة واضحة على أن تدوين السنة كان بأقلام الصحابة ﷺ، لا بأقلام الشيعة كما زعموا، فأبي دليل أنصع من هذا حتى يكفَّ هؤلاء عن ادعاءاتهم الباطلة (٣)!

ثالثاً. الشيعة لا يقرون بالسنة أصلاً، فكيف يزعمون أنهم أول من دونها؟!؟

إن الشيعة يقولون: إن السنة النبوية منقولة عن

١. تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م، (٤ / ٢٠٧).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجهاد، باب: الصبر عند القتال، (٦ / ٥٤)، رقم (٢٨٣٣).

③ في "جهود الصحابة في حفظ السنة وتدوينها وعنايتهم بجمعها وتوثيقها" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الأولى، والوجه الأول، من الشبهة الثانية عشرة، والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة عشرة، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها)، والوجه الثاني، من الشبهة السابعة، والوجه الأول، من الشبهة الحادية عشرة، من هذا الجزء، والوجه الأول، من الشبهة الأولى، من الجزء السابع (الإسناد والمتن). وفي "أمر عمر بن عبد العزيز بجمع السنة، وتدوينها في القرن الثاني الهجري" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة، من هذا الجزء، والوجه الثاني، من الشبهة الأولى، من الجزء السابع (الإسناد والمتن). وفي "جهود الصحابة والعلماء في التأكد من صحة الحديث سنداً ومتناً" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، والوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء الخامس (الأئمة والرواة)، والوجه الثاني، من الشبهة الثانية، من الجزء السابع (الإسناد والمتن).

إن فقدان الثقة في صحابة النبي ﷺ فقدان لما نقلوه قرآنًا وسنة، فكيف يُسَلَّم لهم بذلك؟

ويقول أحد رموزهم^(١) في القرن العاشر الهجري: "وقد جازف أهل السنة كل المجازفة، بل وصلوا إلى حد المخارفة فحكّموا بعدالة الصحابة من لابس منهم الفتن، ومن لم يلبس، وقد كان فيهم المقهورون على الإسلام، والداخلون على غير البصيرة، والشكاك، كما وقع من فلتات ألسنتهم الكثير، بل كان فيهم المنافقون، وكان فيهم شاربو الخمر، وقاتلو النفس، وفاعلو الفسق والمناكير كما نقلوه عنهم، وما نقلنا نحن بعضه فيما سبق من صحاحهم من الأحاديث المتكثرة المتواترة المعنى يدل على ارتدادهم بعد رسول الله ﷺ، فضلًا عن فسقهم"^(٢).

فإذا كان هذا حال الصحابة ﷺ عند الشيعة، فعمّن نقلوا، وفيمن وثقوا، وأي شيء دونوا؟! وقد أسقطوا أهم حلقة في سلسلة السند التي تربط الأمة بنبيها ﷺ وهم طبقة الصحابة الذين أخذ عنهم الدين قرآنًا وسنة، ناهيك عن أنهم أولى الناس بشرحها واستنباط الأحكام منهم لمعايشتهم الوقائع والأحداث وأسباب الورد، إضافة إلى أنهم أقوى الأمة إيمانًا وأعمقهم فهمًا وأعرفهم لسانًا.

فهل يعقل بعد هذا أن يقال إن الشيعة هم أول من دونوا السنة؟!

وبهذا يظهر أنهم لا يؤمنون بالأصل الثاني من أصول الشريعة الإسلامية وهي السنة، يقول إحسان

١. وهو: الحسين بن عبد الصمد العاملي (ت: ٩٨٤هـ).

٢. بين الشيعة وأهل السنة، إحسان ظهير، مرجع سابق، ص ١٠٥، ١٠٦.

إلهي ظهير: "ولا تغتر بأنهم يدعون ذلك - أي الإيمان بالسنة - فدعواهم في هذا لا تختلف عن دعواهم في الإيمان بالقرآن؛ لأن ما روي بطرقهم عن علي بن أبي طالب ﷺ عن رسول الله ﷺ نزر يسير جدًا، وما روي عن جعفر عن باقر بن زين العابدين عن الحسين عن علي فهو أقل القليل، وصحاحهم الأربعة وكتبهم في الحديث الأخرى تشهد على ما قلناه.

وكذلك ما روي عن أصحاب النبي ﷺ الثلاثة الذين لم يرتدوا من بين أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين - حسب زعمهم، أي: المقداد وأبي ذر وسلمان ﷺ - فلم يرووا عنهم عن رسول الله ﷺ في كتبهم إلا ما يُعدُّ على الأنامل.

أضف إلى ذلك أن جُلَّ الرويات - بل كلها - عن علي ﷺ وعن هؤلاء الأصحاب الثلاثة ليست من قسم المتواتر، بل هي أخبار آحاد، والآحاد لا توجب العلم عند الشيعة قاطبة، ولا العمل عند جمهورهم، وهو الرأي الراجح عند الشيعة"^(٣).

بهذا يتبين أن الشيعة لا تعترف بالسنة أصلًا، فكيف يقبل الزعم بأنهم أول من دونها؟!

الخلاصة:

• إن كان الإمام علي ﷺ من عطاء الصحابة الذين كتبوا الحديث عن رسول الله ﷺ، وكان له كتاب عظيم مدرج وصحيفة معلقة بسيفه، فإن هذا لا يعني

٣. المرجع السابق، ص ١٠٨.

® في "ليس في القرآن ما ينفي حجية السنة" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الأولى، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها). وفي "الأدلة القرآنية على إثبات حجية السنة" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثامنة، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها).

• لا يقال إذن: إن الشيعة هم أول من دَوَّن السنة؛ لأنه عند بداية تدوين أهل السنة للحديث لم يكن هؤلاء الشيعة كتب أو روايات بالأساس.

• إذا كان الشيعة لا يقرون بالسنة أصلاً كمصدر ثانٍ للتشريع، وأن جُلَّ مروياتهم - بل كلها - عن طريق الإمام عليٍّ عليه السلام وعن هؤلاء الأصحاب الثلاثة - ليست من قسم المتواتر، بل هي أخبار آحاد، والآحاد لا توجب العلم عند الشيعة، ولا العمل عند جمهورهم، فكيف يقال إنهم أول من دون السنة؟ وأي شيء دونوا إذن؟



الشبهة السابعة

الزعم أن الحديث لم يُكتب إلا في عهد
عمر بن عبد العزيز*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن السنة لم تُكتب إلا في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (ت: ١٠١هـ)؛ مستدلين على ذلك - حسب فهمهم الخاطئ - بقوله لأبي بكر بن محمد بن حزم: "انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنة ماضية، فاكتبه، فإني خشيت دروس العلم وذهاب أهله". رامين من وراء ذلك إلى الطعن

(*) السنة النبوية حجية وتدوينها، محمد صالح الغرسي، مرجع سابق. السنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب، مرجع سابق. دفع شبهات عن السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر، دار الإيمان، القاهرة، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م. منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل، د. عزيزة علي طه، دار البحوث، القاهرة، ١٩٨٧م.

انفراده بكتابة السنة، فقد كان الكثير من الصحابة كابن عمر، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأنس بن مالك، وغيرهم كثير رضي الله عنهم يكتبون مثل ذلك، ولهم صحف مشهورة.

• لو افترضنا - جدلاً - أن الإمام علياً عليه السلام هو أول من دَوَّن في السنة، فهذا لا يعني سبق الشيعة في مجال تدوين السنة؛ لأن الإمام علياً قدوة لأهل السنة قبل الشيعة، وحبهم له وآل بيته من الدين، وهو داخل في صميم حبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

• إن الإمام علياً عليه السلام لم يدعُ إلى التشيع، ولم يرد عنه ذلك حتى فيما رُوِيَ عنه من كتب وصحف؛ بل إنه ما ورد عنه هي أمور أخرى بعيدة عما يعتقد الشيعة من آراء وأفكار، ولهذا لا يصح أن يقال: إنه إمامهم وخدمهم دون سائر المسلمين.

• إذا صح لأبي رافع كتاب "السنن والأحكام والقضايا"، فهذا لا يعني أكثر من أن يكون لأبي رافع شرف الأولوية في التأليف لا في التدوين، ولا ينفي ما ثبت تاريخياً من أخبار التدوين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده، كما أن التشيع بالمفهوم المذهبي لكلمة شيعة لم يكن قد عُرفَ بعد؛ إذ إن أبا رافع قد توفي قبل ظهور الانقسامات المذهبية في أول خلافة عليٍّ عليه السلام كما أنه لم يرد عنه أي أفكار تحض على التشيع المذهبي.

• إن التدوين الرسمي العام للسنة بدأ عام (٩٩هـ) عندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، وأما قبله، فكان التدوين بطريقة فردية منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل ذلك كان قبل بدء تدوين الشيعة، فأما كتب الشيعة ومدوناتهم فقد بدأت بكتاب "الكافي" للكليني (ت: ٣٢٩هـ).

في صحة السنة، لتأخر تدوينها عن زمن النبي ﷺ.

وجهاً إبطال الشبهة:

(١) الكتابة في اللغة هي مطلق خط الشيء دون مراعاة لجمع الصحف المكتوبة في ديوان، أما التدوين فهو جمع هذه الصحف في ديوان يحفظها؛ لذلك فكتابة السنة كانت منذ عهد النبي ﷺ، والتدوين كان في عهد عمر بن عبد العزيز.

(٢) إن السنة النبوية تنقلت كتابة في كتب وصحائف منذ زمن النبي ﷺ، مروراً بعصر الخلفاء الراشدين، حتى وصلت إلى مرحلة التدوين الرسمي في عهد عمر بن عبد العزيز.

التفصيل:

أولاً. الفرق بين الكتابة والتدوين:

إن الفهم الصحيح لمعنى كلمة (الكتابة)، وكلمة (التدوين) وإدراك الفرق بين المعنيين يحدد إلى حد كبير الرد الصحيح على أعداء السنة في قولهم إن تدوين السنة النبوية المطهرة تأخر إلى القرن الثاني الهجري، وما نحن نوضح الفرق بين الكتابة والتدوين والتصنيف باعتبارها مراحل مرت بها السنة المطهرة حفظاً وتدويناً، حتى وصلت إلى الذروة في القرن الثالث الهجري:

• الكتابة: جاء في اللسان: كتب الشيء كَتَبًا وكتَابًا وكتابة، وكتبه: خطه، فكتابة الشيء: خطه^(١).

• التدوين: جاء في اللسان: والديوان مجتمع الصحف^(٢)، وجاء في تاج العروس: وقد دَوَّنَه تدويناً:

١. لسان العرب، ابن منظور، مادة: كَتَبَ.

٢. المرجع السابق، مادة: دَوَّنَ.

جمعه. وعليه فالتدوين هو جمع الصحف المشتقة أو المتناثرة في ديوان ليحفظها.

• التصنيف: جاء في اللسان: والتصنيف: تمييز الأشياء بعضها عن بعض، وصنَّف الشيء: ميَّز بعضه عن بعض، وتصنيف الشيء: جعله أصنافاً^(٣)، وعليه فالتصنيف: تمييز الجزئيات، كأن يصنَّف المصنَّف الصواب من الخطأ، أو الأهم من المهم.

ومن هذه التعريفات اللغوية يتضح لنا أن الكتابة غير التدوين، فالكتابة: مطلق خط الشيء، دون مراعاة لجمع الصحف المكتوبة في إطارٍ يجمعها.

أما التدوين: فمرحلة تالية للكتابة، ويكون بجمع الصحف المكتوبة في ديوان يحفظها. وعلى ذلك فقول بعض الأئمة: إن السنة دُوِّنت في نهاية القرن الأول الهجري لا يفيد أنها لم تكتب طيلة هذا القرن، بل يفيد أنها كانت مكتوبة، لكنها لم تصل لدرجة التدوين - جمع الصحف في دفتر - وما فهمه المعاصرون - من أن التدوين هو الكتابة - فهم خاطئ، منشؤه عدم التمييز بين الكتابة والتدوين، وليس في حديثهم شيء يتعلق بالكتابة.

والمتبع لكلام الأئمة السابقين يتضح له أنه كان معلوماً لديهم الفرق بين الكتابة والتدوين، وأنهم كانوا يعلمون أن السنة النبوية كُتبت منذ أيامها الأولى، وأما التدوين فظهرت منه صور فردية خلال القرن الأول الهجري، ثم كثر وشاع بعد ذلك^(٤).

وبناء على هذا يُعدُّ الخليفة عمر بن عبد العزيز أول

٣. السابق، مادة: صنَّف.

٤. السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر، مرجع سابق،

ص ٩٦: ٩٨ بتصرف.

ذلك، ووزّع قبل وفاته ما كتبه الإمام ابن شهاب الزهري على الأمصار، ثم ما لبث هذا التيار من النشاط العلمي الذي أزكاه الخليفة عمر بن عبد العزيز، أن اتسع وتضخم مع بداية القرن الثاني، فبعد أن كان أهل الحديث يجمعون الأحاديث المختلفة في الصحف والكراريس، أصبحوا يرتبون الأحاديث على الأبواب، فظهرت الجوامع والمصنفات، واشتهر من أصحابها: الأوزاعي بالشام (ت: ١٤٦هـ)، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المصري بمكة، وسفيان الثوري بالكوفة (ت: ١٦١هـ)، وحماد بن سلمة بالبصرة (ت: ١٦٧هـ)، ومالك بن أنس بالمدينة (ت: ١٧٤هـ)، وعبد الله بن المبارك بخراسان (ت: ١٨١هـ)، وغيرهم. وفي القرن الثالث الهجري ظهرت كتب جامعة، ومسانيد كبيرة، ومعاجم مطولة لجمع السنة، فالكتب الجامعة المبوبة مثل: صحيح البخاري ومسلم، وسنن ابن ماجه وأبي داود والترمذي والنسائي وغيرهم، والمسانيد الكبيرة مثل: مسند الإمام أحمد، ومسند البزار، والمعاجم الكبيرة مثل: معجم الطبراني الكبير. وهكذا اعتنت الأمة الإسلامية بسنة نبيها أيما عناية، ونقلتها الأجيال الأولى إلى من جاء بعدها بكل دقة وحرص وأمانة، فرحم الله سلفنا الذين حملوا السنة وبلغوها لنا رحمة واسعة^(٢).

بهذا يتبين لنا أن الخلط وعدم التفريق بين الكتابة والتدوين كان السبب في هذا الاشتباه، فكتابة الحديث النبوي كانت منذ عصر النبي ﷺ مروراً بالصحابة، ثم التابعين، إلى أن جاء عصر التدوين بمعناه الحقيقي

من أمر بجمع الأحاديث وتدوينها في كتب خاصة، فكتب إلى الآفاق: "انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه"، وكتب إلى أهل المدينة: "انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه، فإني خفت دروس العلم وذهاب أهله".

وروى البخاري في صحيحه أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن حزم (والي المدينة وقاضيهما في خلافته): "انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرّاً"^(١)، كما أمر العالم الجليل ابن شهاب الزهري أن يجمع الحديث والسنن، وفي ذلك يقول الإمام ابن شهاب الزهري: "أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنة فكتبناها دفترًا دفترًا، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا".

وبذلك يمكننا أن نعتبر أن تدوين السنة تدوينًا رسميًا إنما بدأ على رأس المائة الثانية في خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز.

"وهكذا لم يمض القرن الأول الهجري إلا والسنة النبوية قد بدأ تدوينها تدوينًا رسميًا برعاية الدولة ودعم الخلفاء وتشجيعهم، وكان الفضل في ذلك للخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، الذي أمر المسئولين في أقاليم الدولة الإسلامية بأن يعتنوا بالحديث الشريف، كما شجع العلماء على عقد حلقات لدراسة الحديث في المساجد، بل شاركهم بنفسه في

٢. من جهود الأمة في حفظ السنة، د. أحمد حسين محمد إبراهيم، مرجع سابق، ص ١٢٩: ١٣٣ بتصرف.

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: كيف يقبض العلم، (١/ ٢٣٤)، رقم (٣٤).

عنها - أنه قال: "كنت أكتب كل شيء أسمع من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا؟! فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأوماً بأصبعه إلى فيه، وقال: اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حقٌ" (٢).

• قال عبد الله بن عمرو: "ما يرغَّبني في الحياة إلا خصلتان: الصادقة والوهط، فأما الصادقة فصحيفة كتبتها من في رسول الله ﷺ، وأما الوهط فأرض تصدَّق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها" (٣).

• عن أبي هريرة ؓ قال: "ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب" (٤).
إن هذه الأدلة التي ذكرناها لدليل قاطع على أن أحاديث النبي ﷺ كانت تُكتب في عهده ﷺ بإذنه وتحت سمعه وبصره.

الكتابة في عهد الصحابة:

أما عن كتابة السنة في عصر الراشدين ؓ فقد كثرت الكتابة في عصرهم خوفاً من الضياع والنسيان، ونستدل على كتابتها آنذاك بما يأتي:

• روى الإمام الطبراني أن أبا بكر كتب كتاباً إلى

الصحيح، والذي بدأ على يدي الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذي نادى بضرورة حفظ السنة وتدوينها، وتوزيع الكتب على البلاد الإسلامية خوفاً من ضياع العلم وذهاب أهله. فكان الإمام ابن شهاب الزهري أول من قام بتدوين الحديث وجمعه بناء على طلب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ①.

ثانياً. السنة النبوية تنوقلت كتابةً في كتب وصحائف منذ زمن النبي ﷺ مروراً بعصر الراشدين حتى وصلت إلى مرحلة التدوين الرسمي في عهد عمر بن عبد العزيز ؓ:

لقد أذن النبي ﷺ لأصحابه بكتابة أحاديثه، فاعتنى بكتابتها كثير من الصحابة ؓ في حياته وبعد مماته ﷺ، حفاظاً عليها، ولأجل أن يبلغوها إلى الأجيال التالية، فكانت جهود هذا الجيل المبارك وما كتبه من الصحف هي الأساس الأول في تدوين السنة، والنواة الأولى لما صُنِّف في القرنين الثاني والثالث من الجوامع والمسانيد والسنن وغيرها من دواوين السنة ①.

ولقد وردت أحاديث كثيرة تثبت أن السنة كما كانت تُنقل مشافهة في عهد النبي ﷺ كانت تنقل كذلك كتابة، ومن هذه الأحاديث ما يأتي:

• ما روي عن عبد الله بن عمرو رضي الله

① في "استخارة عمر بن الخطاب في قضية جمع السنة" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها). وفي "تدوين السنة قبل عصر الإمام الزهري" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السادسة، من هذا الجزء. وفي "تدوين السنة في القرن الثاني الهجري" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الأولى، من الجزء السابع (الإسناد والمتن).
١. السنة النبوية حجية وتدويناً، د. محمد صالح الغرسي، مرجع سابق، ص ٥٨ بتصرف.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو رضي الله عنها، (١١ / ٥٦)، رقم (٦٨٠٢). وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.
٣. أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، كتاب: العلم، باب: ذكر الرخصة، (١ / ٣٠٥).
٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم، (١ / ٢٤٩)، رقم (١١٣).

وحتى تتم الفائدة ويتضح أن تدوين الحديث لم يكن على نطاق ضيق من صحابة رسول الله ﷺ بل شمل جمعًا كبيرًا من الصحابة نذكر بعض الصحف وأصحابها كما نذكر عدد الذين كانوا يكتبون من الصحابة وهم ليسوا قلة.

أصحاب الصحف والمجاميع:

ومنهم عبد الله بن عمرو، وأبو هريرة، وابن عباس، وجابر بن عبد الله، وسمره بن جندب، وأنس بن مالك، وسعد بن عباد وغيرهم ممن لم يشتهروا.

صحابة رسول الله ﷺ الذين كتبوا الحديث على وجه

العموم:

ومنهم: أبو أيوب الأنصاري، وأبو بكره الثقفي، ونُفَيْع بن الحارث، وأبو رافع مولى رسول الله ﷺ، وأبو ريحانة الأزدي شمعون بن يزيد الأنصاري الخزرجي، وأبوسعيد الخدري، وأبو موسى الأشعري، وأبي بن كعب، وأسيد بن حضير، والبراء بن عازب، وجابر بن سمره، وجريير بن عبد الله، والحسن بن علي، ورافع بن خديج الأنصاري، وزيد بن أرقم، وزيد بن ثابت، وسليمان الفارسي، والضحاك بن سفيان الكلبي، والضحاك بن قيس، وعبد الرحمن بن عائذ، وعبد الله بن أبي أوفى، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود، وعمرو بن حزم الأنصاري، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، ومعاذ بن جبل، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، ونعمان بن بشير، ووائل بن الأسقع.

الصحابييات اللاتي كتبن الحديث:

ومنهن: أسماء بنت عميس، وسبيعة الأسلمية، وعائشة بنت أبي بكر الصديق، وفاطمة بنت قيس،

عمرو بن العاص ذكر فيه الأحاديث النبوية^(١).

• عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: "كتبت إلى جابر بن سمره مع غلامي نافع أن أخبرني بشيء سمعته من رسول الله ﷺ قال: فكتب إليّ: سمعت رسول الله ﷺ..."^(٢).

• يبدو أن عمر ﷺ كان قد جمع أحاديث النبي ﷺ الخاصة بالصدقات في رسالة واحدة، وقد قرأها نافع على ابن عمر عدة مرات^(٣).

• جمع سمره بن جندب ﷺ مجموعة من أحاديث رسول الله ﷺ، وبعث بها إلى ابنه سليمان، وقد أثنى الإمام محمد بن سيرين على هذه الرسالة فقال: "في رسالة سمره إلى ابنه علم كثير"^(٤).

• كان الصحابي أنس بن مالك ﷺ يحث أولاده على كتابة العلم، قال ثمامة بن عبد الله: كان أنس يقول لابنه: "قيدوا العلم بالكتاب"^(٥)، حتى نُقل عنه أنه كان يقول: "كنا لا نعدُّ علم من لم يكتب علمه علمًا"^(٦)، وهذا نص في أن كل من كان يُعدُّ في الصحابة الكرام عالمًا كان معتنيًا بكتابة العلم، والمقصود بالعلم هنا الأحاديث النبوية.

١. المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، العراق، ط ٢، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م، (١٩ / ١).

٢. صحيح مسلم (شرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: الناس تبع لقريش، (٧ / ٢٨٦٦)، رقم (٤٦٢٢).

٣. التاريخ الكبير، البخاري، تحقيق: السيد هاشم، دار الفكر، بيروت، د. ت، (١ / ٢١٨).

٤. تهذيب التهذيب، ابن حجر، مرجع سابق، (٤ / ٢٠٧).

٥. تقييد العلم، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، ص ٩٦.

٦. المرجع السابق، ص ٩٦.

وفاطمة بنت محمد^(١).

سفيان عن جابر إنما هي صحيفته^(١)، وأثبت البخاري سماع أبي سفيان من جابر، فأبو سفيان قد كتب ما سمعه من جابر بن عبد الله في صحيفته.

○ عن سعيد بن جبير قال: "كنت أكتب عند ابن عباس في صحيفة، وأكتب في نعلي"^(٧).

○ قال ابن سنان: "خرجت في وفد من أهل الأنبار إلى الحجاج في واسط نتظلم إليه من عامله علينا ابن الرفيل، فدخلت ديوانه فرأيت شيخًا والناس حوله يكتبون عنه، فسألت عنه فقيل: أنس بن مالك"^(٨).

○ يقول الأصمعي عن أبي الزناد: قال عروة: "كنا نقول: لا نتخذ كتابًا مع كتاب الله، فمحوت كتبي، فوالله وددت أن كتبي عندي، إن كتاب الله قد استمرت مريته"^(٩)، أي: أن كتاب الله قد قوي واستحكم فلا خوف عليه من اختلاطه بالسنة، وعروة بن الزبير قد توفى عام (٩٤ أو ٩٥ هـ)؛ أي قبل أمر عمر بن عبد العزيز بتدوين السنة.

وما ذكرناه من كتابة الصحابة ﷺ للأحاديث وكتابة تلاميذهم عنهم إنما هو غيظ من فيض، وقليل من كثير، وكل هذه الأخبار التي ذكرناها هنا كانت قبل أمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر بن محمد بن حزم بتدوين السنة، فهل بعد ذلك كله نقول: إن السنة لم

وهذا هو حال كتابة السنة النبوية المطهرة في عهد الصحابة الكرام، وموقفهم من تسجيلها في الصحائف المختلفة، ووصيتهم تلاميذهم بها، ومن الطبيعي أن يجعلهم تلاميذهم من التابعين أسوة حسنة في هذا، ويمثلوا أوامرهم بذلك، ويطبّقوا وصاياهم، ويظهر مدى اهتمام تلاميذ الصحابة بكتابة السنة عنهم فيما يأتي من أدلة^(٢):

○ قال بشير بن نهيك: "كتبت عن أبي هريرة كتابًا، فلما أردت أن أفارقه قلت: يا أبا هريرة، إني كنت أكتب عنك كتابًا فأرويه عنك؟ قال: نعم اروه عني"^(٣).

○ قال أبو الزعيزعة (كاتب مروان): "إن مروان أرسل إلى أبي هريرة فجعل يسأله، وأجلسني خلف السرير وأنا أكتب، حتى إذا كان رأس الحول دعاه فأقعده من وراء الحجاب فجعل يسأله عن ذلك الكتاب، فما زاد ولا نقص ولا قدّم ولا أخر"^(٤).

○ لهما بن منبه صحيفة عن أبي هريرة طُبعت عدة مرات بتحقيق د. محمد حميد الله رحمه الله، وهي صحيفة صحيحة تضم نحو مائة وأربعين حديثًا^(٥).

○ قال وكيع: "سمعت شعبة يقول: حديث أبي

١. انظر: كتابة الحديث بأقلام الصحابة، د. ساجد الرحمن الصديقي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٤٣: ٩٨.

٢. السنة النبوية، محمد صالح الغرسي، مرجع سابق، ص ٦٣: ٦٧.

٣. تقييد العلم، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، ص ١٠١.

٤. سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٩، ١٤٢٣ هـ / ١٩٩٣م، (٢ / ٥٩٨).

٥. المرجع السابق، (٥ / ٣١١).

٦. الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، (٢ / ٣٦٥).

٧. أخرجه الدارمي في سننه، المقدمة، باب: من رخص في كتابة العلم، (١ / ١٣٨)، رقم (٥٠٠).

٨. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، (٨ / ٢٥٩).

٩. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (٤ / ٤٣٦).

الله ﷺ في صحف متفرقة، وتمّ جمعها في دواوين منذ أمر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز بذلك حتى ظهرت الكتب الجامعة، والمسانيد الكبيرة، والمعاجم المطولة.

• إن إذن النبي ﷺ لأصحابه في كتابة أحاديثه كان دافعاً لاهتمام الصحابة بكتابة السنة.

• من صور اهتمام الصحابة بجمع السنة وكتابتها منذ زمن النبي ﷺ موقف عبد الله بن عمرو بن العاص من كتابة كل ما سمعه من النبي ﷺ وصحيفته الصادقة، وكثرة أحاديث ابن عمرو عن أبي هريرة لكتابته وعدم كتابة أبي هريرة.

• لقد استمر اهتمام الصحابة بكتابة السنة بعد موت النبي ﷺ، فكانوا يكتبون الأحاديث ويعثون بها إلى الأمصار المختلفة، ويحثون تلامذتهم على تقييد العلم بالكتاب.

• وعليه فإن السنة النبوية نُقلت كتابة منذ زمن النبي ﷺ مروراً بعهد الصحابة والتابعين بالتوازي مع نقلها بالمشافهة حتى وصلت إلى عهد عمر بن عبد العزيز حيث دُوّنت تدويناً رسمياً تحت رعاية الدولة وبدعم منها.



تكتب إلا في عهد عمر بن عبد العزيز!؟

وبناء على ما سبق بيانه فإن السنة النبوية قد نُقلت كتابة في كتبٍ وصحائف بالتوازي مع المشافهة منذ زمن النبي ﷺ مروراً بعصر الخلفاء الراشدين حتى وصلت إلى مرحلة التدوين الرسمي في عهد عمر بن عبد العزيز، وعليه فلا معنى لزعمهم أن السنة لم تُكتب إلا في مطلع القرن الثاني الهجري في عهد عمر بن عبد العزيز.[®]

الخلاصة:

• هناك فرق جليٌّ بين الكتابة والتدوين، فالكتابة هي مجرد الخط في الصحف، أما التدوين فهو جمع الصحف المكتوبة في ديوان يحفظها.

• القول بأن السنة النبوية دُوّنت في نهاية القرن الأول لا يفيد أنها لم تكتب طيلة هذا القرن، بل يفيد أنها كانت مكتوبة، لكنها لم تجمع في ديوان واحد إلا في عهد عمر بن عبد العزيز.

• من خلال بيان الفرق بين الكتابة والتدوين نقول: إن السنة النبوية المطهرة كُتبت منذ عهد رسول

® في "جهود الصحابة والتابعين والعلماء في حفظ السنة وتدوينها وعنايتهم بجمعها وتوثيقها" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الأولى، والوجه الثالث، من الشبهة الثانية، والوجه الأول، من الشبهة الثانية عشرة، والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة عشرة، والوجه الثاني، من الشبهة التاسعة والعشرين، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها)، والوجه الثاني، من الشبهة السادسة، والوجه الأول، من الشبهة الحادية عشرة، من هذا الجزء، والوجهين الأول والثاني، من الشبهة الأولى، من الجزء السابع (الإسناد والمتن). وفي "الأدلة على كتابة السنة في عهد النبي ﷺ" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء.

الشبهة الثامنة

الزعم أن تأخر تدوين السنة أدى إلى ضياعها^(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض أعداء السنة أن تأخر تدوينها أدى إلى ضياعها؛ ذلك أن المسلمين كانوا في حذر من كتابتها فاعتمدوا في نقلها وروايتها على ذاكرتهم، وهي - بلا شك - قد يعترها النسيان مما يؤدي إلى التبديل أو التحريف، والصحابة يتورعون عن مثل هذا؛ لعلمهم عاقبة الكذب على النبي ﷺ، فكانوا يغضون الطرف عن كل ما ينسونه من السنة حتى ضاع معظمها، ولم يصل إلى التابعين إلا القليل الذي ضاع أكثره بنسيانهم له. رامين من وراء ذلك إلى الطعن في صحة السنة التي بين أيدينا.

وجهاً إبطال الشبهة:

(١) إن صيانة السنة تحصل أول ما تحصل بعدالة حاملها، وإذا خلت الكتابة من الحفظ والفهم والعدالة فلا يوثق حينئذ بشيء من المكتوب؛ ألا ترى أن اليهود

(*) السنة النبوية بين كيد الأعداء وجهل الأدعياء، حمدي عبد الله عبد العظيم الصعيدي، مرجع سابق. دفع أباطيل د. مصطفى محمود في إنكار السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، مرجع سابق. السنة المقترى عليها، سالم علي البهنساوي، مرجع سابق. تدوين السنة النبوية: نشأته وتطوره، د. محمد بن مطر الزهراني، مرجع سابق. السنة حجية وتدويناً، محمد صالح الغرسي، مرجع سابق. المدخل إلى السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م. دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتّاب المعاصرين، د. محمد أبو شعبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط ١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م. السنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب، مرجع سابق.

والنصارى كانوا يكتبون التوراة والإنجيل ومع ذلك وقع التبديل والتغيير فيها لَمَّا تجردوا من صفة العدالة؟!!

(٢) إن الكتابة لا تفيد القطع بالصحة، كما أنها دون الحفظ قوة، خصوصاً من العرب ومن على شاكلتهم، وعلى رأسهم الصحابة والتابعون، وليس في تأخر تدوين السنة إلى رأس المائة الأولى دليل على ضياعها لقرب المدّة وقصر السند في ذلك الوقت؛ إذ لم يكن فيه سوى راوٍ واحد أو اثنين كما عند مالك في الموطأ الذي فيه ما بين مالك والصحابي رجل واحد.

التفصيل:

أولاً. إن صيانة السنة تحصل بعدالة حاملها لا بمجرد كتابتها:

إن المعوّل عليه في المحافظة على ما هو حجة وصيانتة من التبديل والخطأ والضياع، هو أن يحمله الثقة العدل، يبلغه من يساميه ثقة وعدلاً. وهكذا؛ سواء أكان الحمل على سبيل الحفظ للفظ، أم الكتابة له، أم الفهم لمعناه فهماً دقيقاً مع التعبير عن ذلك المعنى بلفظ واضح الدلالة عليه دون لبس ولا إبهام. فأى نوع من هذه الأنواع الثلاثة يكفي في الصيانة والحفظ ما دامت صفة العدالة متحققة، فإذا اجتمعت هذه الثلاثة مع العدالة؛ كان ذلك الغاية والنهاية في المحافظة، وإذا اجتمعت وانتفت العدالة لم يُجد اجتماعها نفعاً ولم يُغن فتيةً، ولم نأمن حينئذٍ من التبديل والعبث بالحجة.

ومن باب أولى إذا انفردت الكتابة عن الحفظ والفهم، وعدالة الكاتب أو الحامل للمكتوب؛ فإننا حينئذٍ لا نثق بشيء من المكتوب. ألا ترى أن اليهود

يكتبها - الكفاية في إقامة الحجة على المرسل إليهم
وإلزامهم اتباعه.

٢. أنا نعلم أن الصلاة - وهي الركن الثاني من
أركان الإسلام - لا يمكن للمجتهد أن يهتدي إلى
كيفية من القرآن وحده؛ بل لا بد من بيان
الرسول ﷺ، ولم يثبت أنه قد أمر بكتابة كيفية التي
شرحها بفعله وقوله، ولو كانت الكتابة من لوازم
الحفظ، وبدونها يقع التحريف أو الضياع - لما جاز أن
يترك النبي ﷺ هذا الأمر الخطير الذي لا يهتدي إليه
المجتهدون من التابعين فمن بعدهم بمحض عقولهم
أوباجتهادهم في القرآن - دون أن يأمر بكتابتها التي
تحول بينه وبين الضياع أو التحريف.

٣. أن حفظ السنة وصيانتها من التحريف ضرورة
دينية، ومع ذلك لم يأمر النبي ﷺ أمر إيجاب بكتابة كل
ما صدر منه، ولو كان حفظ السنة من الضياع متوقفاً
على الكتابة لما جاز له ﷺ أن يهمل الأمر بها، وإيجابها
على الصحابة^(١).

ثانياً. الكتابة وحدها لا تفيد القطع بالصحة:

إن كتابة غير العدل لا تفيدنا قطعاً ولا ظناً، وكذلك
إذا كتب العدل وحمل المكتوب إلينا غير عدل، أما إذا
حصلت الكتابة من عدل وحمل المكتوب عدل مثله،
فإنها لا تفيد القطع بل الظن؛ لأن احتمال التغيير والخطأ
باق، وإن كان ضعيفاً لوجود العدالة، وإن بلغ كل من
الكاتبين والحاملين عدد التواتر، استفدنا القطع.
وكذلك إذا كتب واحد وأقر المكتوب جمع بلغ عدد

والنصارى كانوا يكتبون التوراة والإنجيل ومع ذلك
وقع التبديل والتغيير فيها لما تجردوا من صفة العدالة؛
حتى لا يمكننا أن نجزم ولا أن نظن بصحة شيء منها،
قال ﷺ: ﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ
يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً قَوْلٌ
لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُبُونَ ﴾ (البقرة).

الكتابة ليست من لوازم الحفظ:

إذا كان المعول عليه في المحافظة على المحمول عدالة
الحامل له - على أي وجه كان حمله - تحققنا أن الكتابة
ليست من لوازم الحفظ، وأن صيانة السنة غير متوقفة
عليها. وأنها ليست السبيل الوحيد إلى ذلك، والأدلة
على ذلك هي:

١. أنا نعلم أن النبي ﷺ كان يرسل السفراء من
الصحابة إلى القبائل ليدعوا الناس إلى الإسلام
ويعلموهم أحكامه وقيموا بينهم شعائره، ولم يرسل
مع كل سفير مكتوباً من القرآن يكفي لإقامة الحجة على
جميع الأحكام التي يبلغها السفير للمرسل إليهم،
ويلزمهم بها، ولا يستطيع أحد أن يثبت أنه كان يكتب
لكل سفير هذا القدر من القرآن، والغالب فيما كان
يفعله ﷺ هو أن يكتب للسفير كتاباً يثبت فيه سفارته
ويصحح به بعثته. وفي بعض الأحيان كان يكتب له
كتاباً مشتتاً على بعض الأحكام من السنة وليس فيه
نص قرآني، إلا أنه لا يكفي لإقامة الحجة على جميع
الأحكام التي يراد تبليغها.

فتبين لنا من هذا أن النبي ﷺ كان يرى في عدالة
السفير، وحفظه لما حفظه من القرآن والسنة - اللذين لم

١. الرد على شبهات من ينكر حجية السنة، د. عبد الغني محمد
عبد الخالق، مكتبة السنة، القاهرة، د. ت، ص ٤٣٣، ٤٣٤
بتصرف.

بأن الحجة إنما وجبت بكتاب رسول الله ﷺ المذكور لعدم توهم التبديل والتغيير فيه؛ لعدالة الصحابي. وعليه فالمكاتبة فيها من الاحتمالات أكثر مما في التحديث شفاهًا، ولذلك وقع الخلاف فيها دونه.

هذا عن درجة الكتابة من الحفظ بشكل عام، أما إذا أضفنا إلى ذلك أن أصحاب هذا الحفظ هم العرب الأمة الأمية التي لا يكثر فيها من يعرف الكتابة، ومن يعرفها منهم قد لا يتقنها، فيتطرق إلى مكتوبه احتمال الخطأ بشكل كبير، وإذا أتقنها الكاتب فقد لا يتقن قراءتها القارئ منهم؛ فيقع في اللبس والخطأ، خصوصًا قبل وضع قواعد النقط والشكل والتمييز بين الحروف المعجمة والمهملة، وهو ما لم يحدث قبل عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، ولذلك كان جلّ اعتمادهم في تواريتهم وأخبارهم وسائر أحوالهم على الحفظ حتى قويت هذه الملكة عندهم، ونذر أن يقع منهم خطأ أو نسيان لشيء مما حفظوه. بخلاف من يعتمد على الكتابة من الأمم المتعلمة المتمرنة عليها، فإن ملكة الحفظ تضعف فيهم، ويكثر عندهم الخطأ والنسيان لما حفظوه، كما أن الواقع المشاهد يؤكد تلك الحقيقة، فإننا نجد الأعمى أقوى حفظًا لما يسمعه من المبصر؛ لأنه جعل كل اعتماده على ملكة الحفظ، بخلاف المبصر فإنه يعتمد على الكتاب الذي سينظر فيه عند الحاجة، وكذلك التاجر الأمي قد يعقد كثيرًا من الصفقات في اليوم الواحد، ومع ذلك نجده يحفظ جميع ما له عند غيره، وما عليه له دونها خطأ أو نسيان لجنيته واحد، وهذا بخلاف التاجر المتعلم الذي اتخذ الدفاتر في متجره، واعتمد عليها في معرفة الصفقات وما عليه وما له، فإننا نجده سريع النسيان لما لم يكتبه كثير الخطأ فيه.

التواتر وحمله عدد مثله، والقطع على كل حال لم نستفده من محض الكتابة وخصوصيتها، وإنما من التواتر الكتابي في الحالة الأولى، أو اللفظي بإقرارهم في الحالة الثانية.

ومع أن الكتابة تفيد الظن والشارع قد تعبدنا به في الفروع، ولم يكلفنا بتلمس سبيل اليقين في كل حكم من الأحكام لما في ذلك من الحرج والتعذر؛ قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) فإنها - أي: الكتابة - دون الحفظ في هذه الإفادة؛ ولذلك ترى علماء الأصول إذا تعارض حديث مسموع وحديث مكتوب يرجحون المسموع^(١).

قال الآمدي: "وأما ما يعود إلى المروي فترجيحات؛ الأول: أن تكون رواية أحد الخبرين عن سماع من النبي ﷺ، والرواية الأخرى عن كتاب. فرواية السماع أولى؛ لبعدها عن تطرّق التصحيف والغلط"^(٢).

ولذلك نرى علماء الحديث - بعد اتفاقهم على صحة رواية الحديث بالسماع - قد اختلفوا في صحة روايته بطريق المناولة أو المكاتبة؛ فمنهم من أجازها محتجًا: بأن النبي ﷺ كتب لأمر سرية كتابًا وقال: "لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا وكذا؛ فلما بلغ ذلك المكان قرأه على الناس"^(٣)، وأخبرهم بأمر النبي ﷺ كما في تعاليق البخاري في صحيحه، ومنهم من لم يجزها دافعًا ما تقدم

١. المرجع السابق، ص ٤٣٤، ٤٣٥ بتصرف.

٢. الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، تحقيق: عبد المنعم إبراهيم، مكتبة نزار الباز، الرياض، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ص ٩٩٤، ٩٩٥.

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: ما يذكر في المناولة، وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان، (١/ ١٨٥) معلقًا.

أحدهم يجتزئ بالسَّمْعَةِ، وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنها أنه حفظ قصيدة عمر بن أبي ربيعة التي أولها:

أمن آل نَعْم أنت غادٍ فمُبَكِّر

غداة غد أم رائح فمُهجر^(١)

في سَمْعَةٍ واحدة، وهي خمسة وسبعون بيتًا، وقد روي عن الزهري أنه كان يقول: إني لأمرُّ بالبقيع فأسد أذناي مخافة أن يدخل فيها شيء من الحنأ؛ فوالله ما دخل أذني شيء قط فنسيته، وقد جاء نحوه عن الشعبي.

فالحفظ والكتابة يتناوبان في المحافظة على الشيء، وفي الغالب يضعف أحدهما إذا قوي الآخر، ومن هنا نفهم أحد أسباب حث الصحابة تلاميذهم على الحفظ، ونهيهم إياهم عن الكتابة؛ وذلك لأنهم كانوا يرون أن الاعتماد على الكتابة يضعف فيهم ملكة الحفظ، وهي ملكة قد طُبِعوا عليها والنفس تميل إلى ما طبعت عليه وتكره ما يخالفه ويضعفه.

وهنا نقول لمن زعموا أن تأخر كتابة السنة أدى إلى تحريفها وضياعها: إن قولكم مردود؛ وذلك أن الحفظ أسلم في الحفاظ على السنة من الكتابة؛ لأنه في الغالب لا يكون إلا مع الفهم وإدراك المعنى والتحقق منه؛ حتى يستعين بذلك على عدم نسيان اللفظ، ثم إنه يحمل المرء على مراجعة ما حفظه واستذكاره أنا بعد أن حتى يأمن من زواله، ثم إن محفوظه يكون معه في أي وقت وأي مكان، فيرجع إليه في جميع الأحوال عند الحاجة إليه، ولا يكلفه ذلك الحمل مئونة ولا مشقة.

والكتابة خلاف ذلك فإنها غالبًا ما تكون دون فهم

ونظير ذلك حاسة السمع عند الأعمى، فإنها أقوى منها بكثير عند البصير؛ لأن الأول لما فقد بصره استعمل سمعه في إدراك أشياء كثيرة كان يميزها بالبصر لو كان بصيرًا، فقوي عنده السمع، وكذلك نجد حواس الحيوانات من شم وسمع وبصر أقوى منها في الإنسان بمراحل؛ لأنها تعتمد على هذه الحواس في حياتها أكثر من اعتماد الإنسان عليها.

ولقد ساعد العرب على تقوية ملكة الحفظ عندهم طبيعة جوههم وبساطة معيشتهم، وحادثة ذكائهم، وقوة فهمهم لما يحدث بينهم، وسعة خبرتهم بأساليب لسانهم وطرق بيانهم.

هذه حالة العرب في جاهليتهم، فما بالك بالصحابة رضي الله عنهم الذين قيضهم الله لحفظ الشرع وصيائته وحمله وتبليغه لمن بعدهم، وملاً قلوبهم بالإيمان والتقوى والرهبنة والخوف من أن يبلغوا من بعدهم شيئًا من أحكام الدين على خلاف ما سمعوا ورأوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذين حصلت لهم بركة صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعلموا له وتخرجوا على يديه، واستنارت قلوبهم بنوره وتأدبوا بأدبه واهتدوا بهديه واستنوا بسنته، ودعا لهم بالحفظ والعلم والفقهاء.

وقريب من الصحابة في هذا المقام من اجتمع بهم، وشاهد أحوالهم، واتبع خطاهم، واقتفى آثارهم من التابعين، كل ذلك يكاد ينفي عن سامع الحديث من أحدهم توهم خطأ، أو نسيان، أو تبديل، أو اختلاق.

والأخبار التي تدل على قوة الحفظ عند العرب كثيرة يعلمها الخاصة والعامة، ولقد كان كثير من الصحابة والتابعين مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك، كابن عباس والشعبي والزهري والنخعي وقتادة، فكان

١. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، مكتبة التوعوية، القاهرة، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، (١/ ٢٩٦).

أما قولهم: إن الصحابة كانوا - لخوفهم مغبة الكذب على رسول الله ﷺ - يغضون الطرف عن بعض الأحاديث خوفاً من أن يُغَيَّرُوا فيها شيئاً - فهو قول غريب مردود من جهتين:

الأولى: أن تخرُجَ قليل من الصحابة من رواية أحاديث النبي ﷺ كان أمراً خاصاً بهم وليس قاعدة عامة تشمل كل الصحابة، كما أن هذا التخرُج كان ناتجاً عن تحريم الشديد ودقتهم الكبيرة في تحري كل لفظ يسمعون من النبي ﷺ، ولم يكن هذا التخرُج لأنهم كانوا ينسون أقواله ﷺ.

الثانية: أن الصحابة ﷺ كانوا على علم بأن النبي ﷺ قال: "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"^(٣)، وقال أيضاً: "وحدّثوا عني ولا حرج"^(٤)، وقال: "نصّر الله امرأً سمع مني حديثاً، فحفظه حتى يبلغه، فربّ مبلغ أحفظ من سامع"^(٥).

وإلى أي شيء استند الزاعمون في أن أصحاب رسول الله ﷺ أخذوا بالحديث الأول، ولم يأخذوا بالثاني أو الثالث؟ ثم إن لفظة "متعمداً" تجعل أخذهم بالحديث الأول غير مانع لهم من الرواية؛ لأنه

المعنى عاجلاً وآجلاً، أو سبباً في عدم الفهم في الحال اعتماداً على ما سوف يُفهم فيما بعد، وقد تضيع عليه الفرصة في المستقبل لضيق المكتوب، أو عدم وجوده معه عند الحاجة إليه، أو عدم وجود من يفهمه المكتوب ويشرحه له، ثم إن الكاتب لا يجد في الغالب باعثاً يدعو إلى مراجعة ما كتبه، كما أنه يجد مشقة في حمل المكتوب معه في كل مكان وكل وقت^(١).

وإن قيل: إن حافظات الناس قد تضعف فينسون ما حفظوا ويضيع بعضه، قلنا: إذا سلمنا جدلاً - رغم ما في ذلك من مغالطة ظاهرة وردت الأدلة بخلافها - بأن السنة لم تدوّن إلا على رأس المائة الثانية على يد الإمام الزهري بأمر من عمر بن عبد العزيز^(٢)، اتضح لنا أن المتهمين بضيق السنة هم الصحابة والتابعون؛ ذلك أن ابن شهاب الزهري من التابعين (٥١: ١٢٤هـ)، والصحابة هم الذين تصدوا للوضايع منذ فتنة قتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ، مخرجين كل دخيل على السنة مكذوب على النبي ﷺ، معتمدين في ذلك على حفظهم للسنة في المقام الأول، وسار التابعون على دربهم في ذلك فكانوا أحفظ الناس وأوعاهم لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَالسَّيِّفُونَ

الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٣) (التوبة).

٣. صحيح البخاري (شرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: إثم من كذب على النبي ﷺ، (١/ ٢٤٢)، رقم (١٠٧). صحيح مسلم (شرح النووي)، المقدمة، باب: تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، (١/ ١٦٩).

٤. صحيح مسلم (شرح النووي)، كتاب: الزهد والرقائق، باب: الثبوت في الحديث وحكم كتابة العلم، (٩/ ٤٠٨٩)، رقم (٧٣٧٥).

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود، (٦/ ٩٦)، رقم (٤١٥٧). وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

١. الرد على شبهات من ينكر حجية السنة، د. عبد الغني محمد عبد الخالق، مرجع سابق، ص ٤٣٦: ٤٣٩ بتصرف.

٢. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، دار السلام، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ص ١٩٧.

لقد سار التابعون على درب الصحابة في الحفاظ على السنة وبلغوها تابعيهم حتى وصلت إلينا نقية سليمة من التحريف كاملة لا يشوبها نقص.



الشبهة التاسعة

دعوى ضياع خمسمائة خطبة نبوية* (*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض الطاعنين أن السنة النبوية لم تُجمع كلها في كتب السنة، بل ضاع كثير منها إما عمدًا وإما سهوًا، ويستدلون على ذلك بأن خطب الجمعة التي خطبها النبي ﷺ في المدينة بعد الهجرة، والتي تبلغ نحو خمسمائة خطبة، لم تصل إلينا؛ لأنها لم تدوّن في كتب السنة، وسبب عدم تدوينها أن مضامينها كانت تتعارض مع نظام الحكم في الدولة العباسية، فحال الحكم دون كتابتها بإرهاب رواة الحديث. رامين من وراء ذلك إلى التشكيك في جمع السنة، وأن حفظها بالكتابة والتدوين كان عملاً انتقائيًا يخضع لأهواء السلطة الحاكمة وما كانت تسعى إلى تكريسه من مبادئ في الحياة السياسية الإسلامية.

وجهاً إبطال الشبهة:

(١) إذا كانت خطبه ﷺ لم تدوّن ولم تصل إلينا، فمن

اشترط التعمد، ومن تعمد الكذب على رسول الله ﷺ يخرج من زمرة الصحابة إن لم يخرج من زمرة المسلمين عامة.

وعليه فقد وصلت السنة من الصحابة إلى التابعين نقية كاملة، فعرض التابعون عليها بالنواجذ، وهكذا حتى وصلت إلينا كاملة بعدما دوّنت في أسفار كثيرة[®].

الخلاصة:

• إن الكتابة ليست من لوازم الحفظ، كما أنها ليست مانعة من التحريف، فالسنة لم تدون بشكل عام إلا على رأس المائة الثانية، ووصلت إلينا نقية، بعكس التوراة والإنجيل فقد كتبا مبكرًا لكنها لم يسلمتا من التحريف.

• ليس في تأخر تدوين السنة دليل على ضياعها؛ لقرب المدة وقصر السند في ذلك الوقت؛ إذ لم يكن فيه سوى راوٍ واحد أو اثنين، كما عند مالك في الموطأ الذي فيه ما بين مالك والصحابي رجل واحد كناع - مولى ابن عمر - وأحيانًا غيره.

• إن الصحابة كانوا أحفظ خلق الله لسنة نبيه ﷺ وذلك لسببين:

الأول: قوة حفظهم التي هي من فطرتهم العربية النقية حتى ضربت بهم الأمثال في ذلك.

الثاني: حرصهم على قواعد دينهم، وتبليغ سنة نبيهم ﷺ.

(*) مجلة روز اليوسف، بتاريخ ١٠ / ٤ / ١٩٩٩ م. الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية، د. عبد العظيم محمد المطعني، مرجع سابق. دفع الشبهات عن السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، مرجع سابق.

® في "قدرة العرب على حفظ ما يسمعون" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها). وفي "العوامل التي ساعدت على حفظ السنة ونقلها" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة، من هذا الجزء.

أين إذن عرفوا أن عدم تدوينها كان بسبب مناقضتها لنُظْم الحكم السائدة في عصر التدوين؟! ثم إن كثيراً من خطبه ﷺ كانت عبارة عن سور من القرآن فلا تحتاج إلى تدوين.

(٢) لقد شمل التدوين خطب النبي ﷺ منذ جُمعت السنة في مطلع القرن الثاني الهجري، سواء المكتوب منها أو المحفوظ في صدور الرواة والحفاظ، ونجدها الآن ماثورة في كتب التراث المختلفة، وكذلك فقد جمعها بعض علماء العصر الحديث في كتب مستقلة مما يدل على تدوينها، ووصولها إلينا، خلافاً لما زعمه المشككون.

التفصيل:

أولاً. افتراء مفضوح يقوّم على غير أساس أو دليل:

إذا كان هؤلاء الطاعنون يدّعون أن خطب النبي ﷺ لم تدوّن، ولم تصل إلينا، فكيف إذن اطلعوا عليها وقطعوا بأنها لم تدوّن بسبب تناقض مضامينها مع نُظْم الحكم التي كانت سائدة في عصر التدوين؟! يقول د. عبد العظيم المطعني ردّاً على هذه الفرية: "إن الطريق الوحيد لمعرفةنا بسنة النبي ﷺ هو التدوين والرواية، فما دُوّنَ فيها هو المعروف عندنا، ولا طريق لنا لمعرفة ما لم يُدوّن إن كان لم يُدوّن منها شيء.

هذه حقيقة لا ينكرها أحد، ولا منكرو السنة أنفسهم، فمن أين إذن عرفوا أن سبب استبعاد خطب النبي ﷺ هو أن تلك الخطب كانت تتناقض مع نُظْم الحكم التي كانت سائدة في عصر التدوين؟

وإذا سلمنا لكم جدلاً بأن هذه الخطب لم تُدوّن، يعني حُجبت بألفاظها ومعانيها عن رؤية النور فنريد

منكم أن توضحوا لنا من أين، وعلى أي أساس حكمتكم على الخطب التي لم تدون بأنها كانت تناهض نُظْم الحكم؟

هل اطلعتم عليها؟ إن كنتم اطلعتم عليها في الوقت الحاضر فهي إذن مُدوّنة فتسقط بذلك دعواكم هذه، وإن لم تكونوا قد اطلعتم عليها، فهل أنتم تعلمون الغيب، لذلك وصفتم بالستكم ما لم تره أعينكم، ولم تسمعه آذانكم؟!

ثم إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، هذه قاعدة من قواعد العقل المسلّمة عند كل العقلاء.

فإمّا أن تقرّوا بتدوين هذه الخطب فيسقط أصل دعواكم، وإمّا أن تقرّوا بعدم اطلاعكم عليها فيسقط سبب دعواكم، فماذا أنتم قائلون^(١)؟

ولا شك أن خطب النبي ﷺ وصلت إلينا عن طريق التدوين، ولكن الذي جعلهم يقولون بذلك أنهم قد فهموا أن الرسول ﷺ مثل خطباء العصر، يرقى المنبر فلا تقل مدة الخطبة الواحدة عن نصف ساعة، وقد تستغرق ساعة كاملة، ولمّا لم يجدوا هذا النوع في كتب الحديث وغيرها، قالوا: إن خطبه ﷺ أضاعها التدوين الموجه لأسباب سياسية.

لكن الحقيقة أن خطبه ﷺ كانت عبارة عن عدة جمل، تعطي الجملة الواحدة معنى مستقلاً في الكثير الغالب، وربما أعطت جملتان أو ثلاث المعنى، فلم يكن النبي ﷺ يطيل الخطبة، وهو القائل: "إن طول صلاة الرجل، وقصر خطبته مئنة^(٢) من فقهه، فأطيلوا الصلاة،

١. الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية، د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، مرجع سابق، ص ٨٧، ٨٨ بتصرف.
٢. المئنة: العلامة.

من القرآن الكريم، فخطب بسورة "ق" وسورة "ص"، وتكرر هذا في عدد من خطبه ﷺ، فعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: "ما حفظت "ق" إلا من في^(٥) رسول الله ﷺ يخطب بها كل جمعة"^(٦).

فإذا سجلت من الخطبة شيئاً فلن تسجل إلا سورة "ق"، وسورة "ق" معروفة ومحفوظة. كما أن الصحابة قد اقتدوا به ﷺ في هذا، فقد روي عن عمر بن الخطاب أنه خطب يوماً في الناس فلم يقرأ إلا سورة النحل وعندما بلغ قول الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل) نزل من على المنبر وسجد، ثم خطب مرة أخرى في يوم الجمعة فلم يقرأ إلا سورة النحل أيضاً، وعندما بلغ موضع السجود لم يسجد هذه المرة، ولما سُئل عن هذا قال: لم نؤمر بالسجود^(٧). ومثل هذه الخطب ما هي إلا سور قرآنية كما ترى، لذلك لم يدونها الرواة في كتب الحديث.

ثم إننا نتساءل: هل منَعَ الحكام الرواة من تدوين خطب النبي ﷺ التي تناهض حكمهم، وتركوهم يدونون الأحاديث التي تنادي بالوقوف في وجه الحكام إذا حادوا عن الطريق المستقيم، وتبين أن الخلافة النبوية ستؤول إلى ملك عضوض يناقض ما جاء به القرآن، وأنه يجب التمسك بالدين ومقاومة هؤلاء الحكام؛ ومن ذلك قوله ﷺ: "سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب،

٥. الفي: الفم.

٦. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، (٤/ ١٤٤٨)، رقم (١٩٨١).
٧. أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، كتاب: الحيز، باب: من لم ير وجوب سجود التلاوة، (٢/ ٣٢١)، رقم (٣٥٧٣).

وأقصروا الخطبة، وإن من البيان سحراً"^(١).

وعن جابر بن سمرة قال: "كان رسول الله ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة، إنما هن كلمات يسيرات"^(٢). قال ابن قيم الجوزية: "وعلى ذلك كان قصر الخطبة علامة على فقه الرجل؛ لأن الفقيه هو المطلع على جوامع الألفاظ فيتمكن بذلك من التعبير باللفظ المختصر عن المعاني الكثيرة"^(٣).

وكان الصحابة يسمعون خطبته ﷺ فيحفظونها، لكنهم لا يتحدثون بها كاملة، ولا يتعاملون معها كوحدة واحدة، وإنما يهتمون بما تفيده من معانٍ، ومن هنا يهتمون بالجملة أو بالجزء التي تفيده معنى مستقلاً فيذكرونها في مناسبتها^(٤).

إن اهتمام الصحابة كان منصباً على كلامه ﷺ؛ ومركزاً على أصول الدين بأوجز عبارة، وبأقل الكلمات، وهكذا شاعت خطبه ﷺ في كتب السنة إما على صورتها كخطب، وإما بعباراتها وجمالها، وخطبة النبي ﷺ في حجة الوداع توضح ذلك.

وفضلاً عما تقدم؛ فإن معظم خطبه ﷺ كانت من القرآن الكريم، فعندما كان يقوم للخطبة كان يتلو آيات

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، (٤/ ١٤٤٧)، رقم (١٩٧٦).

٢. حسن: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: الجمعة، باب: إقصار الخطب، (٣/ ٣٢٠)، رقم (١١٠٣). وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (١١٠٧).

٣. عون المعبود شرح سنن أبي داود مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية، شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، (٣/ ٣٢٠).

٤. دفع الشبهات عن السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، مرجع سابق، ص ٦٨ بتصرف.

للبيهقي، والبداية والنهاية لابن كثير، وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصالحى، وغيرها من كتب السيرة.

٣. كتب السنة: اشتملت على كثير من خطبه ﷺ، نذكر منها:

- صحيح البخاري في كتاب الجمعة، والعديد والكسوف، وبدء الخلق، والمناقب، والحج، والصلاة، وفضائل القرآن.

- صحيح مسلم في كتاب الصيام، والجمعة، والإمارة.

- سنن أبي داود في كتاب: الديات، والمناسك، واللباس.

- سنن النسائي في كتاب: الحج، والجهاد.

- سنن ابن ماجه في المقدمة، باب رقم ٦، ٧.

- مسند أحمد، ومستدرك الحاكم، وصحيح ابن حبان، ومسند أبي يعلى، ومعجم الطبراني.

- ٤. كتاب "مجمع الزوائد" لنور الدين الهيتمي.

- ٥. جامع الأصول لابن الأثير.

هذه بعض المصادر التي يمكن الرجوع إليها للاستزادة من خطبه ﷺ وإلا فهناك كثير من المصادر التي حوت خطبه ﷺ^(٣).

الثانية: لقد وفق الله العاملين في حقل السنة النبوية فقاموا بجمع خطبه ﷺ، ودراستها دراسة واعية، ومن هذه الكتب الحديثة التي اهتمت بها ما يأتي:

١. "إنحاف الأنام بخطب رسول الإسلام" للشيخ محمد خليل الخطيب، وجمع فيه (٥٧٤) خطبة مع ذكر

٣. انظر: دفع الشبهات عن السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر، مرجع سابق، ص ٧١: ٧٤.

ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله"^(١).

وقوله ﷺ: "إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برء، ومن أنكروا فقد سلم، ولكن من رضي وتابع، قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا ما صلُّوا"^(٢)، وغير ذلك من الأحاديث التي تتحدث عن الحكم ووجوب التصدي لجور الحكام الطغاة.

ثانياً. تدوين خطب النبي ﷺ:

لقد دُوت خطب النبي ﷺ مع ما دُوّن من السنة، وأُفرد لها بعض المعاصرين كتباً مستقلة، فليس من المعقول أن تدوّن السنة كلها وتترك خطب النبي ﷺ دون تدوين، والدليل على ذلك وجود هذه الخطب بين أيدينا في صورتين:

الأولى: تدوين خطب النبي ﷺ تدويناً مفرقاً ومبثوثاً في كتب الحديث والسيرة والتاريخ، وبعض كتب الإعجاز القرآني، وهذا هو المصدر الأول للوقوف على خطبه ﷺ، ومن هذه الكتب:

١. إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاقي المتوفى ٤٠٣هـ، وقد ذكر فيه عددًا من خطبه ﷺ.

٢. كتب السيرة النبوية: جاء فيها عدد من خطبه ﷺ مثل: السيرة النبوية لابن هشام، ودلائل النبوة

١. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب: معرفة الصحابة ﷺ، باب: ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب، (٢/ ١٣٠)، رقم (٤٨٨٤). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٧٤).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: وجوب الإنكار على الأمراء فيما خالفوا الشرع، (٧/ ٢٩٢٠)، رقم (٤٧١٩).

فإذا كان هذا هو واقع خطبه ﷺ الذي نلمسه بأيدينا في هذه الكتب، وقد جمع كتاب واحد منها (٥٧٤) خطبة للنبي ﷺ، فكيف يزعم هؤلاء أن الـ (٥٠٠) خطبة التي خطبها النبي ﷺ ضاعت ولم تدوّن؟!

الخلاصة:

• إذا كانت خطب النبي ﷺ لم تدوّن ولم تصل إلينا، فمن أين عرف هؤلاء الزاعمون أن عدم تدوينها يرجع إلى أن مضامينها كانت تتعارض مع طبيعة نُظْم الحكم السائدة في عصر التدوين؟!

• إن النبي ﷺ في خطبه لم يكن - في الغالب - مثل خطباء ذلك العصر، ممن تستغرق الخطبة الواحدة من خطبهم نصف ساعة، أو ساعة كاملة، وإنما كانت كلمات قليلات وذلك لأن الله قد آتاه جوامع الكلم.

• كان الصحابة يحفظون خطبه، لكنهم لا يتعاملون معها كوحدة واحدة، وإنما يستخدمون الجمل القليلة التي تفيد معنىً مستقلًا في مناسبتها، فوردت إلينا كذلك.

• لقد شاعت خطبه ﷺ في كتب السنة إما على صورتها كخطب، وإما بعباراتها وجملها.

• إن معظم خطبه ﷺ كانت آيات من القرآن، فإذا دونها الرواة لم يدونوا إلا سورًا من القرآن، وهو موجود بينهم.

• كان ﷺ يكرر خطبه في كثير من الأحيان؛ وليس من المعقول أن تدون الخطبة الواحدة أكثر من مرة.

• لقد شمل التدوين خطب النبي ﷺ منذ جُمعت السنة في مطلع القرن الثاني الهجري، وهي موجودة الآن على صورتين:

مصادرهما وشرح غريبها، والكتاب مطبوع وشائع بين الناس.

٢. "جامع الأصول من خطب الرسول ﷺ" لإبراهيم محمد الجمل.

٣. "صفة خطبة النبي ﷺ" لعمر عبد المنعم سليم.

٤. "الدين الخالص" لمحمود خطاب السبكي، وجمع فيه كثيرًا من خطبه ﷺ.

٥. "إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين" لابن طولون، وفيه قدر لا بأس به من خطبه ﷺ.

٦. "خطب الرسول ﷺ" للدكتور عمر القطيطي التونسي، وهي رسالة علمية جامعية، حرص فيها الباحث الكريم على جمع تلك الخطب، وتوثيقها توثيقًا علميًا ببيان المراجع التي ذُكرت، وتحقيقها وتبويبها تبويبًا فنيًا منتظمًا، ثم أعد لها دراسة فقهية وبلاغية لم يسبقه إليها أحد، وتقع تلك الدراسة في أكثر من ستين ومائتي صفحة من القطع المتوسط، ولم يقتصر الباحث على جمع خطب الجمعة، بل شمل عمله الخطب التي قالها رسول الله ﷺ في المناسبات المختلفة؛ كالعيدين، والخسوف، والكسوف وغيرها.

فإذا كان هذا الباحث قد ذكر المصادر التي وردت فيها هذه الخطب، فكيف يزعم المغرضون أنها لم تُدوّن؟ وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف قد ذكر أمارات للتمييز بين الخطب والأحاديث النبوية المجردة، ومنها: "يا أيها الناس، وكان على المنبر، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: كان رسول الله ﷺ يخطب، كان على الصفا، كان على القصواء... إلخ" (١).

١. الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية، د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، مرجع سابق، ص ٨٩ بتصرف.

لكونها ليست من أقوال النبي ﷺ بسبب ما دخلها من وضع وتغيير.

وجها إبطال الشبهة:

(١) لم يظهر الوضع في الحديث النبوي في حياة النبي ﷺ، وإنما كانت بداية ظهوره بعد اندلاع الفتنة في آخر حياة سيدنا عثمان بن عفان ؓ، وانقسام الأمة وتفرقها بعد وفاته، وظهور المذاهب المختلفة.

(٢) إن حديث "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" لم يرد ما يثبت أن سبب قوله هو الكذب على النبي ﷺ في حياته، وإنما قاله حين أمرهم بتبليغ حديثه إلى من بعدهم.

التفصيل:

أولاً. بداية الوضع في الحديث كانت بعد ظهور الفتنة:

لقد حذر النبي ﷺ من الكذب عليه، فقال ﷺ: "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"^(١)؛ لذا يستحيل أن يكون الوضع بدأ في حياة النبي ﷺ، ولكن المتفق عليه أن الوضع في الحديث بدأ في أواخر عصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؓ، وذلك حينما وقعت الفتنة التي أدت إلى استشهاده ؓ، وبدأ ظهور فرق الشيعة والخوارج وغيرهم، تلك الفتنة التي أشعل فتيلها أقوامٌ من الحاقدين على الإسلام، ويعتبر بعضهم أن سنة أربعين من الهجرة هي الحد الفاصل بين صفاء السنة وخلوصها من الكذب والوضع، وبين التزيّد

١. صحيح البخاري (شرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: إثم من كذب على النبي ﷺ، (١/ ٢٤٢)، رقم (١٠٧). صحيح مسلم (شرح النووي)، المقدمة، باب: تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، (١/ ١٦٩).

الأولى: خطب مبثوثة في كتب الحديث والسيرة والتاريخ، وبعض كتب الإعجاز القرآني.

الثانية: خطب قام بعض العلماء حديثاً بجمعها في كتب مستقلة، كما فعل محمد خليل؛ إذ جمع في كتابه (٥٧٤) خطبة نبوية، وذكر مصدر كل خطبة منها، وكذلك د. محمد القطيطي التونسي الذي جمع خطب النبي ﷺ وقام بدراسة وافية.

• إذا كانت خطبه ﷺ موجودة، وجمعها العلماء قديماً وحديثاً كما ذكرنا، وذكروا المصادر التي دونتها، فإن هذه الدعوى ساقطة إذن؛ إذ لا دليل على ثبوت ما ادعاه أصحابها، فضلاً عن صحته.



الشبهة العاشرة

دعوى أن الوضع في الحديث بدأ في عهد النبي ﷺ (*).

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض المشككين أن الوضع في الحديث بدأ في عهد النبي ﷺ وهو حي بين أظهر أصحابه، مستدلين على ذلك بأنه لما كُثر الكذب على النبي ﷺ في زمنه خطب في الناس قائلاً: "أيها الناس، قد كثرت عليّ الكذابة، ألا من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار".

هادفين من وراء ذلك إلى التشكيك في السنة النبوية

(*). الحديث النبوي ومكانته في الفكر الإسلامي الحديث، د. محمد حمزة، مرجع سابق. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق.

مقعه من النار"^(٣). وهذا الحديث أخرجه ابن الجوزي من طرق، والطحاوي من طريقين بأسانيد إلى علي بن مسهر عن صالح بن حيّان عن عبد الله بن بريدة عن أبيه بلفظه الذي ذكرناه سابقاً.

وأما حديث ابن الزبير، فقد أورده ابن الجوزي بسنده إلى المعافى بن زكريا قال: حدثنا محمد بن هارون أبو حامد الحضرمي قال: حدثنا السري بن يزيد الخراساني قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن علي الفزاري قال: حدثنا داود بن الزبرقان قال: أخبرني عطاء بن السائب عن عبد الله بن الزبير قال يوماً لأصحابه: أتدرون ما تأويل هذا الحديث: "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعه من النار". قال: وساق القصة بنحوها^(٤).
وبإمعان النظر في سندي الحديث يظهر لنا ما يأتي:

أما الحديث الأول (حديث بريدة): فمدار طريقه كلها على صالح بن حيّان، وهو المتفرّد به، وصالح بن حيّان قد اتفق الأئمة على تجريجه ولم يؤثّق، قال فيه البخاري في التاريخ الكبير والتاريخ الصغير: فيه نظر، والبخاري إذا قال في رجل: "فيه نظر" فقد اتهمه ولا تحل الرواية عنه؛ لأنها من الألفاظ المستعملة في الرمي بالوضع عنده. وقال النسائي: ليس بثقة. وقال ابن معين: ضعيف الحديث. وقال ابن حيّان: يروي عن الثقات أشياء لا تشبه حديث الأثبات، ولا يعجبني الاحتجاج به إذا لم يوافق الثقات. وقال ابن عدي: عامة

فيها واتخاذها وسيلة لخدمة الأغراض السياسية والانقسامات الداخلية، بعد أن اتخذ الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما شكلاً حربياً سالت به دماء وأزهقت فيه أرواح، وبعد أن انقسم المسلمون إلى طوائف متعددة^(١).

وربما اعتبر بعضهم بدأ قبل ذلك في الفتنة التي كانت زمن عثمان رضي الله عنه، ويدل عليه كلام ابن سيرين، والذي أخرجه مسلم بسنده إلى ابن سيرين قال: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سمّوا لنا رجالكم، فيُنظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، ويُنظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم"^(٢).

أما من زعم أن الوضع بدأ في زمن النبوة فرعمه مردود لضعف الحديث الذي استدلوا به؛ إذ جاء من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه وابن الزبير.

فقد رواه عن أبيه، قال: "جاء رجل إلى قوم في جانب المدينة، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أحكم برأيي فيكم في كذا، وفي كذا، وقد كان خطب امرأة منهم في الجاهلية فأبوا أن يزوّجوه، فذهب حتى نزل على المرأة، فبعث القوم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: كذب عدو الله، ثم أرسل رجلاً، فقال: إن أنت وجدته حيّاً فاضرب عنقه، وما أراك تجده حيّاً، وإن وجدته ميتاً فحرقه، فانطلق الرجل فوجده قد لدغ فمات فحرقه، فعند ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ

٣. شرح مشكل الآثار، الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م، (١/ ٣٥٣).

٤. الموضوعات، ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م، (١/ ٥٦).

١. عدالة الصحابة رضي الله عنهم في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ودفع الشبهات، د. عماد السيد الشرييني، مكتبة الإيمان، القاهرة، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م، ص ٤٤، ٤٥، بتصرف.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: بيان أن الإسناد من الدين، (١/ ١٧٣).

ما يرويه غير محفوظ.

تلك الحقة.

وقد يُعترض على هذا بأن الحديث يتقوى بمجموع طرقه فيصلح للاحتجاج، لكن الجواب على ذلك بأن الطرق يمكن أن تتقوى لو كان الضعف محتملاً، أما وقد انفرد في كل طريق راوٍ متهم فحديثه لا ينجبر ولا يتقوى، بل إن مجموع الطرق على هذا الشأن تزيد الحديث نكارة^(٣).

ومما سبق يتبين لنا أن القول بأن الوضع في الحديث بدأ ظهوره في عهد النبوة - قول متهافت مردود، وإنما كان ظهور الوضع في الحديث في أعقاب الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وقد بلغ الأمر أشده في نهاية القرن الأول الهجري. يقول د. محمد عجاج الخطيب: "بقي الحديث النبوي صافياً لا يعتريه الكذب، ولا يتناوله التحريف والتلفيق طوال اجتماع كلمة الأمة على الخلفاء الراشدين قبل أن تنقسم إلى شيع وأحزاب، وقبل أن يندس في صفوفها أهل المصالح والأهواء"^(٤). ويرى د. عمر فلاتة أن الوضع في الحديث والكذب على رسول الله ﷺ يمكن تحديده بالثلث الأخير من القرن الأول الهجري، ويرى أن ثمة أموراً تفتشت في الأمة عقب اختلافها وتمزقها يمكن اعتبارها توطئة وتمهيداً لهذه الجريمة البشعة النكراء التي انتهكت حرمة رسول الله ﷺ بالتقول عليه، والإخبار عنه بما لم يقل أو يفعل.

وقد ذكر من هذه الأمور: انتهاك حرمة أصحاب

وهكذا علماء الجرح والتعديل مجمعون على ضعف صالح بن حيّان، وقد حكموا عليه بالترك و النكارة، ومن المعلوم أن من كان هذا حديثه فلا يعتبر ولا يتقوى؛ لأن راويه مُتَّهَم، وهذا طعن في عدالة الراوي، وقد تفرد، ولم يُتَّاع.

وأما حديث السري بن يزيد الخراساني ومحمد بن علي الفزاري أبي جعفر: فأغلب الظن أنه لم يرد ذكرهما في كتب التراجم والرجال.

وأما داود بن الزبيرقان: فقد قال فيه أبو حاتم الرازي: ضعيف الحديث، ذاهب الحديث^(١). وقال ابن معين: حديثه ليس بشيء. وقال النسائي: ليس بثقة. وقال الأزدي: متروك الحديث. وقال أبو داود: تُرك حديثه. وقال الجوزجاني: كذاب. وقال أبو زرعة: متروك. وقال ابن حبان: عندي صدوق فيما وافق الثقات إلا أنه لا يُحتجُّ به إذا انفرد. وقال المديني (شيخ البخاري): كتبت عنه ورميت حديثه. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يُتَّاع عليه^(٢).

وإذا علمنا ما كان عليه داود من ضعف، وأضفنا إلى ذلك جهالة بقية الإسناد، كان هذا كافياً لرد حديثه وعدم قبوله.

وعلى هذا فالحديث ضعيف لا يصلح للاعتبار فضلاً عن الاحتجاج به، ومن هنا لا يصلح أن يكون دليلاً في إثبات وقوع الكذب في عهده ﷺ، ولا يمكن أن يكون دليلاً على إثبات وقوع الوضع في الحديث في

٣. الوضع في الحديث، د. عمر بن حسن عثمان فلاتة، مؤسسة

مناهل العرفان، بيروت، د. ت، (١ / ١٨٥ : ١٨٨) بتصرف.

٤. السنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب، مرجع سابق،

١. الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، مرجع سابق، (٣ / ٤١٢،

٢. ميزان الاعتدال، الذهبي، مرجع سابق، (٢ / ٧، ٨).

يطالبون بحقهم في الخلافة، ويشقون عصا الطاعة على الدولة الأموية، وهكذا كانت الأحداث السياسية سبباً في انقسام المسلمين إلى شيع وأحزاب.

ومما يؤسف له أن هذا الانقسام اتخذ شكلاً دينياً كان له أبلغ الأثر في قيام المذاهب الدينية في الإسلام، فقد حاول كل حزب أن يؤيد موقفه بالقرآن والسنة، فعمل بعض الأحزاب على أن يتأولوا القرآن على غير حقيقته، وأن يحمّلوا نصوص السنة ما لا تتحمّله من معانٍ ودلالات، وأن يضع بعضهم على الرسول ﷺ أحاديث تؤيد دعواهم، بعد أن عزّ عليهم مثل ذلك في القرآن الكريم لحفظه، وتوفّر المسلمين على روايته وتلاوته، ومن هنا كان وضع الحديث واختلاط الصحيح منه بالموضوع.

وأول معنى طرّقه الوضعيون في الحديث هو: فضائل الأشخاص، فقد وضعوا الأحاديث الكثيرة في فضل أئمتهم ورؤساء أحزابهم، ويقال: إن أول من فعل ذلك الشيعة على اختلاف طوائفهم^(٣)، ولقد كان من نتيجة ذلك أن ظهرت معظم الأحاديث الموضوعية في العراق، حيث قامت أكثر الفتن والحوادث، حتى سُميت (دار الضرب)، أي التي تُضرب فيها الأحاديث كما تضرب الدراهم، حتى قال مالك: "أنزلوا أحاديث أهل العراق منزلة أحاديث أهل الكتاب، لا تصدقوهم، ولا تكذبوهم"^(٤). وقال ابن

رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين، وذلك بعيبهم وإظهار ذلك في الناس، كما عيب على عثمان ﷺ بعض أفعاله، وعلى علي ﷺ مسألة التحكيم.

ومن هنا تفرق المسلمين الذي كان من نتائج الفتنة، ويشير كذلك إلى دور ابن سبأ في بث النظريات الفاسدة والأفكار الغريبة، كإثبات الرجعة للرسول ﷺ، وقوله بوصية عليّ ﷺ، وأنه استودع تسعة أمثال القرآن، وأنه إله، إلى غير ذلك من الآراء^(١).

وعليه يمكننا أن نؤرخ لبدايات الوضع في الحديث النبوي بحدوث الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان، فقد دخل أصحاب الأهواء عبر ذلك التشردم والاختلاف إلى الكذب في الحديث لتأييد أهوائهم^(٢).

فقد كانت سنة أربعين من الهجرة هي الحد الفاصل بين صفاء السنة وخلوصها من الكذب والوضع، وبين التزيد فيها واتخاذها وسيلة لخدمة الأغراض السياسية والانقسامات الداخلية.

وخاصة بعد أن اتخذ الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما شكلاً حربياً، سالت به دماء، وأزهقت فيه أرواح، وبعد أن انقسم المسلمون إلى طوائف متعددة، فالجمهور مع عليّ في خلافه مع معاوية، والخوارج ينقسمون على عليّ ومعاوية معاً، بعد أن كانوا من شيعة الإمام علي المتحمسين له ولآل البيت، وفريق منهم أخذوا بعد قتل الإمام علي ﷺ وخلافة معاوية

٣. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي،

مرجع سابق، ص ٧٩.

٤. قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، محمد جمال الدين القاسمي، دار العقيدة، مصر، ط ١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م، ص ٣٨٧.

١. انظر: الوضع في الحديث، د. عمر بن حسن عثمان فلاتة،

مرجع سابق، (١/ ٢٠٨: ٢١٤).

٢. الوضع في الحديث النبوي، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط ١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م، ص ١٩، ٢٠.

عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"^(٤)، وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"^(٥)، وروى أحمد في مسنده عن أبي قتادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: "إياكم وكثرة الحديث عني، ومن قال عليّ فلا يقولن إلا حقاً أو صدقاً، فمن قال عليّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار"^(٦).

وظاهر من هذه الروايات أن النبي ﷺ وقد علم أن الإسلام سينتشر، سيدخل فيه أقوام من أجناس مختلفة، نبه بصورة قاطعة على وجوب التحري في الحديث عنه، وتجنب الكذب عليه بما لم يقله، ووجه الخطاب في ذلك إلى صحابته لأنهم هم المبلغون إلى أمته من بعده، وهم شهداء نبوته ورسالته، وليس في هذه الروايات إشارة قط إلى أن هذا الحديث إنما قيل لوقوع كذب علي رسول الله ﷺ.

فالتاريخ قاطع بأنه لم يقع في حياة الرسول ﷺ أن أحداً ممن أسلم وصحبه زور عليه كلاماً ورواه على أنه حديث عن النبي ﷺ، ولو وقع مثل هذا لتوافر الصحابة على نقله لشناعته وفضاعته، وقد كان حرصهم شديداً

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، (٦/ ٥٧٢)، رقم (٣٤٦١).

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، (١/ ١٦٩).

٦. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث أبي قتادة الأنصاري ﷺ، رقم (٢٢٥٩١). وحسن إسناده شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

شهاب: "يخرج الحديث من عندنا شبراً فيعود في العراق ذراعاً"^(١)، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "إن من أهل العراق قوماً يكذبون ويكذبون ويسخرون"^(٢).

وهكذا رأينا أن الوضع في الحديث النبوي لم يظهر إلا بعد استشهاد عثمان بن عفان ﷺ، وتفرق المسلمين إلى أحزاب وشيع سياسية وفكرية؛ إذ أراد كل حزب سياسي أو فكري أن يتصر لمذهبه، فهان عليهم أن يضعوا أحاديث، ونسبوا إلى رسول الله ﷺ، ولكن الصحابة ومن بعدهم التابعين أدركوا هذا الخطر العظيم، فأخذوا في الثبوت والتحري لما يُنسب لرسول الله ﷺ.

ثانياً. حديث "من كذب عليّ متعمداً" لم يرد ما يثبت أن سبب قوله هو وقوع الكذب على النبي ﷺ:

إن حديث "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"^(٣) لم يرد ما يثبت أن سبب قوله هو وقوع الكذب على النبي ﷺ في ذلك الوقت، وإنما انفقت كتب السنة الصحيحة المعتمدة على أن الرسول ﷺ إنما قاله حين أمرهم بتبليغ حديثه إلى من بعدهم، فقد روى البخاري عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب

١. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (٥/ ٣٤٤).

٢. الكامل في ضعفاء الرجال، ابن عدي الجرجاني، مرجع سابق، (١/ ٥٦).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: إثم من كذب على النبي ﷺ، (١/ ٢٤٢)، رقم (١٠٧). صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، (١/ ١٦٩).

حياته ﷺ[®].

الخلاصة:

• إن المقطوع بصحته أن الوضع في الحديث النبوي لم يظهر في عهد النبي ﷺ، إذ لا يُعقل أن يُكذب على النبي ﷺ وهو حيٌّ مؤيد بالوحي، إذ لو ثبت ذلك لبيته الوحي، وإنما كانت بداية ظهوره بعد حدوث الفتنة بين المسلمين في أواخر عهد عثمان بن عفان.

• لقد كان لظهور الفرق مثل الشيعة والخوارج وغيرهم أثر كبير في ظهور الوضع في الحديث، إذ عملت كل فرقة على وضع أحاديث تؤيد موقفها، وتنال بها من الآخرين.

• أما من ذهب إلى أن بداية الوضع كانت في عهد النبي ﷺ، فزعمه مردود؛ لأن دليله ضعيف لا يصلح للاحتجاج كما بينا.

• إن الصحيح أن بداية الوضع كانت بعد حدوث الفتنة أي في سنة أربعين من الهجرة، وهو الرأي الذي عليه جمهور الأمة والمقبول عقلاً أيضاً.

• قوله ﷺ: "أياها الناس، قد كثرت عليّ الكذابة" ضعيف لا يصلح للاحتجاج به لضعف روايته، وأما

® في "براءة الصحابة من الكذب على رسول الله" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها). وفي "تثبت الصحابة في قبول الحديث لا يعني تكذيب بعضهم بعضاً" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من هذا الجزء. وفي "براءة أبي هريرة من الكذب على النبي فيما يخص علياً" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثالث (أبو هريرة). وفي "نفي الكذب عن عبد الله بن سلام" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة السادسة عشرة، من الجزء الثالث (أبو هريرة). وفي "أسباب رد بعض الصحابة روايات بعضهم الآخر" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الخامسة، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة).

على أن ينقلوا لنا كل ما يتصل به ﷺ حتى مشيه، وعوده، ونومه، ولباسه، وعدد الشعرات البيض في رأسه الشريف^(١).

ويؤكد هذا د. عدنان زرزور قائلاً: لقد حذّر رسول الله ﷺ من الكذب عليه والتقول على لسانه، فقال ﷺ في الحديث الصحيح: "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار".

ولم يكن هذا الوعيد الشديد من رسول الله ﷺ - للذي يتعمد الكذب عليه - بسبب أن أحداً كذب على النبي في عهده أو حال حياته ﷺ؛ لأن العاقل لا يكذب على الأحياء، ولأن الوحي الذي كان ينزل لطالما فضح المنافقين في آيات كثيرة، ولكن النبي ﷺ حذّر من الكذب عليه في المستقبل، أو فيما يستقبل من الزمان، حماية للشريعة ولأحكام الإسلام من العبث ومن التحريف والتبديل^(٢).

أما الشطر الأول من حديث: "أياها الناس، قد كثرت عليّ الكذابة، ألا من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" فموضوع، لأنه لم يرد في كتب السنة المعتمدة، ولكن الحديث الصحيح يقول: "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" وهذا الحديث متفق على صحته في جميع كتب الحديث، إذ بلغ حد التواتر.

وهذا يتبين أنه لا دليل على أن النبي ﷺ قال حديث: "من كذب علي...؟" بسبب وقوع الكذب عليه في

١. الحديث النبوي ومكانته في الفكر الإسلامي الحديث، د. محمد حمزة، مرجع سابق، ص ١٣٤.

٢. مدخل إلى القرآن والحديث، د. عدنان محمد زرزور، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ص ٣٢٥.

٢) نشأة المذاهب الفقهية والاختلاف بينها أدى إلى أن يبذل أئمة كل مذهب جهدهم لتوثيق ما عندهم من الأحاديث، ومناقشة مخالفاتهم، وهو ما أسفر عن حركة هائلة في توثيق الحديث، بل أمر هؤلاء الأئمة أتباعهم بنبذ كل قول يخالف سنة النبي ﷺ، مما ينفي أن يضع أتباع هذه المذاهب أحاديث تؤيد مذهبهم.

التفصيل:

أولاً. توثيق علماء الجرح والتعديل لمدوني الحديث التدوين الرسمي من التابعين وتابعيهم، والحكم بأمانتهم وعدالتهم:

كانت السنة تدون في حياة النبي ﷺ، وفي عصر الصحابة، قبل الانقسامات المذهبية، وظهور المذاهب الفقهية، فلما ظهرت الانقسامات المذهبية في عهد التابعين كان علماءهم متيقظين لأي دخيل في السنة، فمن جاءهم بحديث لا يعرفونه قالوا: سموا لنا رجالكم، وكانت هذه أعظم قاعدة يعرف بها حال الحديث، وعليها سار علماء هذه الأمة فيما بعد.

فلما كان عصر التدوين الرسمي (عصر أتباع التابعين) وكُل التدوين إلى أعيانهم وعلمائهم ممن لا خلاف عليهم ديناً وخلقاً وعلماً، وممن أُنفق على عدالتهم، ولم يُبار أحد في أمانتهم، وقد كانوا على درجة عالية من الدقة والموضوعية في كل ما يدونونه من أحاديث ثبتت نسبتها للنبي ﷺ، فإذا لم يكن الحديث صحيحاً بينوا علة ضعفه بأمانة.

• ويأتي في مقدمة هؤلاء المدونين الإمام ابن شهاب الزهري (ت: ١٢٣ أو ١٢٤هـ) قال عنه الدرروردي فيما يرويه عنه محمد بن الحسن بن زباله:

الصحيح فإن رسول الله ﷺ قال: "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" حين أمر أصحابه بتبليغ حديثه إلى من بعدهم، لا بسبب حادثة كُذِب فيها على النبي ﷺ في حياته.



الشبهة الحادية عشرة

اتهم مدوني الحديث بالوضع فيه (*)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض الطاعنين أن الحديث النبوي أصابه الوضع والاختلاق من قِبَل مدونيه، كل حسب هواه وانتائه المذهبي. ويستدلون على هذا بأن بداية التدوين الرسمي للحديث كانت مزمنة لتكوّن الفرق الكلامية والمذاهب الفقهية، مما حدا بكل مدون مؤيد لفرقة أو مُتمم لمذهب أن يخلق الأحاديث التي تؤيد انتماؤه وتشايع مذهبه، وينسبها للنبي ﷺ زوراً. هادفين إلى الطعن في نزاهة مدوني السنة وعدالتهم؛ بغية التشكيك في مدى خلوص السنة وتمايم نسبتها للنبي ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) تواترت الأخبار على تعديل وتوثيق أول من دونوا السنة التدوين الرسمي في عصر عمر بن عبد العزيز وبعده، بما يستحيل معه تواطؤهم على الوضع في سنة النبي ﷺ والكذب عليه ﷺ.

(*) رد السهام الموجهة إلى السنة في العصر الحديث من خلال جهود الإمام محمد رشيد رضا في خدمة السنة، د. يوسف عبد المقصود إبراهيم، دار التوعية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

الحافظ، شيخ الإسلام معمر بن راشد (ت: ١٥٣ هـ) الذي كان من أوعية العلم، مع الصدق والتحري، والورع والجلالة، وحسن التصنيف. قال عنه أحمد بن عبد الله العجلي: "مَعْمَرٌ ثِقَةٌ، رَجُلٌ صَالِحٌ بَصْرِيٌّ". وقال عنه عبد الرزاق: "ما نعلم أحدًا عَفَّ عن هذا المال إلا الثوري ومعمرًا"^(٧).

• ويأتي في مقدمة مدوني الحديث كذلك إمام أهل الشام في زمانه في الحديث والفقاه الإمام أبو عمرو الأوزاعي (ت: ١٥٧ هـ). وللأوزاعي رحمه الله عند علماء الجرح والتعديل مكانة عالية مرموقة، نذكر منها ما يلي:

قال عنه عمرو بن عبد الرحمن بن مهدي: "الأئمة في الحديث أربعة الأوزاعي، ومالك، وسفيان الثوري، وحماد بن زيد". وقال أبو عبيد عن عبد الرحمن بن مهدي: "ما كان بالشام أحدًا أعلم بالسنة من الأوزاعي". وقال عنه أبو حاتم: "إمام مُتَّبِعٌ لما سمع". ويقول عنه محمد بن سعد: "كان ثقة مأمونًا صدوقًا فاضلاً خيراً كثير الحديث والعلم والفقاه"^(٨).

• ولقد كان من أوائل مدوني الحديث في الكوفة، شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه أبو عبد الله سفيان الثوري (ت: ١٦١ هـ)، ونظرًا لمكانته العظيمة عند علماء الجرح والتعديل، ترجم له الإمام الذهبي ترجمة واسعة، وإليك بعض ما قاله علماء الجرح والتعديل فيه:

قال عنه شعبة، وابن عيينة، وأبو عاصم، ويحيى بن

"أَوَّلُ مَنْ دَوَّنَ الْعِلْمَ وَكَتَبَهُ ابْنُ شَهَابٍ". ويقول سفيان: "كان الزهري أعلم أهل المدينة"^(١). ويقول عنه الإمام أحمد بن حنبل: "الزهري أحسن الناس حديثًا، وأجود الناس إسنادًا"^(٢). وقال عنه قتادة: "ما بقي أحدٌ أعلم بسنة ماضية من ابن شهاب، وقال مكحول مثل ذلك"^(٣). وقال عنه ابن حجر أيضًا: "الفقيه الحافظ متفق على جلالته وإتقانه وتثبته"^(٤).

وهكذا تضافرت روايات الأئمة والحفاظ وعلماء الجرح والتعديل على توثيقه وأمانته وجلالة قدره، ونبه في أعين المحدثين^(٥) بما لا يدع مجالًا للشك في الأحاديث التي رواها، أو جمعها.

• وقد جاء بعد عصر الزهري الإمام العلامة الحافظ ابن جريج (ت: ١٥٠ هـ)، ليكمل مسيرة التدوين، وقد شهد له علماء الجرح والتعديل بالصدق والتحري؛ يقول عنه يحيى بن سعيد: "كنا نسمي كتب ابن جريج كتب الأمانة، وإن لم يحدثك ابن جريج من كتابه لم تنتفع به". ويقول عنه أيضًا: "كان ابن جريج صدوقًا". وقال عبد الرزاق: "كنت إذا رأيت ابن جريج علمت أنه يخشى الله"^(٦).

• وكان في مقدمة المدونين للحديث باليمن الإمام

١. تاريخ دمشق، ابن عساكر، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م، (٥٥ / ٣٣٤).

٢. المرجع السابق، (٥٥ / ٣٣٨).

٣. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (٥ / ٣٣٦).

٤. تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، ص ٨٩٦.

٥. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ١٩٩، ٢٠٠.

٦. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (٦ / ٣٢٨: ٣٣٢).

٧. المرجع السابق، (٧ / ٥: ١١).

٨. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ المزي، مرجع سابق،

(١٧ / ٣٠٨: ٣١٥).

• ثم يأتي بعد ذلك في مقدمة مدوني الحديث بخراسان ومرو أحد الأئمة الأعلام وحفاظ الإسلام، الإمام عبد الله بن المبارك (ت: ١٨١هـ). قال عنه الإمام يحيى بن معين: "كان عبد الله بن المبارك كَيْسًا مستثبِتًا ثقة، وكان عالماً صحيح الحديث". وقال عنه محمد بن سعد: "كان ثقةً، مأمونًا، إمامًا، حجة، كثير الحديث" (٤).

• وكان أيضًا من أوائل مدوني الحديث بواسطة الإمام هشيم بن بشير (ت: ١٨٣هـ). قال عنه حماد بن زيد: "ما رأيت في المحدثين أنبل من هشيم". وقال عنه أحمد بن حنبل: "ليس أحد أصح حديثًا عن حُصين من هشيم". وقال عنه سليمان بن إسحاق الجلاب: "كان حفاظ الحديث أربعة، كان هشيم شيخهم، كان هشيم يحفظ هذه الأحاديث، يعني المقطوعة، حفظًا عجبًا" (٥).

• ولقد كان الإمام جرير بن عبد الحميد من أوائل من دونوا الحديث بالري (ت: ١٨٨هـ)، قال عنه النسائي: "ثقة". وقال عنه عبد الرحمن بن يوسف بن خراش: "صدوق". وقال عنه أبو القاسم اللالكائي: "مجمع على ثقته" (٦).

• وأخيرًا وليس آخرًا نختم بأول من دون الحديث بمصر وهو الإمام عبد الله بن وهب بن منبه (ت: ١٩٧هـ). قال عنه أحمد بن حنبل: "عبد الله بن وهب صحيح الحديث... ما أصح حديثه وأثبتته". وقال أبو حاتم بن حبان: "جمع ابن وهب وصنّف، وقد حفظ على أهل الحجاز ومصر حديثهم، وعني بجميع

معين، وغيرهم: "سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث". وقال عنه المثني بن الصباح: "سفيان عالم الأمة وعابدها". وقال عنه بشر الحافي: "كان الثوري عندنا إمام الناس". وقال أيضًا: "سفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانها". وقال أحمد بن حنبل: "قال لي ابن عيينة: لن ترى بعينيك مثل سفيان الثوري حتى تموت" (١).

• ثم يأتي بعد ذلك الإمام القدوة، شيخ الإسلام، حماد بن سلمة (ت: ١٦٧هـ)، في مقدمة مدوني الحديث بالبصرة، قال فيه يحيى بن معين: "حماد بن سلمة ثقة". وقال أحمد بن حنبل: "حماد بن سلمة عندنا من الثقات، ما نزداد فيه كل يوم إلا بصيرة". وروي أن حماد بن سلمة كان مجاب الدعوة، وقد مات وهو يصلي في المسجد (٢). وكان كذلك من أوائل مدوني الحديث إمام دار الهجرة، الإمام مالك بن أنس (ت: ١٧٩هـ) الذي دون الحديث بالمدينة المنورة، وهو أشهر من أن يعرف، فهو صاحب المذهب المشهور بـ "المالكي". قال عنه محمد بن سعد: "كان مالك ثقة، مأمونًا، ثبتًا، ورعًا، فقيهاً، عالمًا، حجة". وقال علي بن المديني: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: "كان وهيب لا يعدل بهالك أحدًا". وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: "قلت لأبي: من أثبت أصحاب الزهري؟ قال: مالك أثبت في كل شيء" (٣).

١. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (٧/ ٣٢٩: ٣٣٩).

٢. المرجع السابق، (٧/ ٤٤٤: ٤٥١).

٣. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ المزي، مرجع سابق (٢٧/ ١١٥).

٤. المرجع السابق، (٢٧/ ١٢٠).

٥. السابق، (٣٠/ ٢٨٠: ٢٨٤).

٦. السابق، (٤/ ٥٥٠).

غاية جهدهم في توثيق ما عندهم من الأحاديث، ومناقشة مخالفاتهم، وقد تمخضت هذه الجهود عن نشأة حركة هائلة في توثيق الحديث، وخاض غمارها الأحناف والشافعي وأصحاب مالك، وأما الإمام أحمد فإنه كان من أكثرهم حرصاً على اتباع السنة، ومعلوم دفاعه عنها، كما وقف الإمام الشافعي في وجه من ينكرون حجيتها، بدعوى أنها غير موثقة، حتى يتاح للفقهاء أن يعملوا بها دون منازع^(٢).

ومن المفيد أن نسوق بعضاً من أقوال هؤلاء الأئمة في ترك تقليدهم، والمحافظة على اتباع السنة، حماية لها، حتى لا يضعوا في نصرة مذهبهم قولاً لا سنة فيه.

• يقول أبو حنيفة: "إذا صح الحديث فهو مذهبي"^(٣)، وقال: "لا يجزى لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه"^(٤)، وقال: "إذا قلت قولاً يخالف كتاب الله تعالى وخبر الرسول ﷺ فاتركوا قولي"^(٥).

• ويقول الإمام مالك بن أنس رحمه الله: "إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه"^(٦).

٢. توثيق السنة، د. رفعت فوزي، مرجع سابق، ص ٦٦ بتصرف.

٣. حاشية رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، (١ / ٧٢).

٤. أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٣م، (٢ / ٢١١).

٥. إيقاظ الهمم، القلاني، نقلاً عن: صفة صلاة النبي ﷺ، الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط ٢، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص ٤٨.

٦. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، مرجع سابق، (١ / ٧٧٥).

ما رووا من المسانيد والمقاطع، وكان من العبّاد"^(١).

هكذا رأينا أوائل من دوّنوا الحديث في جميع الأمصار الإسلامية، وكيف أن علماء الجرح والتعديل، والأئمة والحفاظ قد اجتمعوا على توثيقهم وأمانتهم وجلالة قدرهم ونبلهم في أعين المحدثين، فهل بعد هذا يحقّ لمدعٍ أن يصممهم باختلاق الأحاديث، ونسبتها زوراً إلى النبي ﷺ؟! ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة) ١٩!

ثانياً. عناية المذاهب الفقهية بتوثيق السنة، ومنع أئمتها من الغلوفي أقوالهم وتقليدهم:

كانت نشأة المذاهب أو المدارس الفقهية متأخرة عن ظهور المذاهب السياسية، فلم يكن للمذاهب الفقهية ظهور واضح إلا بعد التدوين الرسمي للسنة، فلا يمكن أن يقال إن هذه المذاهب هي السبب في وضع أتباعها للحديث انتصاراً لمذهبها، أو تأييداً لها، وخاصة أن أصحاب هذه المذاهب كانوا أكثر حرصاً على تحري السنة الصحيحة، وأبعد الناس عن الضعيف والموضوع، بل ثبت عنهم أنهم أمروا باتباع السنة متى ثبتت، وترك أقوالهم، بل والحكم على أنفسهم بذهاب العقل إذا ثبت أنهم أفتوا بخلاف السنة.

فكان من دوافع توثيق السنة ظهور هذه المذاهب والاختلاف بينها، مما أدى إلى أن يبذل أئمة كل مذهب

١. السابق، (١٦ / ٢٧٤ : ٢٨٥).

® في "جهود الصحابة في حفظ السنة وتدوينها وعنايتهم بجمعها وتوثيقها" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الأولى، والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة عشرة، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها)، والوجه الثاني، من الشبهة السادسة، والوجه الثاني، من الشبهة السابعة، من هذا الجزء، والوجه الأول، من الشبهة الأولى، من الجزء السابع (الإسناد والمتن).

تلك هي أقوال الأئمة أصحاب المذاهب في الأمر بالتمسك بالحديث والنهي عن تقليدهم دون بصيرة، مما يعني حفاظهم الشديد على السنة، وهذا ما حدا ببعض أتباع هذه المذاهب ترك بعض أقوال أئمتهم اتباعاً للسنة؛ لأنهم وجدوا ما ظهر لهم مخالفة للسنة، فقد ثبت أن الإمامين محمد بن الحسن وأبا يوسف رحمهما الله تعالى قد خالفا شيخهما أبا حنيفة في نحو ثلث المذهب، وكتب الفروع كفيلاً ببيان ذلك.

ونحو هذا يقال في الإمام المزني وغيره من أتباع الشافعي وأتباع غيره^(١٠).

وهذا يدل دلالة واضحة على أن ظهور هذه المذاهب كان من حسناته أن وثقت السنة، وتحري أتباع هذه المذاهب الصحيح منها، ونبذوا الضعيف وهجره، وليس كما زعم المشككون أن ظهور هذه المذاهب كان مدعاة للوضع في السنة[®].

الخلاصة:

• إن الأئمة الحفاظ وعلماء الجرح والتعديل قد

١٠. صفة صلاة النبي ﷺ، الألباني، مرجع سابق، ص ٤٥: ٥٦ بتصرف.

® في "أمر النبي باتباع السنة والتحذير من مخالفتها" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الأولى، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها). وفي "الاحتكام عند الاختلاف يكون للقرآن والسنة قبل إعمال العقل" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الخامسة، والوجه الأول، من الشبهة الخامسة والعشرين، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها). وفي "اعتماد الفقهاء جميعاً السنة مصدراً ثانياً للتشريع" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الحادية والثلاثين، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها). وفي "مكانة أئمة الفقه ودورهم في الدفاع عن السنة" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الحادية والثلاثين، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها).

ويقول أيضاً: "ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ"^(١١).

• ويقول الإمام الشافعي رحمه الله: "إذا صح الحديث فهو مذهبي"^(١٢). وقال: "إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ، ودعوا ما قلت"، وفي رواية: "فاتبعوها، ولا تلتفتوا إلى قول أحد"^(١٣). وقال: "كل مسألة صحَّ فيها الخبر عن رسول الله ﷺ عند أهل النقل بخلاف ما قلت، فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي"^(١٤). وقال: "إذا رأيتموني أقول قولاً قد صحَّ عن النبي ﷺ خلافه، فاعلموا أن عقلي قد ذهب"^(١٥). ويقول أيضاً: "كل ما قلت، فكان عن النبي ﷺ خلاف قولي مما يصح، فحديث النبي ﷺ أولى، فلا تقلدوني"^(١٦).

• ويقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: "لا تقلدني، ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا"^(١٧). وقال: "لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء، ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به، ثم التابعين بعد، الرجل فيه نخير"^(١٨). وقال: "من رد حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة"^(١٩).

١. المرجع السابق، (٢/ ٩٢٥).
٢. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (١٠/ ٣٥).
٣. المرجع السابق، (١٠/ ٣٤).
٤. أعلام الموقعين، ابن القيم، مرجع سابق، (٢/ ٢٨٥).
٥. المرجع السابق، (٤/ ٢٣٣).
٦. تاريخ دمشق، ابن عساکر، مرجع سابق، (٥١/ ٣٨٦).
٧. أعلام الموقعين، ابن القيم، مرجع سابق، (٢/ ٢٠١).
٨. مسائل الإمام أحمد، أبو داود، نقلاً عن: صفة صلاة النبي ﷺ، الألباني، مرجع سابق، ص ٥٣.
٩. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (١١/ ٢٩٧).

الشبهة الثانية عشرة

دعوى أن خلفاء بني أمية كانوا وراء وضع الأحاديث(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المغرضين أن أمراء بني أمية وضعوا أحاديث سياسية ودينية تقوي وجودهم في الحكم، فها هو معاوية بن أبي سفيان - مؤسس الدولة الأموية - يسبُّ علياً ابن عم رسول الله ﷺ وأصحابه، وأوصى أتباعه بذلك، كما أوصاهم باضطهاد أحاديث أصحاب عليٍّ ﷺ، بل إنه زاد درجة في المنبر، وخطب الجمعة قاعداً، ووضع رجاء بن حيوة لهم حديثاً يثبت أن النبي ﷺ والخلفاء كانوا يخاطبون جلوساً، ثم إن الخلفاء الأمويين جعلوا خطبة العيد مُقدَّمة على الصلاة على خلاف سنة النبي ﷺ في ذلك. كما استغل عبد الملك بن مروان الإمام الزهري في وضع أحاديث كثيرة، فوضع له حديث "لا تُشدُّ الرحال... ليجعل الناس يحجُّون إلى قبة الصخرة التي بناها بدلا من الكعبة، ولم يأب الزهري لقربه من البيت الأموي، واعترف بوضعه الحديث لهم فقال: "إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة أحاديث"، بل إنه كان مريباً لأبنائهم فأجاز هؤلاء الأبناء بأحاديث كتبوها.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) إن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما صحابي

(*) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق. قصة الهجوم على السنة، د. علي أحمد السالوس، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م. حجية السنة ورد الشبهات التي أثرت حولها، الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية، د. ت. .

اجتمعوا على توثيق مدوني الحديث التدوين الرسمي والحكم بأمانتهم وجلالة قدرهم ونبلهم، وإن إطلالة سريعة في سير هؤلاء المدوِّنين الحفاظ النبلاء لتجعل موقفنا أكثر شفافية ونحن ننفي عنهم أن يكون من بينهم وضاع، أو مختلق كاذب على النبي ﷺ، حاشاهم وهم ما بين فقيه حافظ مُتَّفَق على جلالته وإتقانه وتثبته، كالزهري، وصدوق يخشى الله ﷻ كابن جريج، وثقة صالح كمعمر، ومأمون صدوق فاضل خير كثير الحديث والعلم والفقهِ ملقب بأمر المؤمنين في الحديث كسفيان الثوري، إلى آخر هذه القائمة من الأعلام الأثبات الثقات الذين دوَّن الحديث على أيديهم تدويناً رسمياً.

• لقد كانت نشأة المذاهب الفقهية متأخرة عن التدوين الرسمي للسنة النبوية، فلا يمكن أن يقال: إن المذاهب هي السبب في وضع أتباعها للحديث انتصاراً لمذهبها.

• إن الأئمة أصحاب هذه المذاهب كانوا أكثر حرصاً على تحريّ السنة الصحيحة، وأبعد الناس عن الاعتماد على الضعيف والموضوع، بل ثبت عنهم أنهم أمروا باتباع السنة متى ثبتت، وترك أقوالهم، بل والحكم على أنفسهم بذهاب العقل إذا ثبت أنهم أفتوا بخلاف السنة النبوية.



وكان معاوية رضي الله عنه من العالمين بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أوتر بركعة واحدة، فأخبر ابن عباس بذلك فقال: "أصاب، أي بُنيّ ليس أحد منا أعلم من معاوية، هي واحدة أو خمس أو سبع إلى أكثر من ذلك الوتر ما شاء" (٢).

ولعلمه الكبير بالسنة فقد روى عنه كثير من الصحابة والتابعين، فمن الصحابة رضي الله عنهم: ابن عباس، وجري بن عبد الله، وأبو سعيد، والنعمان بن بشير رضي الله عنهم، ومن التابعين: سعيد بن المسيب، وأبو صالح السمان، وعروة بن الزبير، وهمام بن منبه، ومحمد بن سيرين، وغيرهم كثير، كما حدّث هو عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن أخته أم حبيبة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم، وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما (٣). ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "اللهم علّم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب" (٤).

هذا هو معاوية بن أبي سفيان الذي يطعنون فيه ويتهمونه بوضع الأحاديث على النبي صلى الله عليه وسلم، مستدلين على ذلك برواية مكذوبة وخبر مقلوب، يقولون فيه: إن معاوية رضي الله عنه أوصى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قائلاً: "لا تهمل في أن تُسبَّ عليّاً، وأن تطلب الرحمة لعثمان، وأن تُسبَّ أصحاب علي، وأن تضطهد من أحاديثهم، وعلى الضد من هذا أن تمدح أصحاب عثمان، وأن تقرّبهم وتسمع إليهم".

٢. أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، كتاب: الحيض، باب: الوتر بركعة واحدة ومن أجاز أن يصلي ركعة واحدة، (٣/ ٢٦)، رقم (٤٥٧٢).

٣. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (٣/ ١١٩).
٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث العرياض بن سارية، رقم (١٧١٩٢). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢٢٧).

جليل صحّت الأخبار في فضله، وما اتّهم به من سبّه لعلي رضي الله عنه، أو حثّ أصحابه على ذلك باطل لا يقوى في ميزان النقد الحديثي، والصحيح أن معاوية أمر بإقصاء أصحاب علي لا اضطهاد حديثهم.

(٢) إن زيادة الأمويين درجة في المنبر، وتقديمهم خطبة العيد على الصلاة، وخطبتهم الجمعة جلوساً - لا يعد ذلك دليلاً على وضعهم للأحاديث على النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم لم يستدلوا بأحاديث تؤيد فعلهم، وإنما اعترفوا بأن ذلك مخالف للسنة ولكنه لضرورة.

(٣) إن صلة الزهري بالأمويين صلة الناصح للخليفة أو الأمير، وهذا ما يبرر وجوده في حاشيتهم، أما حديث "لا تشد الرحال" فقد روته كل كتب السنة من طريق الزهري وغيره، فهو في أعلى درجات التواتر، أما قوله: "أكرهونا على كتابة أحاديث"، ففيه تحريف متعمّد، والصواب أنه يقصد تدوين الأحاديث لا وضعها على النبي صلى الله عليه وسلم.

التفصيل:

أولاً. فضل معاوية رضي الله عنه، وبطلان ما نسب إليه من سبّ لعلي وأصحابه سنداً وامتناً:

إن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه صحابي جليل، وأحد كتبة الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم وخال المؤمنين وأميرهم، ملك الإسلام الأول، ومن الذين وعدهم الله الحسنی في قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَكْثَرَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ (الحديد)، وقد أسلم رضي الله عنه وقت عمرة القضاء (١).

١. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (٣/ ١٥١، ١٥٢) بتصرف.

يحيى بن معين: ليس بثقة^(٣)، وقال الدارقطني: إخباري ضعيف^(٤)، وقال ابن عدي: شيعي محترق صاحب أخبارهم^(٥).

ومجالد بن سعيد ضعيف عند الجمهور، قال ابن معين وغيره: لا يُحتجُّ به، وقال الدارقطني: ضعيف^(٦).
وفضيل بن خديج قال عنه أبو حاتم: مجهول، روى عنه رجل متروك الحديث^(٧).

فهذا السند فيه من فيه من الضعفاء والمتروكين، ومدار الخبر على أبي مخنف هذا الشيعي الكذاب، فكيف نأخذ مثل هذه الروايات للطعن على هؤلاء الأصحاب؟

فإذا علمت هذا فاعلم أن متن هذه القصة وإيهاً؛ لأنه يخالف ما علم من احترام معاوية لعلي، وإجلاله إياه، وأن المانع من ذلك عدة أمور:

الأول: أنه كان مُعَظِّمًا له، معترفًا له بالفضل والسبق إلى الإسلام، دلنا على ذلك قول ابن كثير: "قد ورد من غير وجه أن أبا مسلم الخولاني وجماعة معه دخلوا على معاوية فقالوا له: هل تنازع عليًا أم أنت مثله؟ فقال: والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل، وأحق بالأمر مني"^(٨)، وعن جرير بن عبد الحميد عن المغيرة قال: "لما جاء خبر قتل علي إلى معاوية جعل يبكي، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدريين

انظر إلى هذا الدليل "معاوية يقول لأحد أتباعه أو أمرائه: اضطهد أصحاب علي، وقرب إليك أصحاب عثمان، فأبي شيء في هذا يدل - إذا فرضنا صحة ذلك - على وضع الأحاديث؟ وأين نجد قول معاوية للمغيرة؛ لا تهمل في أن تضع الأحاديث على علي، وأن تضع الأحاديث في عثمان؟"

إن أصل العبارة كما رواها الطبري: "لا تحجم عن شتم علي وذريته، والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب على أصحاب علي والإقصاء لهم، وترك الاستماع منهم، وإطراء شيعة عثمان، والإدناء إليهم والاستماع منهم"^(٩).

فانظر كيف حرّف المشككون - على فرض صحة هذه الرواية - لفظ "والإقصاء لهم" إلى لفظ "وتضطهد من أحاديثهم"، فإن كلمة "أحاديث" لا وجود لها في النص الأصلي^(١٠).

بطلان هذه الرواية:

إن هذه الرواية التي أوردها الطبري في تاريخه "لا تحجم عن شتم علي وذريته... باطلة سندًا ومنتأ؛ فأما السند فإنها جاءت من طريق هشام بن محمد، عن أبي مخنف، عن مجالد بن سعيد، والصَّقْعَب بن زهير، وفضيل بن خديج، والحسن بن عقبة المراني.

فأما أبو مخنف فهو لوط بن يحيى الكوفي، روى عن صقعب بن زهير، ومجالد بن سعيد، وجابر الجعفي، قال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال

١. تاريخ الأمم والملوك، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ، (٣/ ٢١٨).

٢. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ١٩٣.

٣. الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، مرجع سابق، (٧/ ١٨٢).

٤. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (٧/ ٣٠٢).

٥. ميزان الاعتدال، الذهبي، مرجع سابق، (٣/ ٤٢٠).

٦. المرجع السابق، (٣/ ٤٣٨).

٧. الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، مرجع سابق، (٧/ ٧٢).

٨. البداية والنهاية، ابن كثير، دار التقوى، القاهرة، ٢٠٠٤م،

(٤/ ٦١٤).

ما فقد الناس من الفضل والفقہ والعلم"^(١).

فهل يسوغ في عقل ودين أن يسبَّ معاوية علياً، بل ويحمل الناس على سبِّه، وهو يعتقد فيه هذا.

الثاني: لا يُعرف بنقل صحيح عن معاوية رضي الله عنه تعرضه لعلي رضي الله عنه بسب أو شتم أثناء حربه له في حياته، فهل من المعقول أن يسبه بعد انتهاء حربه معه ووفاته؟! **الثالث:** أن معاوية بن سفيان رضي الله عنه انفرد بالخلافة بعد تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما له واجتمعت عليه الكلمة ودانت له الأمصار بالملك، فأني نفع له في سبِّ علي؟ إذ الحكمة تقتضي عدم ذلك.

الرابع: أنه بعد استقلال معاوية بالخلافة كان بينه وبين أبناء علي رضي الله عنه من الألفة والتقارب ما سطرته كتب السيرة والتاريخ؛ ومن ذلك أن الحسن والحسين وفدا على معاوية فأجازهما بهاتني ألف، ودخل الحسن على معاوية فقال له: "مرحباً وأهلاً بابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر له بثلاثمائة ألف"^(٢).

فهذا واقع يشهد بكذب هذه الرواية وهذه الدعوى التي تدَّعي أن معاوية حمل الناس على سبِّ علي رضي الله عنه.

ثانياً. الأمويون لم يضعوا أحاديث تؤيد زيادة درجة في المنبر، وتقديم خطبة العيد، وخطبة الجمعة جلوساً:

• درجات المنبر:

جاء في الصحيح أن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم كان مسقوفاً

١. المرجع السابق، (٤/ ٦٢١).

٢. السابق، (٤/ ٦١٥).

® في "حقيقة دعاء النبي على معاوية" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة والثلاثين، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة). وفي "مناقب معاوية بن أبي سفيان" طالع: الشبهة السادسة والعشرين، من الجزء الخامس (الأئمة والرواة).

على جذوع من نخل، وكان النبي إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنِع له المنبر وكان عليه، سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار^(٣).

وذكر ابن سعد أن المنبر كان سنة سبع، وأن ابن النجار جزم أنه كان سنة ثمان، كما ذكر آراء في أنه كان درجتين أو ثلاث، يجلس الرسول على الثالثة ويضع رجله على الثانية، فلما ولي أبو بكر كان يجلس على الثانية ويضع رجله على الدرجة السفلى، وجاء عمر فجلس على الأولى، ووضع رجله على الأرض، ولما جاء عثمان فعل ذلك ست سنوات ثم علا إلى موضع النبي صلى الله عليه وسلم فلما ولي معاوية جعل للمنبر ست درجات زيادة على الثلاثة^(٤)، ولما قدم المهدي الخليفة العباسي إلى المدينة استشار الإمام مالكاً أن يعيده إلى ما كان عليه أيام الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يوافق، وكان ذلك سنة ١٦٠هـ. واحترق المسجد سنة ٦٥٤هـ واشتركت مصر في تعميره. وفي عهد الملك الظاهر بيبرس البندقداري كملت عمارة المسجد، ومن بعده الناصر قلاوون، وأرسل الظاهر منبراً عدد درجاته تسع^(٥)، كما أرسل من بعده منابر أخرى^(٦).

كما بنى أهل المدينة منبراً من الآجر والنورة بسبب

٣. انظر: صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، (٦/ ٦٩٦)، رقم (٣٥٨٥).

٤. ذكر ابن حجر أن المنبر لم يزل على حاله ثلاث درجات حتى زاده مروان في خلافة معاوية ست درجات من أسفله. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٢/ ٤٦٣).

٥. المرجع السابق، (٢/ ٤٦٣).

٦. انظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، محمد الزرقاني، (١/ ٣٧١).

كان رسول الله ﷺ يقف بجانب جذع النخل، اتخذ منبراً من ثلاث درجات، حيث تزايد الناس في المسجد، واحتاج الأمر إلى مكان عالٍ ليسمع البعيد كما يسمع القريب، فما الذي يمنع من زيادة الدرجات على هذا إذا اتسع المسجد أكثر من ذلك؟ وزاد الناس فيه عما كانوا عليه في حياة الرسول ﷺ؟ لا شيء يمنع من هذا لا ديناً ولا شرعاً ولا تقى ولا ورعاً، هذا هو ما فعله معاوية حين زاد درجات المنبر^(٢).

وعليه فلا غرو أن يزيد معاوية ﷺ درجة في درجات المنبر النبوي، وقد كان كثير من الصحابة شهود هذا الفعل، ولم ينكر عليه أحدهم، وهم من هم في تقواهم وورعهم وجرأتهم في الحق.

ثم ليست ثمة علاقة بين زيادة معاوية درجة في المنبر وبين الوضع في الحديث النبوي، فكيف يُتخذ زيادته هذه دليلاً على اتهامه بالوضع؟ هل استدل معاوية ﷺ بحديث وضعه يؤيده فيما فعله؟ لم يثبت أنه فعل ذلك أو استدل بحديث، أو أباح الكذب على رسول الله ﷺ.

• الجلوس في الخطبة الثانية:

أمّا الجلوس في الخطبة الثانية في الجمعة فهو تغيير في شكل العبادة حقاً، ولكن فعله معاوية من غير تعمّد، بل اضطر له حين كثر شحمه ولحمه، فلم يعد يستطيع الوقوف كثيراً، قال الشعبي: "أول من خطب جالساً معاوية ﷺ، وذلك حين كبر وكثر شحمه وعظم بطنه"^(٣)، وقد لقي من إنكار علماء الأمة في ذلك الوقت

حريق بالمسجد حتى سنة ٦٨٨ هـ فبنى الأشرف قايتباي منبراً من الرخام، وتوالى التغيير على مدى الأزمان، ولم يعد للمنبر النبوي ذي الدرجات الثلاث أثر، واستمر الناس يخطبون على المنابر الجديدة، ولم ينكر عليهم أحد.

إن أصل اتخاذ المنبر كان لظهور الخطيب أمام الناس، وكلما ارتفع أمكن أن يسمع صوته بوضوح، وظهرت في مصر وغيرها منابر عالية في مساجد واسعة يجتمع فيها الآلاف الذين لا يكاد البعيد منهم عن المنبر يسمع من يتحدث، وكان يخطب عليها كبار الشيوخ والعلماء، ومنبر مسجد الأزهر نفسه له درجات كثيرة، وما سمعنا مثل الصيحة في السنوات الأخيرة التي ترمي المنابر العالية بأنها بدعة، وبالتالي ضلالة، مع أنه لم يرد نهي عنها، وليست من العبادات التي يتقرب بها إلى الله^(١).

وإذا كان رفع المنابر لإبلاغ الصوت هو الوسيلة الوحيدة في الماضي فإن مكبرات الصوت أغنت عن ذلك، وليس أثر المنبر في السامعين، وفي تبليغ الدعوة مرتبطاً بعدد درجاته بقدر ارتباطه بصحة المعلومات والحكمة في إيصالها للسامعين.

يقول د. السباعي: "وها هم الملوك والرؤساء يجددون المساجد ويزيدون فيها وينقصون، ويتخذون من الحيلة لأنفسهم عند الذهاب إلى الصلاة ما يدفع عنهم خطراً متوهماً أو متوقّعاً، فلماذا لا يعتبر عمل هؤلاء تزييداً في الدين، وانحرافاً عنه؟!

إن المنبر غيّر على عهد الرسول ﷺ في حياته، فبعد أن

١. المنبر النبوي، عطية صقر، موقع موسوعة الفتاوى، مايو ١٩٧٣ م.

٢. السنة ومكائنها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ٢١٢.

٣. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب: الأوائل، باب: أول ما فعل ومن فعله، (٧/ ٢٤٧)، رقم (٣٥٧٣٥).

لهم بأنه مخالف لسنة رسول الله ﷺ قطعاً^(٣).

• تقديم خطبة العيد على الصلاة:

وأما تقديم الخطبة على الصلاة في العيد، فإن الذي فعل ذلك هو مروان بن الحكم، واعتذر عن ذلك بأنه فعل ذلك مضطراً؛ لأن الناس لم يعودوا يستمعون إلى خطبهم بعد انتهاء الصلاة، ولم يرد أنه احتج لذلك بحديث، أو أنه دفع بعض أتباعه إلى وضع حديث يؤيد ذلك، ومع هذا فقد أنكر عليه الصحابة والتابعون ذلك.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه أنكر على مروان والي المدينة من قبل معاوية تقديم الخطبة على صلاة العيد، فقال أبو سعيد: "فقلت له: غيرتم والله، فقال: أبا سعيد قد ذهب ما تعلم، فقلت: ما أعلم والله خير مما لا أعلم، فقال: إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبل الصلاة"^(٤). هذا هو ما حدث من أمر تقديم مروان خطبة العيد على الصلاة، فأين استدلال مروان بالحديث؟ وأين استدلال معاوية على الخطبة جالساً وزيادة درجات المنبر بالحديث^(٥)؟

ومن هنا يتبين لنا أن هذه الحوادث التي استدلت بها هؤلاء المدَّعون لم تكن سبباً في وضع أحاديث تؤيدها، مما يثبت أن الأمويين لم يكونوا وراء وضع هذه

ما يثبت أن علماءنا لم يكونوا يجاملون في حق أو يتساهلون في إنكار منكر يعتقدونه، وبالرغم من ذلك لم يحتج معاوية بحديث، ولم يدَّع في ذلك سنة عن رسول الله ﷺ.

• براءة رجاء بن حيوة من وضع الأحاديث على النبي ﷺ:

وأما ادِّعائهم أن رجاء بن حيوة روى لهم أن رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون كانوا يخطبون جلوساً، فهذا كذب على رجاء، وافتراء على إمام ثقة من أئمة المسلمين، ويستحيل أن يقول رجاء هذا في عصر لا يزال فيه كثير من الصحابة الكرام يدافعون عن سنة الرسول ﷺ دفاع المستميت، ولم نجد لنسبة هذا الحديث إلى رجاء أثراً في أي كتاب من كتب السنة المعتمدة، ورجاء بن حيوة كان عند أئمة الحديث ثقة حافظ، قال الذهبي: "قال ابن سعد: كان رجلاً فاضلاً ثقة كثير العلم، وقال ابن عون: لم أر مثل رجاء بالشام، ولا مثل ابن سيرين بالعراق، ولا مثل القاسم بالحجاز، قال الذهبي: قلت: هو الذي أشار على سليمان باستخلاف عمر بن عبد العزيز"^(١).

وإذا كان جابر بن سمرة قال: "إن رسول الله ﷺ كان يخطب قائماً، ثم يجلس، ثم يقوم فيخطب قائماً، فمن نبأك أنه كان يخطب جالساً فقد كذب..."^(٢)، فليس فيه ردٌّ على حديث وُضع بالفعل بل يُحتمل أن يكون ردّاً لما قد يطرأ في أذهانهم من جواز ذلك، فقطع

٣. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ٢١٣ بتصرف.

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العيدين، باب: الخروج إلى المصلى بغير منبر، (٢/ ٥٢٠)، رقم (٩٥٦).

٥. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ٢١٥ بتصرف.

١. تذكرة الحفاظ، الذهبي، مرجع سابق، (١/ ١١٨).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجمعة، باب: ذكر الخطبتين قبل الصلاة وما فيها من الجلسة، (٤/ ١٤٤٤)، رقم (١٩٦٣).

يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعيته كتب له الحسنات، ولم يكتب له السيئات. قال الزهري: باطل يا أمير المؤمنين. أنبيُّ خليفة أكرم عند الله أم خليفة غير نبي؟ قال: بل نبي خليفة، قال: فإن الله ﷻ يقول لنبيه داود عليه السلام: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص)، فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة، فما ظنك بخليفة غير نبي؟ قال الوليد: إن الناس ليغفوننا عن ديننا^(١).

فانظر إلى مدى ما تتجه هذه الصلة من فائدة للأمة بين رجل كالزهري وبين خليفة كالوليد؟ ثم انظر هل ترى موقف الزهري موقف عالم يخضع لتأثير البيت المالك ولا يخرج عن هواهم، ويستجيب إلى رغباتهم في وضع الأحاديث على رسول الله ﷺ؟ أم هو موقف العالم الناصح؟ ينصح لدين الله والمسلمين ويذُبُّ عن سنة رسول الله ﷺ أكاذيب الوضّاعين؟ ويدفع عن خليفة المسلمين وقوعه تحت تأثير الرواة الكذابين، فلا يستمر في ظلم ولا يتهادى في باطل.

يُروى أن هشام بن عبد الملك سأل سليمان بن يسار عن تفسير قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور)، فقال هشام: "من الذي تولى كبره فيه؟ قال سليمان: هو عبد الله بن أبي بن سلول، فقال هشام: كذبت. إنما هو علي بن أبي طالب - ويظهر أن هشاماً لم يكن جاداً فيما يقول، ولكنه يريد أن يختبر شدتهم في الحق - فقال سليمان بن يسار: أمير المؤمنين

١. العقد الفريد، ابن عبد ربه، مرجع سابق، (١/ ٦٠).

الأحاديث كما زعموا[®].

ثالثاً. إن صلة الزهري بالأمويين صلة الناصح الأمين للخليفة والأمير:

يزعم هؤلاء المشككون أن صلة ابن شهاب الزهري بالأمويين هي التي مكنت لهم أن يستغلوه في وضع الأحاديث الموافقة لأهوائهم. ولا ندري كيف تكون الصلة بين رجل كالزهري صادق ثبت حجة، وبين خلفاء بني أمية علامة على استغلالهم له، وقديماً كان العلماء يتصلون بالخلفاء والملوك، دون أن يمَسَّ هذا أمانتهم في شيء، وعالم مثل الزهري، إذا اتصل بهؤلاء الخلفاء أو اتصلوا به، لا سبيل له إلى أن يؤثر ذلك في دينه وأمانته وورعه، والمستفيد منهم على كل حال هم المسلمون الذين يغدو شيخهم ويروح من حلقات العلم إلى مجالس العلماء يروي حديثاً، أو يبثُّ فكرة، أو يُبيِّن حكماً، أو يؤدِّب لهم ولداً، أو يذكرهم بما للأمة عليهم من حقوق، وما لله عليهم من واجبات.

جاء في العقد الفريد لابن عبد ربه: "دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك فقال له: ما حديث يحدثنا به أهل الشام؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال:

® في "تدوين الخلفاء الأمويين والعباسيين وحرصهم على مصلحة الإسلام والمسلمين" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة عشرة، والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة عشرة، من هذا الجزء. وفي "براءة معاوية من القول بتقديمه خطبة الجمعة قبل الصلاة"، وفي "زيادة معاوية درجة في المنبر أمر اقتضته الضرورة" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة والثلاثين، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة). وفي "أحاديث فضائل الأمويين في صحيح البخاري ومسلم" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء الخامس (الأئمة والرواة).

منادٍ من السماء أن الله أحلَّ الكذب ما كذبت"، إن الزهري كان من ذلك الطراز الممتاز في تاريخ الإنسانية الذين رباهم محمد ﷺ وأخرجهم للدنيا آيات باهرات في صدق اللهجة، وسمو النفس، والترفع عن الكذب أبداً.

ثم ماذا يبتغي الزهري من مسابرة لأهواء الأمويين؟ أهو يبتغي المال؟ لقد اعترف معنا هؤلاء بأن الزهري لم يكن من طراز أولئك الرجال الذين يستعبدهم المال؛ إذ نقل لنا عن عمرو بن دينار قوله في الزهري: "ما رأيت الدينار والدرهم عند أحد أهون منه عند الزهري، كأنها بمنزلة البعر"^(١)، أم هو يبتغي الجاه؟ إن المغرضين يعترفون معنا بأن الزهري كان ذائع الصيت عند الأمة الإسلامية، فأى جاه يطلب بعد هذا؟ وإذا لم يكن الزهري طالب جاه ولا مال، وهو في دينه وجرأته ما رأيت، فهل يبلغ به الحمق والغباوة أن يبيع دينه للأمويين، ويخسر سمعته بين المسلمين بوضع أحاديث عن رسول الله ﷺ لهم وهو لا يطمع في جاه ولا مال ولا منصب؟ ثم إنهم يصورون لنا عصر بني أمية عصر ظلم وجور، وأن الأتقياء من علماء المدينة كانوا يحاربونهم ويَزورُون (يبتعدون) عنهم، ونحن نعلم أن الزهري نشأ بالمدينة وأخذ عن شيوخها، جلس إلى سعيد بن المسيب حتى مات سعيد، وأخذ عن مالك في كل مرة يأتي بها إلى المدينة، وظل يتردد بين المدينة والشام - كما قال الزهري - خمساً وثلاثين سنة، فلماذا لم يبغضه علماءها؟ لماذا لم يكذبوه لو صح أنه كذب للأمويين؟ لماذا لم يتبرأ منه شيخه سعيد وهو الذي لا

أعلم بما يقول، ثم وصل ابن شهاب، فقال له هشام: من الذي تولى كبره منهم؟ فقال الزهري: هو عبد الله بن أبي بن سلول، فقال له هشام: كذبت، إنها هو علي بن أبي طالب، قال الزهري وقد امتلاً غضباً: أنا أكذب؟ لا أبا لك! فوالله، لو ناداني منادٍ من السماء أن الله أحلَّ الكذب ما كذبت... حدثني عروة وسعيد وعبيد الله وعلقمة عن عائشة أن الذي تولى كبره منهم هو عبد الله بن أبي"^(١).

ذلك ما أثبتته ابن عساكر في تاريخه منذ ثمانية قرون نقلاً عن الشافعي^(٢)، وهو إمام من أئمة الصدق والحق من قبل أن يظهر إلى عالم الوجود من يرمي الزهري بالكذب ويتهمه في دينه لاتصاله بالخلفاء! ألا ترى في هذه الحادثة ما يدل على مبلغ أمانة الزهري، وعلى أن الصلة بينه وبين الخلفاء كانت أدنى وأضعف من أن تتصل إلى دينه وأمانته؟ رجل يقول لخليفة المسلمين: لا أبا لك! وهي كلمة لا يقوها رجل عادي لآخر مثله يحترمه دليل على أن صلته بالخليفة ليست صلة ضعيف بقوي، ولا مخدوع بخادع، بل صلة واثق بدينه، معترز بعلمه يغضب إن كُذِّب، ويثور إذا حرِّفت حقيقة من حقائق التاريخ المتصل بصحابة رسول الله ﷺ، ورجل يزأر في وجه الخليفة زئير الأسد؛ لأنه كذبه في تفسير آية من كتاب الله خلاف ما يعلم أهل العلم من قبله، هل من المعقول أن يستخذي^(٣) لأقوال الخليفة، فيضع له أحاديث عن رسول الله ﷺ لا أصل لها! ألا ترى إلى قول الزهري: "أنا أكذب، لا أبا لك! فوالله، لو ناداني

١. فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، (٧/ ٥٠٢).

٢. تاريخ دمشق، ابن عساكر، مرجع سابق، (٥٥/ ٣٧١).

٣. يستخذي: يخضع.

٤. تذكرة الحفاظ، الذهبي، مرجع سابق، (١/ ١٠٩).

إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، المسجد الحرام، والمسجد الأقصى^(١)، فهذا لعمرى عجب من أعاجيب الافتراء والتحريف والتلاعب بحقائق التاريخ.

• إن المؤرخين الثقات لم يختلفوا على أن الذي بنا القبة (قبة الصخرة) هو الوليد بن عبد الملك، وهكذا ذكر ابن عساكر والطبري وابن الأثير وابن خلدون، وابن كثير وغيرهم، ولم نجدهم ذكروا ولو رواية واحدة تنسب بناءها إلى عبد الملك، ولا شك أن بناءها - كما يزعم هؤلاء - لتكون مثابة الكعبة يحج الناس إليها بدلاً من الكعبة، حادث من أكبر الحوادث وأهمها في تاريخ الإسلام والمسلمين، فلا يعقل أن يمر عليه هؤلاء المؤرخون مرَّ الكرام، وقد جرت عادتهم أن يدونوا ما هو أقل من ذلك خطرًا أو أهمية، كتدوينهم وفاة العلماء وتولى القضاء وغير ذلك، فلو كان عبد الملك هو الذي بناها لذكروها، ولكننا نراهم ذكروا بناءها في تاريخ الوليد، وهؤلاء مؤرخون أثبات في كتابة التاريخ، نعم جاء في كتاب الحيوان للدميري نقلًا عن ابن خلكان: أن عبد الملك هو الذي بنى القبة وعبارته هكذا: "بناها عبد الملك وكان الناس يقفون عندها يوم عرفة"، ومع ما في نسبة بنائها لعبد الملك من ضعف، ومن مخالفته لما ذكره أئمة التاريخ، فإن هذا النص لا غبار عليه، وليس فيه ما يدل على أنه بناها ليفعل الناس ذلك، بل ظاهره أنهم كانوا يفعلون من تلقاء أنفسهم، وليس فيه ذكر الحج عند القبة بدلاً من الكعبة، بل فيه الوقوف عندها

يبالي بعبد الملك في سطوته وجبروته؟ ما الذي دعاهم إلى السكوت عنه؟ أهو الخوف؟ لم يكونوا يعرفون خوفًا في نقد الرجال، من الخليفة إلى أقل رجل في المجتمع، وهب أنهم خافوه، فلماذا لم ينتقده العلماء في دولة بني العباس؟ لماذا لم يهاجمه أنصار بني العباس، كما هاجموا خلفاء بني أمية وأمرأهم وأعاونهم؟ لماذا سكت عنه علماء الجرح والتعديل: مثل أحمد بن حنبل ويحيى بن معين والبخاري ومسلم وابن أبي حاتم وأضرابهم ممن كانوا لا يخافون في الله لومة لائم؟ فكيف إذا كان النقد لرجل من أكبر رجال الدولة الأموية وأعظمهم شهرة؟ أليس في سكوت علماء أهل المدينة وشيوخهم، وفي مقدمتهم شيخه سعيد، ثم في أخذهم عنه وأخذ العلماء عنه من كل فج، وفي توثيق علماء الجرح والتعديل له في العصر العباسي - رغمًا عن صلته بالخلفاء الأمويين - أكبر دليل على أن الرجل كان فوق متناول الشبه، وأرفع من أن تعلقَ به ألسنة السوء، وأكرم من أن يوصف بكذب، أو وضع، أو ممالأة لأهل الظلم والباطل؟

هذه هي مكانة الإمامي الزهري وطبيعة صلته بأمرأ بني أمية، والآن نشرع في تفنيد أدلتهم الواهية التي استدلوها بها على وضع الزهري للأحاديث تلبية لرغبة الأمويين:

١. قبة الصخرة وحديث "لا تشد الرحال":

يزعم هؤلاء أن عبد الملك بن مروان بنى قبة الصخرة ليحول بين أهل الشام والعراق وبين الحج إلى الكعبة - وذلك أثناء لجوء عبد الله بن الزبير إلى الكعبة واعتصامه بها - وأنه أراد أن يُلبس عمله ثوبًا دينيًا، فوضع له صديقه الزهري حديث: "لا تشد الرحال إلا

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضل الصلاة، باب: مسجد بيت المقدس، (٣/ ٨٤، ٨٥)، رقم (١١٩٧).
صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الحج، باب: سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، (٥/ ٢٠٩١)، رقم (٣٢٠٣).

يوم عرفة، وهذه العادة كانت شائعة في كثير من أمصار الإسلام، وقد نص الفقهاء على كراهتها، وفرق كبير بين الحج إليها بدلاً من الكعبة، وبين الوقوف عندها تشبهاً بوقوف الحج بعرفة، ليشارك من لم يستطع الحج الحجاج من الأجر والثواب، ولم يكن ذلك مقصوراً على قبة الصخرة، بل كان كل مصر إسلامي يخرج أهله يوم عرفة إلى ظاهر البلد فيقفون كما يقف الحجاج.

إن نص الحادثة كما ساقها هؤلاء بيّن البطلان؛ لأن بناء شيء ليحج الناس إليه كفر صريح، فكيف يقدم عبد الملك عليه، وهو الذي كان يلقب بحمامة المسجد لكثرة عبادته على أن خصومه طعنوا فيه بأشياء كثيرة ولم نجدهم اتهموه بالكفر، ولا شنّوا عليه ببناء القبة، ولو كان الأمر ثابتاً لاتخذوه أكبر دليل على الغرض منه والظعن عليه.

• إن الزهري قد ولد سنة إحدى وخمسين أو ثمان، ومقتل عبد الله بن الزبير كان سنة ثلاث وسبعين، فيكون عمر الزهري حينذاك على الرواية الأولى اثنين وعشرين عاماً، وعلى الثانية خمسة عشر، فهل من المعقول أن يكون الزهري في تلك السن ذائع الصيت عند الأمة الإسلامية بحيث تتلقى منه بالقبول حديثاً موضوعاً يدعوها فيه للحج إلى القبة بدلاً من الكعبة؟

• إن نصوص التاريخ قاطعة بأن الزهري في عهد الزبير لم يكن يعرف عبد الملك ولا رآه بعد، فالذهبي يذكر لنا أن الزهري وفد لأول مرة على عبد الملك في حدود سنة ثمانين، وابن عساكر روى أن ذلك كان سنة اثنين وثمانين، فمعرفة الزهري لعبد الملك لأول مرة إنما كانت بعد قتل ابن الزبير ببضع سنوات، وكان يومئذ شاباً بحيث امتحنه عبد الملك، ثم نصحه أن يطلب

العلم من دور الأنصار، فكيف يصح الزعم أن الزهري أجاب رغبة صديقه عبد الملك فوضع له حديث بيت المقدس ليحج الناس إلى القبة في عهد ابن الزبير^(١)؟

• أما عن الحديث نفسه وهو قول النبي ﷺ: "لا تُشدُّ الرحال إلا إلى ثلاث مساجد: ، مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى" فقد روته كتب السنة كلها من طرق مختلفة، فقد أخرجه البخاري من طريق أبي سعيد الخدري من غير طريق الزهري، ورواه مسلم من ثلاث طرق: إحداها من طريق الزهري، والثانية من طريق جرير بن عمير عن قزعة عن أبي سعيد، والثالثة عن أبي سليمان الأغر عن أبي هريرة. فالزهري لم ينفرد برواية هذا الحديث لیتهمه المغرضون بوضعه كذباً على رسول الله ﷺ^(٢).

• إن هذا الحديث رواه الإمام الزهري عن شيخه سعيد بن المسيب، ومن المعلوم أن سعيداً ما كان ليسكت عن الزهري لو أنه وضع هذا الحديث على لسانه إرضاء لأهواء الأمويين، وهو الذي أوذى من قبلهم وضرب، وقد توفى سعيد سنة (٩٣هـ)؛ أي بعد مقتل ابن الزبير بعشرين سنة، فكيف سكت سعيد عن هذا كل هذه المدة، وقد كان جبلاً شامخاً من جبال القوة في الحق لا يبالي في الله لومة لائم؟

• لو فرضنا أن الزهري وضع هذا الحديث إرضاء لعبد الملك، فلم لم يصرح فيه بفضيلة قبة الصخرة، وقد

١. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ٢٠٠: ٢٠٤ بتصرف.

٢. المشتهر من الحديث الموضوع والضعيف والبديل الصحيح، د. عبد المتعال الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص ١٩٩.

سماعه ويقول: ارو هذا عني، أو يأتيه الطالب بكتاب قد سمعه من الشيخ فيتأمله الشيخ، ثم يقول له: ارو عني هذا، ويسمى هذا "عرض المناولة"، وقد قال الحاكم: إن هذا سماع عند كثير من المتقدمين، وحكوه عن مالك والزهري وربيعة ويحيى بن سعيد ومجاهد وسفيان الخ^(٢). وقال أيوب: كنا نعرض العلم على الزهري، وقال عبيد الله بن عمر: أتيت الزهري بكتاب فتأمله، ثم قال: أجيزك به، ومثله أخبر كثير من تلاميذ الزهري إذ كانوا يعرضون عليه أحاديثه التي سمعوها منه فيتأملها ويحيزهم بها، وما صنع إبراهيم بن الوليد - إن صحت الرواية - إنما هو من هذا القبيل حتّى، يؤكده تصريحه بالعرض كما في رواية ابن عساكر، والعرض - كما رأيت - إعطاء الشيخ الكتاب ليتأمله، ثم يحيزه، أما أن يكون إبراهيم دَوّن أحاديث من عنده، ثم طلب من الزهري أن يسمح له بروايتها عنه ووافق الزهري على ذلك، فهذا مما يستحيل صدوره عن رجل كالزهري ذائع الصيت عند الأمة الإسلامية، وما ذاع صيته إلا بأمانته وصدقه وضبطه.

• إن قول الزهري: "من يستطيع أن يحيزك بها" أصله كما نقله ابن عساكر: ومن يحيزك بها غيري؟ وليس في هذا شيء، فغير الزهري لا يستطيع أن يحيز تلاميذ الزهري كإبراهيم، بأحاديث لم يسمعوها إلا من شيخهم على أنه كان أعلم أهل زمانه بالسنة، وقد نقلنا قول غير واحد من أئمة الحديث أنه لولاه لضاعت أشياء كثيرة من السنة، واعترف مسلم له بأنه يروي تسعين حديثاً لا يرويها غيره، فيكون معنى قوله

أراد عبد الملك أن يحج الناس إليها؟ كل ما في هذا الحديث وما صححوه من أحاديث بيت المقدس تبين فضل الصلاة فيه، وفضل زيارته غير مقيدة بوقت معين، وهذا شيء أثبتته القرآن جملة، فأين هذا مما يريد عبد الملك من الحج إلى القبة بدلاً من الكعبة في أيام الحج.

• إن حديث "لا تُشدُّ الرحال" الذي حُرِّج في الصحيح لا يرتبط بما ورد في فضائل بيت المقدس والصخرة أو غيرها من أحاديث مكذوبة ليس للزهري رواية فيها، وقد نقدها العلماء جميعاً، حتى قالوا: كل حديث في الصخرة فهو كذب، وقالوا: لم يصح في فضل بيت المقدس إلا ثلاثة أحاديث منها: حديث "لا تشد الرحال"^(١).

٢. قصة إبراهيم بن الوليد الأموي:

قال المغرضون: إن إبراهيم الأموي جاء إلى الزهري بصحيفة، وطلب منه أن يأذن له بنشر أحاديث فيها على أنه سمعها منه، فأجازه الزهري من غير تردد، وقال له: من يستطيع أن يحيزك بها؟ وهكذا استطاع الأموي أن يروي ما كُتِب في الصحيفة على أنها مروية عن الزهري، وهنا أخطاء ومغالطات نوضحها فيما يأتي:

• إن ابن عساكر صرَّح بسماع إبراهيم من الزهري، فيكون إبراهيم قد عرض على شيخه صحيفة سمعها منه، وهذا يسمّى في اصطلاح المحدثين "عرض المناولة"، قال الشيخ ابن الصلاح في مقدمته: "القسم الرابع من أقسام تحمُّل الحديث "المناولة"، فإن كان معها إجازة مثل أن يناول الشيخ الطالب كتاباً من

٢. علوم الحديث، ابن الصلاح، المكتبة العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص ١٤٦، ١٤٧.

١. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

قد بذلناه الآن لهؤلاء، وإن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث، فتعالوا حتى أحدثكم بها"^(١)، فحدثهم بالأربعمئة حديث.

هذا هو النص التاريخي لقول الزهري، وقد رواه الدارمي بلفظ آخر وهو: "كنا نكره كتابة العلم حتى أكرهنا عليه السلطان، فكرهنا أن نمعه أحدًا"^(٢).

فانظر كم الفرق بين أن يكون قول الزهري كما روى المغرضون: "أكرهونا على كتابة أحاديث"، وبين أن يكون قوله كما رواه المؤرخون: "أكرهونا على كتابة الأحاديث"، أو كما رواه الدارمي: "على كتابة العلم"، ثم انظر إلى هذه الأمانة العلمية حذف "أل" من الأحاديث فقلبت الفضيلة رذيلة. حيث كان النص الأصلي يدل على أمانة الزهري وإخلاصه في نشر العلم، فلم يرض أن يبذل للأمراء ما منعه من عامة الناس إلا أن يبذله للناس جميعًا، فإذا أمانة هؤلاء تجعلهم ينسبون للزهري أنه وضع للأمراء أحاديث أكرهوه عليها، فأين هذا من ذاك^(٣)؟

١. تاريخ دمشق، ابن عساكر، مرجع سابق، (٥٥ / ٣٣٣). سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (٥ / ٢٣٤).
٢. أخرجه الدارمي في سننه، المقدمة، باب: التسوية في العلم، (١ / ١٢٢)، رقم (٤٠٤). وصححه حسين سليم أسد في تعليقه على سنن الدارمي.

٣. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ٢٠٤: ٢٠٧ بتصرف.

® في "نفي اتهام الزهري بالكذب وعدم الأمانة في الحديث" طالع: الشبهة التاسعة، من الجزء الخامس (الأئمة والرواة). وفي "صلة الزهري بالأمويين وإنكاره عليهم في بعض المواقف" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة، من الجزء الخامس (الأئمة والرواة). وفي "وصف الزهري بالتدليس لا يحط من ثقته وأمانته في الحديث" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة السادسة، من الجزء السابع (الإسناد والمتن).

لإبراهيم، ومن يعلم هذه الأحاديث غيري حتى يجيزك بها؟ وليس معناه أنه لا يجزئ أحد من المسلمين أن يبيع له وضع الأحاديث غيري.

• إن إبراهيم هذا لم ترو له كتب السنة عندنا شيئًا، ولم تذكره كتب الجرح والتعديل، لا في الثقات ولا في الضعفاء المتروكين، فأين هذه الأحاديث التي نشرها على الناس بإذن من الزهري؟ وأين موضعها من كتب السنة؟ ومن رواها عنه؟ وكيف اختفت هذه الصحيفة فلم يبق لها مكان في كتب التاريخ؟

قول الزهري: "أكرهونا على كتابة الحديث":

لقد زعم بعضهم أن الزهري اعترف اعترافًا خطيرًا في قوله الذي رواه عنه معمر: "إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة أحاديث"، وأن ذلك يفهم منه استعداد الزهري لأن يكسو رغبات الحكومة باسمه المعترف به عند الأمة الإسلامية. فقد أثبتنا عند الحديث عن صدق الزهري وجرأته؛ أنه أبعد الناس عن الرضوخ لأهواء الحاكمين، وقد ذكرنا من الوقائع التاريخية بينه وبين خلفاء بني أمية ما تجزم معه بأنه ليس ذلك الرجل المستعد لأن يكسو رغبات الحكومة باسمه المعترف به عند المسلمين.

أما هذا النص الذي جاءوا به ففيه تحريف متعمد يقلب المعنى رأسًا على عقب، وأصله كما عند ابن عساكر وابن سعد: أن الزهري كان يمتنع عن كتابة الأحاديث للناس - ويظهر أنه كان يفعل ذلك ليعتمدوا على ذاكرتهم، ولا يتكلموا على الكتب - فلما طلب منه هشام وأصرَّ عليه أن يملي على ولده ليمتحن حفظه، وأملى عليه أربعمئة حديث، خرج من عند هشام وقال بأعلى صوته: "يا أيها الناس، إنا كنا منعناكم أمرًا

الخلاصة:

في اصطلاح المحدثين "عرض المناولة"، وبذلك فلا شبهة فيها.

- وأمّا دعواهم أن الزهري قال: "إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة أحاديث" فهذا غير صحيح، وإنما الصحيح قوله: "إن هؤلاء أكرهونا على كتابة الأحاديث"؛ أي: تسجيلها في ديوان، وليس كتابة أحاديث من وضعه هو كما زعموا.



الشبهة الثالثة عشرة

دعوى أن علماء المدينة الأتقياء وضعوا

أحاديث ضد بني أمية(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن استبداد خلفاء بني أمية، وانحرافهم عن الدين قد دفع علماء المدينة الأتقياء إلى مقاومتهم والتصدي لهم عن طريق وضع الأحاديث في مثالبهم، ومدح أعدائهم من آل البيت، ويستدلون على دعواهم تلك بالعداء الذي كان بين عالم أهل المدينة سعيد بن المسيب والخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وبكثرة الأحاديث الموضوعية في مدح آل البيت. وهم يرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في صحة السنة النبوية، وفي نزاهة علماء المسلمين.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) لقد كتبت تاريخ بني أمية على أيدي أعدائهم من

(*) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق. حجية السنة والرد على الشبهات التي أثيرت حولها، الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية، مرجع سابق.

• إن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أحد الصحابة الأجلاء، خال المؤمنين وأميرهم، وقد صحت الأخبار في فضله ومكانته.

• لم يثبت أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه سبَّ علياً رضي الله عنه أو أبناءه، والرواية التي جاء بها الطاعنون لا تقوى في ميزان النقد الحديثي.

• إن زيادة معاوية رضي الله عنه درجة في المنبر النبوي، أو خطبته جالساً أو تقديم مروان خطبة العيد على الصلاة، لا يعد دليلاً على وضعهم أحاديث على النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم لم يستدلوا على أفعالهم تلك بأحاديث تسوغ لهم ما فعلوه، فليست ثمة علاقة بين الأمرين.

• إن صلة ابن شهاب الزهري بالأمويين صلة الناصح للخليفة أو الأمير، ولم يكن الزهري ألعوبة في أيديهم، وهذا يبرر ذهابه للقصر ووجوده في حاشية السلطان.

• إن ذهاب الزهري للقصر وتحركه في حاشية السلطان ليس دليلاً على وضعه للأحاديث، فقد يتردد الصحابة والتابعون على معاوية وغيره من الأمويين ولم يطعن فيهم أحد.

• إن حديث "لا تُشدُّ الرحال" ليس من وضع الزهري وإنما رواه البخاري ومسلم من غير طريق الزهري بالإضافة إلى طريق الزهري، فكيف يكون الزهري واضعه؟

• أمّا جعي إبراهيم بن الوليد الأموي بصحيفة إلى الزهري، وطلبه منه أن يأذن له بنشر أحاديث فيها على أنه سمعها منه، فإن الحقائق التاريخية تثبت أن إبراهيم قد سمع هذه الصحيفة فعلاً من الزهري، وهذا يسمى

تعاليم الإسلام وآدابه بصله^(١)، إنكم قد تناسيتم إحدى المسلمات الأساسية الواضحة؛ وهي أن تاريخ هذه الدولة يقع في دائرة خير القرون، المشهود لها بذلك من المعصوم ﷺ في قوله: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"^(٢)، ولا يمكن لعقل أن يتصور هذه النقلة الكبيرة التي يتحدث عنها هؤلاء بين صفاء عصر الراشدين وظلام عصر بني أمية، وليس الثاني إلا امتداداً طبيعياً للأول، فيه عاش بقية رجاله، ومن تبعهم بإحسان، وصاغوا تاريخه وأمجاده، مع التسليم بوجود فارق لا بد منه بين هذا العصر وذاك.

وإن ما خلفه الأمويون من آثار تاريخية خالدة لا يمكن أن يصدر عن حقبة تاريخية بهذه السوءات التي يصورها أعداء الإسلام، كما أن التاريخ لا ينفرد بصياغته في عصر ما ثلثة من الرجال - ولو كانوا ممتازين - على امتداد هذه العقود من الزمان التي عمرتها الدولة الأموية، وإنما هو نتاج عوامل شتى تتداخل فيها تأثيرات الزمان والمكان والبشر، وتلعب فيها قوى المجتمع وتكويناته الظاهرة والمستترة دوراً كبيراً، ومن خلال هذا المنظور ينبغي تفسير التاريخ الأموي، فلا يجوز أن يتحمل حكامه من بني أمية كل أوزاره ومثالبه، ولا أن ترد جميعها إلى منعمهم وتأثيرهم، تماماً كما لا ينبغي أن تنسب إليهم وحدهم شرف كل

١. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ١٨٦ بتصرف.

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، (٧ / ٥)، رقم (٣٦٥١). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، (٩ / ٣٦٥٩)، رقم (٦٣٥٤).

صنائع العباسيين وغلاة الروافض، فلا يصح الاعتماد على تلك الأخبار في الحكم عليهم، ومع ذلك فإن كثيراً من النصوص تؤكد تدني خلفاء بني أمية وحرصهم على مصلحة المسلمين، ونشرهم الإسلام في ربوع الأرض، فلماذا يعادهم علماء المدينة الأتقياء؟

(٢) لم يستبح علماءنا أبداً الكذب على النبي ﷺ، حتى ولو كان ذلك دفاعاً عن الدين كما يزعمون، بل كانوا أتقياء حقاً في تحرّيم الصدق ومقاومتهم للكذبة الوضّاعين.

(٣) إذا كان سعيد بن المسيب تعرّض للتعذيب الشديد دفاعاً عن إحدى سنن النبي ﷺ وهي عدم جواز البيعة لاثنتين في وقت واحد، فكيف لمثله أن يستبيح الكذب على النبي ﷺ؟ ولم يرد أي دليل على وضع سعيد بن المسيب أحاديث ضد الأمويين.

(٤) ثمة أحاديث صحيحة في مدح آل البيت، ولكن غلاة الشيعة تزيدوا في ذلك ووضعوا كثيراً من الأحاديث في فضائل آل البيت نكاية في الأمويين، وليس صحيحاً أن علماء المدينة هم من فعلوا ذلك، بل الصحيح أن علماء المدينة هم أول من تصدّوا لهم وبيّنوا كذبهم.

التفصيل:

أولاً. بنو أمية كانوا حريصين على نشر الإسلام وعلى مصلحة المسلمين:

في البداية نود أن نقول لهؤلاء الذين يصوّرون لنا الأمويين جماعة دنيويين ليس لهم هم إلا السلطة والملك، وفرض النفوذ والتوسع في رقعة هذا الملك، وأنهم كانوا في حياتهم العادية جاهلين لا يمتنون إلى

من الانسجام المتناغم بين القيادة والرعية، وحرص كليهما على التحقيق بكلمات الدين، في معظم مراحل هذه الفترة الزمنية الثرية.

غير أن التزام الدولة والمجتمع في العصر الأموي بالإسلام لم يتراجع بشكل حاد عنه زمن الراشدين، فقد كان كثير من مسلمي العهد الأموي ممن عاش زمن الراشدين، سواء كانوا من شيوخ الصحابة أو جيل التابعين.

وإن صح أن نقول: إن الاندفاع إلى تحقيق مثالية الإسلام قد أفسح الطريق لظهور نوع من الواقعية والترخص، لا يخرج في مجمله عن حدود الإسلام، الذي نعرفه دينًا شاملًا كاملًا، يعترف باختلاف قدرات البشر واستعداداتهم، ويشترع العزائم والرخص، ولا يخرج أتباعه في هذه الحال أو تلك عن حدود الإسلام ومقتضى شريعته^(٣).

ويمكننا أن نتحدث بإيجاز عن التزام خلفاء بني أمية بالإسلام، ومدى تدينهم، وحميتهم لهذا الدين، وخدمتهم للمسلمين مما ينفي عنهم الاستبداد والانحراف عن الدين في النقاط الآتية:

• معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه:

لن نتحدث هنا عن مكانة معاوية بن أبي سفيان عند رسول الله ﷺ ولا عند خليفته أبي بكر وعمر، فهذا ما لا يستطيع أحد أن يشكك فيه، ولكننا نتحدث عنه بعد توليه الخلافة، ورغم أن روايات التاريخ قد حجبت كثيرًا من الجوانب المضيئة عند خليفة الأمويين الأول، فإن شهادات بعض كبار معاصريه من الصحابة

إن هذه الحقائق الثابتة تقودنا إلى البداية الطبيعية للبحث عن حقيقة التاريخ الأموي، ألا وهي بحث الظروف التاريخية التي دون فيها ذلك التاريخ، والعوامل المتعددة التي حكمت ذلك التدوين وأثرت فيه. فمن المسلم به أن كتابة التاريخ الأموي قدمت في العصر العباسي، وفي أجواء معادية لبني أمية، وعلى أيدي رجال تعددت مذاهبهم واتجاهاتهم الفكرية وولاءاتهم السياسية، وقد ترك ذلك كله آثارًا ضخمة على تناولهم تاريخ هذه الحقبة بالغة الأهمية والحساسية^(١).

ومن ثم فقد كتب معظم تاريخ بني أمية على أيدي أعدائها، فتزيد فيه الرواة والإخباريون ما شاءوا، ولعبت الشائعات التي أثارها صنائع العباسيين وغلاة الشيعة والروافض دورًا كبيرًا في تشويه تاريخ بني أمية، فلا يصح الاعتماد - دون تمحيص - على كتب الأخبار والتاريخ التي كتبت في العصر العباسي فيما يتعلق بالأمويين، فضلًا عن أنه حتى في هذه الحالة، فإننا نجد نصوصًا كثيرة تكذب ما ذهب إليه هؤلاء المدّعون وما رموا به خلفاء بني أمية من انحراف عن الإسلام وتحذّر لأحكامه^(٢).

صحيح أن الحكم الأموي قد أظهر بُعدًا ما عن ذلك الأفق السامي من الالتزام الإسلامي في عصر الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، استمد توهجه وبريقه

١. الدولة الأموية المقتدى عليها، د. حمدي شاهين، دار القاهرة، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٥ م، ص ٦ بتصرف.

٢. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ١٨٦ بتصرف.

٣. الدولة الأموية المقتدى عليها، د. حمدي شاهين، مرجع سابق، ص ١٩٣ بتصرف.

حتى ثارت ضده معارضة عنيفة قادها الحسين بن علي رضي الله عنهما، الذي وثق بإغراءات أهل العراق، ثم تلتها ثورة أهل المدينة، ثم ثورة عبد الله بن الزبير بمكة، إذ مات يزيد، وجيوشه تحاصر ابن الزبير وتضيّق عليه الخناق.

وقد كانت هذه الثورات وما تمخض عنها من نتائج وخيمة فرصة هائلة لتشويه صورة يزيد والظعن فيه، وقد وجدت هذه المطاعن من يروّجها من أعداء بني أمية طوال تاريخهم وبعده حتى حملتها لنا صفحات التاريخ.

أما قبل هذه الثورات فلا نعلم اتهامًا خطيرًا يعتدُّ به ليزيد طوال خلافة أبيه حتى بعد ترشيحه لولاية العهد، وقد لبث وليًا للعهد بضع سنين، ويكفي أن نذكر من فضائله أنه كان قائد أول جيش يغزو القسطنطينية، فصدقت فيه نبوءة الرسول ﷺ إذ قال: "أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم" (٦).

وكانت له هناك ضروب من الشجاعة والبأس، وكان تحت لوائه من الصحابة أبو أيوب الأنصاري وابن عباس وابن عمر وابن الزبير.

ولما وفد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما على أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان بعد وفاة الحسن بن علي، دخل عليه يزيد وجلس يعزيه في وفاة الحسن، فلما نهض من عنده قال عبد الله بن عباس: "إذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس" (٧).

والتابعين تسد هذا النقص، مثل أقوال سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عباس، وابن عمر، الذين لا يُتهمون بمحابة معاوية، أو مجاملته...

فقد نقل ابن كثير عن سعد بن أبي وقاص قوله: "ما رأيت أحدًا بعد عثمان أفضى بحق من صاحب هذا الباب" (١)، يعني معاوية، وقال عنه ابن عباس: "ما رأيت رجلًا كان أخلق بالملك من معاوية" (٢)، وقيل لابن عباس: "هل لك في أمير المؤمنين معاوية فإنه ما أوتر إلا بواحدة؟ فقال: إنه فقيه" (٣)، وقال عبد الله بن عمر: "ما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية (أي: أكثر تخلّقًا بأخلاق السيادة منه)، فقيل له: ولا أبو بكر وعمر؟ فقال: كان أبو بكر وعمر خيرًا منه، وما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية" (٤).

وقد روي أن بعض الصالحين قد بهره عدل عمر بن عبد العزيز، فأخذ يتحدث عنه، حتى فاجأه الأعمش بقوله: "تذكرون عدل عمر بن عبد العزيز، فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: في حلمه؟ قال: بل في عدله"، وروى الأعمش عن مجاهد قوله: "لو أدركتم معاوية لقلتم هذا المهدي"، وقال أبو إسحاق السبيعي مثل ذلك (٥).

• يزيد بن معاوية بن أبي سفيان:

ما كاد يزيد بن معاوية يتولّى الخلافة بعد وفاة أبيه

١. البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، (٨ / ١٤٢).

٢. المرجع السابق، (٨ / ١٤٣).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: ذكر معاوية ﷺ، (٧ / ١٣٠)، رقم (٣٧٦٥).

٤. تاريخ دمشق، ابن عساکر، مرجع سابق، (٥٩ / ٦٦).

٥. منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، مرجع سابق، (٦ / ١٢٨).

٦. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في قتال الروم، (٦ / ١٢٠)، رقم (٢٩٢٤).

٧. البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، (٨ / ٢٥١).

• مروان بن الحكم:

عرف عن مروان بن الحكم العلم والفقه والعدل، فقد كان سيداً من سادات شباب قريش، وقد شهد له الإمام مالك بالفقه، واحتج بقضائه وفتاواه في مواطن عديدة من كتاب الموطأ، كما وردت في غيره من كتب السنة المتداولة في أيدي أئمة المسلمين يعملون بها، وكان الإمام أحمد يقول: "يقال كان عند مروان قضاء، وكان يتتبع قضايا عمر بن الخطاب"، وكان مروان من أقرأ الناس للقرآن^(١)، كما كانت له رواية الحديث الشريف، حيث روى عن بعض مشاهير الصحابة؟ وروى عنه بعضهم، كما روى عنه بعض التابعين^(٢)، وكان حريصاً على السنة والعمل بها^(٣).

• عبد الملك بن مروان:

اشتهر عبد الملك بن مروان بالعلم والفقه والعبادة، فقد كان أحد فقهاء المدينة الأربعة: سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب وعبد الملك بن مروان^(٤)، حتى قال نافع مولى عبد الله بن عمر: لقد رأيت المدينة وما فيها أشد تسميراً ولا أفقه، ولا أقرأ لكتاب الله من "عبد الملك بن مروان"^(٥)، وكان يسمّى "حمامة المسجد" لحرصه على المكث فيه، وقد قال الإمام الشعبي: "ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه، إلا عبد الملك بن مروان فإني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني

١. المرجع السابق، (٨ / ٢٨٣).

٢. تهذيب التهذيب، ابن حجر، مرجع سابق، (١٠ / ٨٣).

٣. الدولة الأموية المقتدى عليها، د. حمدي شاهين، مرجع سابق، ص ١٩٩.

٤. فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٧٤م، (٢ / ٤٠٣).

٥. تهذيب التهذيب، ابن حجر، مرجع سابق، (٦ / ٣٧٤).

فيه، وقد استشهد الإمام مالك بفقهه وأحكامه وقضاياه^(٦).

• الوليد بن عبد الملك:

كان الوليد قارئاً للقرآن مشيداً للمساجد عابداً غيوراً على دين الله ﷻ، قال إبراهيم بن عتبة: قال لي الوليد بن عبد الملك: في كم تختم القرآن؟ فقلت في كذا وكذا، فقال: إن أمير المؤمنين على شغله يختمه في كل ثلاث، وقيل: في كل سبع^(٧)، وكان الوليد يقرأ القرآن في شهر رمضان سبع عشرة مرة^(٨)، وكان أول من أجرى طعام شهر رمضان في المساجد.

كما أنشئت في عصر الوليد الكثير من المساجد مثل جامع دمشق، الذي كان أعجوبة الدنيا في عصره، كما أعاد بناء المسجد النبوي بالمدينة وتوسعته، وكان له جهد هائل في الفتح، ونشر كلمة الإسلام ولغة العرب^(٩).

• سليمان بن عبد الملك:

سُمِّي سليمان بن عبد الملك "مفتاح الخير"؛ وذلك لأنه افتتح عهده بخير وختمه بخير؛ إذ رد المظالم على أهلها، وأخرج المسجونين الذين كانوا بالبصرة، واستخلف عمر بن عبد العزيز، وأغزى مسلمة أخاه الصائفة حتى بلغ القسطنطينية، فأقام بها حتى مات سليمان، وجمع سليمان حوله الفقهاء والعلماء، فكان يجالسهم ويستمع إلى مواعظهم.

٦. المرجع السابق، (٦ / ٣٧٤).

٧. تاريخ دمشق، ابن عساکر، مرجع سابق، (٦ / ٤٣٥).

٨. المرجع السابق، (٢٩ / ٣٤٤).

٩. الدولة الأموية المقتدى عليها، د. حمدي شاهين، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

• عمر بن عبد العزيز:

إن الروايات عن زهد عمر بن عبد العزيز، وورعه وخوفه من الله ﷻ وعدله أكثر من أن تُحصى، وترجمته اللتان كتبهما عنه ابن الجوزي، وابن عبد الحكم زاخرتان بهذه الروايات التي تقدم صورة مضيئة للخليفة عمر بن عبد العزيز نجية بني أمية، وخامس الخلفاء الراشدين، وقد نشأ عمر مترفًا منعّمًا في بيت الإمارة والملك، إذ كان أبوه عبد العزيز بن مروان أميرًا على مصر، غير أنه بعد أن ولي الخلافة شعر بعظم المسؤولية الملقاة عليه، فانقلب زاهدًا متعبدًا على نحو مثير، وأحال ما حوله من مظاهر الملك وصوره إلى لون من البساطة يذكرنا بمظاهر الخلافة في عصر الراشدين، حتى قال فيه مالك بن دينار: "يقولون: مالك زاهد؛ أي زهد عندي، وإنما الزاهد عمر بن عبد العزيز أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها جملة"^(١).

• يزيد بن عبد الملك:

صحيح أن يزيد بن عبد الملك لم يلزم نفسه مسلك عمر بن عبد العزيز في الزهد والتقشف، فليس كثيرون يطبقون ذلك، ولكنه لم ينقض سيرة عمر بن عبد العزيز ويفعل خلافها، كما أثار بعض المؤرخين، بل هناك دلائل عديدة على تحرّيه العدل وسنن الدين، وحرص عماله على بيت مال المسلمين، وحرصه على إرضاء رعيته، ولعل آخر ما يُذكر ليزيد أنه استخلف من بعده هشامًا أخاه، ولم يستخلف ولده الوليد؛ مراعاة لمصلحة الأمة^(٢).

١. البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، (٩/ ٢٢٧).

٢. انظر: تاريخ دمشق، ابن عساکر، مرجع سابق، (٦٥/ ٣٠٠).

• هشام بن عبد الملك:

لقد كان زمن هشام بن عبد الملك حافلًا بالجهاد والغزو على شتى الجبهات، وإن لم يُحدث تقدم ذو بالٍ على مساحة الدولة، ولم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء إلا وعليه الغزو، فمنهم من يغزو ومنهم من يُخرج بدلًا، وكانت له جهوده المعمارية، وكان يجمع الأموال ويعمر الأرض ويستجيد الخيل، وقد اصطنع الرجال، وقوّى الثغور، واتخذ القنى والبرك بطريق مكة وغير ذلك من الآثار، وكان هشام يجلب العلماء والفقهاء في زمانه، فلما حج سنة ١٠٦هـ، وبلغه موت طاوس اليميني الفقيه وسالم بن عبد الله، حرص على أن يصلي عليهما بنفسه، ورأى القاسم بن محمد بن أبي بكر عند قبر سالم بن عبد الله، فأقبل عليه هشام، وما عليه إلا دراعة، يسأله عن حاله، فقال: بخير، فقال هشام: إني أحب والله أن يجعلكم بخير^(٣).

• الوليد بن يزيد بن عبد الملك:

لم تزد خلافة الوليد بن يزيد عن سنة وثلاثة أشهر، ورغم ذلك فقد شاع ذكره في التاريخ حتى أصبح من أشهر خلفاء بني أمية، وحاول بعض المؤرخين أن يجعل من نقائصه ومثالبه - الصحيح منها والمخترع - سمة غالبية على العصر الأموي وخلفائه، رغم قصر مدة خلافته، وثورة أهله الأمويين عليه فيما بعد، وقتلهم إياه.

ولكن لا يخلو التاريخ من أدلة تبرئ الوليد مما نسب إليه من التهم التي رماه بها أعداؤه من إلحاد وكفر وجهر بالفسوق، فرسائله إلى هشام بن عبد الملك،

٣. تاريخ الأمم والملوك، الطبري، مرجع سابق، (٤/ ١٤).

ينطلقون منها؟ ولماذا لا يلجئون في التصدي لهم إلا لهذا اللون الخسيس من المقاومة وهو وضع أحاديث ضدهم؛ لا شك أن كل هذه ظنون لا تمت إلى الحقيقة بأدنى صلة، بل إنها مجرد افتراءات لا يؤيدها شيء من واقع علماء المدينة الأتقياء، ولا من تاريخ خلفاء بني أمية الذين كانوا في أعلى درجات الحرص على مصلحة الإسلام وأهله[®].

ثانياً. صلاح علماء المدينة وتقواهر يتناقض مع اتهامهم بالوضع:

إننا نعجب من افتراء هؤلاء المشككين على علماء المدينة الأتقياء واتهامهم بأنهم أول من قاموا ضمن حركة الوضع في الحديث النبوي ضد الأمويين، وإرغام أنفسهم بمدح أعدائهم، وسر ذلك العجب هو كيف تتفق التقوى مع الوضع في الحديث؟ إن التقوى هي الاستقامة على الدين ظاهراً وباطناً، إن كلمة الأتقياء دسّها هؤلاء ليهوّنوا على القارئ ويسهّلوا عليه الغرض الدنيء والاتهام الجريء الذي يرمون إليه، فإنه إذا حكم أن هذا حال الأتقياء فكيف يكون حال غير الأتقياء؟ لا شك أنهم يفوقونهم ويزيدون عليهم في وضع الحديث.

والغريب أن هؤلاء لم يذكروا لنا بعضاً من هؤلاء العلماء الأتقياء على حد زعمهم؛ لنبين لهم أقوال أئمة

ونصر بن يسار، تدل على إيمانه بالله وثقته بقدرته، كما أن موقفه من القدرية وتبعه لهم يعزز هذا المعنى ويؤيده، حتى إنه لما حُوصر من أعدائه قبل قتله جلس وأخذ مصحفاً، وقال: يوم كيوم عثمان، ونشر المصحف يقرأ، ورفض الدفاع عن نفسه آنئذ حتى قتل^(١).

ويعد مقتل الوليد بن يزيد بداية النهاية للدولة الأموية، فقد اختلف أمراء البيت الأموي على أنفسهم، ولم تطل خلافة يزيد بن الوليد عن بضعة أشهر، ورغم ذلك فقد وجدت بعض الدلائل على تدينه وعدله، وما لبث أن أقبل مروان بن محمد - آخر خلفاء البيت الأموي - يستولي على مقاليد الحكم بالشام، وليقضي ما بقي من سني حكم بني أمية في صراع ونضال^(٢).

هؤلاء هم ولاة الأمر من خلفاء بني أمية وتلك سيرتهم، وما ذكرناه من فضائلهم هو لمجرد الاستشهاد فقط لا على سبيل الحصر، بل إن التاريخ ليذكر فتوحات الأمويين بكثير من الإعجاب، حتى إن رقعة الإسلام في العصر العباسي لم تزد كثيراً عما كانت عليه في العصر الأموي، والفضل في ذلك للأمويين؛ إذ كان أبناء خلفائهم على رأس الجيوش الفاتحة الغازية في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر شريعته، فلماذا إذن يعاديهم العلماء؟!

ولماذا يتهمونهم بأنهم لا يفهمون روح الإسلام ولا

® في "تقديم الأمويين خطبة العيد على الصلاة لا يعني وضعهم للأحاديث" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية عشرة، من هذا الجزء. وفي "تدوين الخلفاء الأمويين والعباسيين" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة عشرة، من هذا الجزء. وفي "أحاديث فضائل الأمويين في صحيح البخاري ومسلم" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء الخامس (الأئمة والرواة).

١. البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، (١٠ / ١٣).

٢. انظر: الدولة الأموية المفتري عليها، د. حمدي شاهين، مرجع سابق، ص ١٩٤: ٢١٩. الدولة الأموية: عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، د. علي محمد محمد الصلابي، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط ١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ١٨٦ بتصرف.

الجرح والتعديل فيهم، ولنعلم أهم علماء أم ليسوا من العلم في شيء^(١).

بل إن الأغرّب من ذلك أن يزيد هؤلاء المشككون أن مقرهم كان في المدينة، وهل كان بالمدينة إلا كل عالم تقي حقاً، بالمعنى الذي يفهمه المسلمون من العلم والتقوى، والاجتهاد في دين الله والصدق في شريعته، ومحاربة الكذابين والوضاعين، لا بالمعنى الذي يريد هؤلاء إيهامنا به من الدس في حديث رسول الله ﷺ والافتراء عليه دفاعاً عن دينه؟

ولكن: هل استجاز العلماء الكذب دفاعاً عن الدين؟

إن القول بوجود مسوغات دفعت العلماء إلى اختلاق الأحاديث والكذب على رسول الله ﷺ هو قول لم ولن يصل إلى مدى السمو الذي يتصف به علماءنا الأثبات، ولا المدى الذي وصلوا إليه في الترفع عن الكذب حتى في حياتهم العادية، ولا مبلغ الخوف الذي استقر في نفوسهم من الله خشية ورهبة من الكذب، ولا مدى استنكارهم لجريمة الكذب على رسول الله ﷺ، حتى قال منهم من قال بكفر من يفعل ذلك وقتله وعدم قبول توبته.

إن هؤلاء معذورون إذا لم يفهموا عن علمائنا هذه الخصائص؛ لأنهم لا يجدون لها ظلاً في أنفسهم ولا فيمن حولهم، ومن اعتاد الكذب ظن في الناس أنهم أكذب منه، وإلا فمن الذي يرضى لنفسه أن يتهم قومًا جاهروا بالإنكار على بعض ولاتهم لأنهم خالفوا بعض أحكام السنة، بأنهم استجازوا لأنفسهم بعد ذلك أن

١. حجية السنة والرد على الشبهات التي أثيرت حولها، الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية، مرجع سابق، ص ٧٦ بتصرف.

يضيفوا إلى السنة أحكاماً لم يقلها رسول الله ﷺ^(٢).

ولو فرضنا جدلاً أن علماء المدينة قد فعلوا ذلك كما يزعم هؤلاء المدعون، فهل كان علماء المدينة هم كل علماء الإسلام في ذلك العصر؟ ألم يكن في مكة ودمشق والكوفة والبصرة ومصر وأمصار الإسلام الأخرى صحابة وعلماء أيضاً؟

لقد كان في مكة في ذلك العصر - عدا من تأخرت وفاته من الصحابة - أمثال عطاء وطاوس ومجاهد وعمرو بن دينار وابن جريج وابن عيينة، وكان في البصرة أمثال الحسن وابن سيرين ومسلم بن يسار وأبي الشعثاء وأيوب السخيتاني ومطرف بن عبد الله بن الشَّخِير، وكان في الكوفة أمثال علقمة وعبد الله بن عتبة بن مسعود وعمرو بن ميمون وإبراهيم النخعي وعامر الشعبي وسعيد بن جبير والقاسم بن عبد الله بن مسعود، وكان في الشام أبو إدريس الخولاني وقبيصة بن ذؤيب وسليمان بن حبيب وخالد بن معدان وعبد الرحمن بن غنم الأشعري بن جبير ومكحول، وكان في مصر يزيد بن أبي حبيب وبكير بن عبد الله الأشج وعمرو بن الحارث والليث بن سعد وعبيد الله بن أبي جعفر، وكان في اليمن مطرف وغيره.

هؤلاء أعلام الإسلام في العصر الأموي فهل شاركوا علماء المدينة في الوضع إن صح زعمهم؟ وكيف تم ذلك؟ وأين هذا المؤتمر الذي ضمهم، حتى اتخذوا فيه قرار الوضع؟

وإذا كانوا لم يشاركوا علماء المدينة في ذلك، فكيف سكتوا عنهم؟ وكيف نقلوا حديثهم؟ وأين هو في

٢. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ١٨٩ بتصرف.

أخيه عبد العزيز بن مروان عقد بيعة ولاية العهد لولديه الوليد وسليمان من بعده، وأمر ولاته في جميع الأمصار بأخذ البيعة لهما، فكان موقف سعيد بن المسيب هو الامتناع عن البيعة؛ لأن ذلك الامتناع لهما التزام بسنة النبي ﷺ في نظره؛ لأنه نهى عن البيعة لاثنين، فلا بد من تنفيذ ذلك، مهما كلفه الامتناع من ثمن.

قال شيبان بن فروخ: "حدثنا سلام بن مسكين، حدثنا عمران بن عبد الله الخزاعي قال: دُعي سعيد بن المسيب للوليد وسليمان بعد أبيهما فقال: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار، فقيل: ادخل واخرج من الباب الآخر، قال: والله لا يقتدي بي أحدٌ من الناس، قال: فجلده مائة وألبسه المسوح"^(٢).

وكانت حُجَّة سعيد بن المسيب في امتناعه عن البيعة أنه لا يجوز أن يبايع لاثنين في آن واحد، وقال عبد الرحمن بن عبد القارّي لسعيد بن المسيب، حين قامت البيعة للوليد وسليمان بالمدينة من بعد أبيهما: إني مشير عليك بخصال، قال: وما هن؟ قال: تعتزل مقامك، فإنك تقوم حيث يراك هشام بن إسماعيل - والي المدينة - قال: ما كنت لأغيّر مقامًا قمته منذ أربعين سنة، قال: تخرج معتمرًا، قال: ما كنت لأنفق مالي وأجهد بدني في شيء ليس فيه نيّة، ثم قال: فما الثالثة؟ قال: تبايع، قال: رأيت إن كان الله أعمى قلبك، كما أعمى بصرك - وكان أعمى - فما عليّ؟ قال رجاء: فدعاه هشام إلى البيعة، فأبى، فكتب فيه إلى عبد الملك، فكتب إليه عبد الملك: مالك ولسعيد؟ ما كان علينا منه شيء نكرهه،

التاريخ إنكارهم على هؤلاء العلماء؟ بل إنا لنجد عكس ذلك؛ فقد كان علماء الأمصار جميعًا يعترفون بأن حديث الحجاز أصح حديث وأقواه، بل إن الخليفة عبد الملك بن مروان الأموي يعترف لعلماء المدينة بصحة الحديث حين أشار على الزهري أن يأتي إلى دور الأنصار فيتعلم منهم، فكيف يعترفون بذلك لو كانت المدينة دارًا لضرب الحديث واختراعه؟! ولماذا سكت الأمويون وهم على علم بأن علماء المدينة يضعون الحديث ضدّهم؟! إنها دعوى متهافة لا تثبت أمام النقد لحظات ولكن الهوى يُعمي"^(١).

ثالثًا. حقيقة العداة بين سعيد بن المسيب وعبد الملك بن مروان:

ومما يزيد في تهافت دعوى هؤلاء أنهم يتخذون من عداة سعيد بن المسيب لعبد الملك ذريعة لرمي علماء المدينة كلهم بالكذب والوضع، ولكنهم لا يذكرون لنا أي دور له في هذه الحركة، فلماذا؟ ولماذا لم يستدلوا بحديث واحد قد وضعه سعيد بن المسيب للطعن في بني أمية أو حتى في مدح أعدائهم؟ الحق أن هؤلاء لم يجروا على ذلك لأنهم لم يجدوا بين أيديهم ولو رواية واحدة مفتعلة تؤكد دعواهم تلك؟

ونحن نستطيع أن نبيّن حقيقة الجفاء الذي كان بين سعيد بن المسيب وعبد الملك بن مروان، ثم لنحكم بأنفسنا: هل يستحق هذا الجفاء أن يدفع عالمًا تقيًا مثل سعيد بن المسيب إلى وضع أحاديث على النبي ﷺ؟

إن سر الخلاف بين سعيد بن المسيب والخليفة الأموي عبد الملك بن مروان هو أن عبد الملك بعد وفاة

٢. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (٤ / ٢٣١).

١. المرجع السابق، ص ١٨٧، ١٨٨ بتصرف.

فأما إذ فعلت، فاضربه ثلاثين سوطاً، وأوقفه للناس^(١). وكان للفقير الكبير قبيصة بن ذؤيب دور في تلك الحادثة وجهد طيب أثمر عن إطلاق سراح ابن المسيب؛ إذ لام الخليفة على ما فعل بابن المسيب، وتم إخلاء سبيله من السجن من قبل والي المدينة الذي سجنه وجلده.

هذا هو موقف سعيد بن المسيب وتمسكه بفتواه، وقد اختلف المؤرخون في أمر سعيد بن المسيب، بأن والي المدينة هو الذي عرّضه للعقوبة دون أمر عبد الملك، وبعضهم قال: إن عبد الملك هو الذي أمر بذلك، فالذي يعنينا هنا هو موقف سعيد من ولاية العهد للوليد وسليمان، وتعرضه للعقوبة والمحنة مما زاد من حدة الخلاف بينه وبين بني مروان.

والتأمل في خلاف سعيد بن المسيب رحمه الله لبني أمية وولاتهم، يلحظ التزامه بأداب جمّة يجدر الوقوف عندها، وأهمها:

١. أنه على الرغم مما حدث بينه وبين بعض خلفاء بني أمية وولاتهم فإنه يعترف بإمامتهم وشرعية خلافتهم، فهو يعترف لعبد الملك بن مروان وابنه الوليد بإمرة المؤمنين، كما ورد ذلك في قوله لحاجب عبد الملك حين دعاه لمقابلة عبد الملك: ما لأمر المؤمنين حاجة.

كما أنه على الرغم مما صنع به والي المدينة - هشام بن إسماعيل - فإنه كان يصلي خلفه، وكل ما فعله مقابل إساءته له أن قال: الله بيني وبين من ظلمني، أو اللهم انصرنني من هشام، وكان يمثل أوامرهم فيه، فحين

أخرج من السجن نهوا أن يجالسه أحد، فكان إذا أراد أحد أن يجالسه قال: إنهم قد جلدوني، ومنعوا الناس أن يجالسوني.

٢. ومن أدب خلافه أنه لم يشغل نفسه بسبب بني أمية أو وولاتهم، أو التعرض لهم بالقدح وإثارة الناس عليهم، فحين قيل له: ادع على بني أمية، قال: اللهم أعز دينك، وأظهر أوليائك، وأخز أعدائك في عافية لأمة محمد ﷺ.

٣. أنه لم يضع يده مع كل معارض لهم نكايّة للأمويين.

٤. أنه على الرغم من كرهه القرب من خلفاء بني أمية - لا سيما بني مروان منهم - وربما انتقاده لبعض العلماء الذين خالطوهم كقبيصة بن ذؤيب والزهري، على الرغم من ذلك، فإن كرهه لهذا العمل لم يمتد ليشمل نظرتة وتقويمه لهم، بل كان يقدر لهم علمهم واجتهادهم، فروي عنه قوله في الزهري: "ما مات من ترك مثلك"^(٢)، فانظر إلى هذا الأدب في الخلاف بين العلماء حين يختلفون في قضية من القضايا أو موقف من المواقف، فإنه لا يمتد هذا الخلاف ليفسد ذات بينهم أو يشعل فتيل التهم فيما بينهم.

وقد استطاع عمر بن عبد العزيز حين تولى الحجاز في عهد الوليد أن يحسن التعامل مع العلماء بشكل عام، وقدر لهم قدرهم، وجعلهم مستشاريه، وخصّ سعيداً بمزيد من التقدير والاحترام، ونتيجة لحسن معاملة عمر بن عبد العزيز له تجاوب سعيد معه، قال ابن كثير: وكان سعيد لا يأتي أحدًا من الخلفاء، وكان يأتي عمر بن

٢. السابق، (٥ / ٣٣٧).

١. المرجع السابق، (٤ / ٢٣١).

عن طريق مدح أعدائهم من آل البيت، وغير خافٍ على المشتغلين بعلوم السنة أن الله مدح بعض الصحابة في الكتاب الكريم، وأن رسول الله ﷺ مدح علياً، كما مدح أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة وعائشة والزبير وأمّاهم من كبار الصحابة، فهنالك بلا شك أحاديث صحيحة في مدح كبار بعض الصحابة ومنهم آل البيت، ولكن الشيعة تزيدوا في ذلك، وبدءوا في وضع الأحاديث في فضائل آل البيت نكايّة في الأمويين وأشياعهم^(٢).

وقد أجمع العلماء على أن الشيعة هم أول من قاموا بوضع الحديث ولم يخالف في ذلك أحد، فقد صنعوا أحاديث كثيرة وحرفوا بعض الأحاديث حسب أهوائهم، وفرقهم التي كانت تزداد يوماً بعد يوم.

يقول ابن أبي الحديد - وهو أديب شيعي - في شرح "نهج البلاغة": "واعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كانت من جهة الشيعة، فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث في صاحبهم - أي علي بن أبي طالب - حملهم على وضعها عداوة خصومهم"^(٣).

قال ابن الجوزي رحمه الله: "فاعلم أن الرافضة ثلاثة صنوف: صنف سمعوا شيئاً من الحديث، فوضعوا أحاديث وزادوا ونقصوا، وصنف لم يسمعوا فتراهم يكذبون على جعفر الصادق، ويقولون: قال جعفر، وقال فلان، والصنف الثالث: عوام جهلة يقولون ما يريدون مما يسوغ في العقل ومما لا يسوغ"^(٤).

٢. السنة ومكاتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ١٩٠ بتصرف.

٣. شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن هبة الله بن الحسين بن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م، (١ / ٤٨، ٤٩).

٤. الموضوعات، ابن الجوزي، مرجع سابق، (١ / ٣٣٨).

عبد العزيز وهو بالمدينة، ومرة أرسل عمر بن عبد العزيز رسولاً إلى سعيد ليسأله في مسألة، فأخطأ الرسول فدعاه، فلما جاء سعيد قال عمر: أخطأ الرسول، إنما أرسلناه يسألك في مجلسك، فانظر كيف كان حرص عمر على تقديره، وانظر أيضاً كيف سارع سعيد إلى المجيء إليه تقديرًا له^(١).

هذا هو سعيد بن المسيب رحمه الله عالم المدينة وسيد التابعين، مدرسة الأخلاق والقيم والمبادئ، وهذا موقفه من عبد الملك بن مروان، إنه موقف الرجل المدافع عن المبادئ وعن سنة من سنن النبي ﷺ، فقد تعرض للضرب والإهانة والتنكيل، حتى لا يبايع بيعتين في وقت واحد فيخالف بذلك سنة رسول الله ﷺ، ترى هل يمكن لمثل هذا الرجل أن يستبج بعد ذلك لنفسه أن يكذب ليدافع عن سنة رسول الله ﷺ، إذا كان يمكن أن يسمى الكذب دفاعاً عن الإسلام؟

لا شك أن ما يدعيه هؤلاء كذب وافتراء يرده التاريخ ويأباه؛ إذ لم يثبت أن سعيد بن المسيب وضع حديثاً يحط من قدر بني أمية حتى ولو كان دفاعاً عن السنة.

رابعاً. الذين وضعوا الأحاديث في مدح آل البيت هم غلاة الشيعة وليس علماء المدينة؛

هكذا يقرب المشككون الحقائق، فعلى حين يصف علماء المسلمين وُضاع الأحاديث بأنهم فساق وزنادقة، نجد هؤلاء يدعون أن علماء المدينة الأتقياء هم أول من قاموا بحركة الوضع في الحديث النبوي لمقاومة بني أمية

١. الدولة الأموية: عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص ٦٨: ٧١ بتصرف.

وقد اتخذ أسلوبهم في الوضع اتجاهين:

الأول: الوضع نصره لآرائهم ودواعيهم.

الثاني: الوضع في مثالب مناوئهم^(١).

وقد كثر الوضع منهم حتى أساءوا إلى سمعة العراق، التي سُمّيت "دار الضرب" تضرب فيها الأحاديث كما تضرب الدراهم، وكان أهل المدينة يتوقّفون أحاديثهم، وكان الإمام مالك يقول: "أنزلوا أحاديث أهل العراق منزلة أحاديث أهل الكتاب: لا تصدقوهم ولا تكذبوهم"^(٢)، وقال له عبد الرحمن بن مهدي: "يا أبا عبد الله، سمعنا في بلدكم - المدينة - أربعمئة حديث في أربعين يومًا، ونحن - أي في العراق - في يوم واحد نسمع هذا كله، فقال له: يا عبد الرحمن، من أين لنا دار الضرب؟ أنتم عندكم دار الضرب، تضربون بالليل وتنفقون بالنهار"^(٣)، وقال ابن شهاب: "يا أهل العراق، يخرج الحديث من عندنا شبرًا فيصير عندكم ذراعًا"^(٤)، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما لجماعة من أهل العراق جاءوا يسألونه أن يحدثهم: "إن من أهل العراق قومًا يكذبون ويكذبون ويسخرون"^(٥).

وقال الشافعي: "لم أر أحدًا أشهد بالزور من الرافضة"، وقال حماد بن سلمة: "حدثني شيخ لهم تاب

- يعني الرافضة - قال: كنا إذا اجتمعنا، فاستحسننا شيئًا جعلناه حديثًا"^(٦).

وهكذا صنع غلاة الشيعة أحاديث كثيرة، فوضعوا أحاديث في مناقب علي عليه السلام وأخرى وضعوها في مثالب معاوية والأمويين، وكتب الموضوعات مليئة بأكاذيبهم^(٧).

فالشعبة إذن هم من وضعوا الأحاديث في مدح آل البيت والطعن في بني أمية، وليس علماء المدينة الأتقياء كما يزعم هؤلاء.

إننا نجد هؤلاء العلماء الأتقياء هم الذين قاوموا هذا الوضع، ووقفوا دون هذه الحركة، حتى ليقول ابن سيرين: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم"^(٨).

ولا شك أن أهل البدع المقصودين هنا هم غلاة الشيعة والخوارج ومن سار على طريقهم، لا علماء المدينة الأتقياء الذين قاوموا هذه الطوائف التي تزيدت ووضعت الأحاديث في فضل آل البيت، فهل يمكن أن يفعلوا مثل ذلك ويضعون الأحاديث لهذا الغرض نفسه؟ لقد كان من الأولى، إذا كانوا على استعداد لوضع الأحاديث في ذلك ألا يقاوموا حركة الشيعة،

١. قضايا حديثة، أشرف خليفة عبد المنعم السيوطي، مكتبة أولاد الشيخ، القاهرة، د. ت، ص ٥٣٣، ٥٣٤ بتصرف.

٢. رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ابن تيمية، مرجع سابق، ص ٢٣.

٣. منهاج السنة، ابن تيمية، مرجع سابق، (٢/ ٢٠٩).

٤. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (٥/ ٣٤٤).

٥. الطبقات الكبير، ابن سعد، تحقيق: د. علي محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م، (٥/ ٨٩).

٦. لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، ط ١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، (١/ ١١).

٧. انظر: السنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب، مرجع سابق، ص ١٩٤: ١٩٧.

٨. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: الإسناد من الدين، (١/ ٨٩).

• لم يكن علماء المدينة هم كل علماء المسلمين في ذلك العصر، حتى يضعوا من الأحاديث ما شاءوا دون أن ينكر عليهم أحد ذلك، بل كان في كل مصر إسلامي علماء أثبات يتصدون للوضع والوضاعين.

• إن سعيد بن المسيب عالم المدينة رغم تعرضه للتعذيب على يد عامل بني أمية إلا أنه لم يسب بني أمية ولم يدع عليهم، بل وكَّل أمرهم إلى الله.

• كيف لسعيد بن المسيب، هذا العالم الجليل أن يضع أحاديث على النبي ﷺ، وهو الذي لم يتحمل ما تحمَّله إلا دفاعاً عن سنة النبي ﷺ، وليس هناك أي دليل يثبت وضعه ولو لحديث واحد.

وضع الأحاديث في مدح آل البيت كان من غلاة الشيعة وليس علماء المدينة، بل إن هؤلاء العلماء هم الذين تصدوا لهؤلاء الغلاة وبينوا كذبهم على النبي ﷺ.



الشبهة الرابعة عشرة

الادعاء أن تدوين السنة في قصور

الأمراء أدى إلى الوضع (*)

مضمون الشبهة:

يشكك بعض المغرضين في صحة السنة النبوية بدعوى أنها دُوِّنت في قصور الخلفاء والأمراء من الأمويين والعباسيين، الذين كانوا يملكون الجاه

(*) الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق. السنة النبوية حجية وتدوينها، محمد صالح الغرسي، مرجع سابق.

وأن يسيروا معهم في طريق واحد، فلماذا لم يفعلوا^(١)؟ لا شك أن ما ذكرناه من حقائق تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك، براءة علماء أهل السنة أو علماء المدينة الأتقياء - على حد رأيهم - من تهمة وضع الأحاديث على النبي ﷺ، كما يؤكد أن ما أثاره هؤلاء المشككون من غبار حول علمائنا الأثبات لا يعدو أن يكون تحريفاً لحقائق التاريخ وقلباً لأحداثه^(٢).

الخلاصة:

• لم يكن خلفاء بني أمية من المستبدين ولا المنحرفين عن الدين؛ بل إن هناك كثيراً من النصوص التاريخية التي تبرئ ساحتهم من التهم الكثيرة التي نسبها إليهم غلاة الروافض وصنائع العباسيين.

• إن التاريخ يذكر بكثير من الإعجاب فتوحات الأمويين، ونشرهم للإسلام، وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية، فلماذا يعاديه علماء الإسلام؟ ولماذا يتهمونهم بالانحراف عن الدين؟

• لم يكن بالمدينة إلا كل عالم تقياً حقاً، فقد كانوا يتحرون الصدق أشد التحري، وهم الذين تصدوا لحركة الوضع والوضاعين، إذ كانوا يعدون الكذب على النبي ﷺ كفرة، ولا يقبلون توبة من يفعل ذلك.

١. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ١٩٠ بتصرف.

٢. في "جهود العلماء في الحفاظ على السنة من الوضع" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة عشرة، والوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من هذا الجزء. وفي "أثر الشيعة في وضع الأحاديث" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة العشرين، من هذا الجزء. وفي "وضع الشيعة الأحاديث في فضائل علي بن أبي طالب" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة والعشرين، من هذا الجزء.

وتفريق كلمة المسلمين لم يكن مقتصرًا على السنة النبوية فحسب، بل إن ذلك من حقائق القرآن وتعاليم الإسلام التي سبقت الخلافات والنزاع حول الحكم.

التفصيل:

أولاً. صلة علماء السنة بالملوك والأمراء:

لقد تناسى أعداء السنة النبوية الذين زعموا أن علماء السنة قد دَوَّنوا السنة في قصور الأمراء والحكام، وقاموا بوضع الأحاديث لإرضائهم، وتثبيت دعائم ملكهم - قد تناسى هؤلاء أن علماء الحديث أنفسهم لم يكونوا يقبلون حديثًا في سنده رجل عُرف بالتردد على الملوك وقبول هداياهم، إلا إذا اتفق على توثيقه وعدالته، ولم يجرب عليه حيدة عن الجادة، بل عُلِم شدته على الملوك.

كما أن علماء الأمة بوجه عام كانت علاقاتهم بالحكام والأمراء قلقة، وكان العلماء يترفعون عن التردد على قصور الحكام وبلاط الأمراء، سواء كانوا فقهاء أو محدثين، وما كانوا يتهاونون في الثورة والاحتجاج على الباطل، وإن اعتصم الباطل بالعروش والصولجان الرهيبية^(١).

ولا ندري كيف تكون الصلة بين أئمة المسلمين الثقات الأتبات، وبين الملوك والأمراء علامة على استغلالهم لهم؟ وقد يئس هذا أمانتهم في شيء، فقد يئس الملوك دون أن يمس هذا أمانتهم في شيء، فقد يئس الصحابة على معاوية رضي الله عنه وكذلك تردد التابعون.

فهؤلاء الأئمة إذا اتصلوا بهؤلاء الأمراء والملوك، أو

والسلطان والدرهم والدينار، فقد استغلوا علماء الحديث في تثبيت أركان ملكهم عن طريق اختلاق أحاديث تدعو إلى طاعة الحكام والأمراء، وتدعو إلى اجتناب الفتن والقلال، ويستدلون على ذلك بعدة أحاديث منها: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعني، ومن عصى أميرى فقد عصاني"، وقوله ﷺ: "من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلامات ميتة جاهلية".

وجوه إبطال الشبهة:

(١) لقد كانت علاقة علماء الحديث بالحكام والأمراء - في الأغلب - علاقة قلقة، فقد كانوا يترفعون عن التردد على قصور الحكام، ومن كانت له منهم علاقة بولاة الأمر، فقد كانت هذه العلاقة علاقة العالم الناصح المرشد والمنتقد في كثير من الأحيان، لا علاقة ضعيف بقوي أو خادع بمخدوع.

(٢) لقد كان الحكام من الأمويين والعباسيين على درجة كبيرة من العلم والورع والتقوى تمنعهم من السعي إلى اختلاق أحاديث لأي سبب من الأسباب، بل كان الوضع في السنة النبوية يتم على أيدي أعدائهم من الرافضة والزنادقة.

(٣) إن من له إمام بالحديث النبوي وأغراضه التي قيل من أجلها، لن يعثر على حديث فيه محاباة لحاكم أو أمير، بل سيجد فيها كثيرًا من الأحاديث التي تشدد النكير على التصرفات السيئة لولاة الأمور مهما علا سلطانهم.

(٤) الحث على طاعة أولي الأمر، والتحذير من الفتن

١. الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ص ٤٦، ٤٧ بتصرف.

بين رجل كالزهري، وبين خليفة كالوليد؟ ثم انظر هل ترى موقف الزهري موقف عالم يخضع لتأثير البيت المالك، ولا يخرج عن هواهم، ويستجيب إلى رغباتهم في وضع الحديث على رسول الله ﷺ، أم هو موقف العالم الناصح ينصح لدين الله والمسلمين، ويذب عن سنة رسول الله ﷺ أكاذيب الوضّاعين، ويدفع عن خليفة المسلمين وقوعه تحت تأثير الرواة الكذابين، فلا يستمر في ظلم ولا يتماذى في باطل؟

ولننظر كذلك إلى ما رواه ابن عساكر بسنده إلى الشافعي أن هشام بن عبد الملك سأل سليمان بن يسار عن تفسير قوله ﷺ: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١١)، فقال هشام: من الذي تولى كبره منهم؟ قال سليمان: هو عبد الله بن أبي بن سلول، فقال هشام: كذبت؛ إنما هو علي بن أبي طالب، فقال سليمان بن يسار: أمير المؤمنين أعلم بما يقول، ثم وصل ابن شهاب، فقال له هشام: من الذي تولى كبره منهم؟ فقال الزهري: هو عبد الله بن أبي بن سلول، قال هشام: كذبت إنما هو علي بن أبي طالب، قال الزهري (وقد امتلاً غضباً): أنا أكذب؟ لا أباً لك! فوالله، لو ناداني منادٍ من السماء أن الله أحلّ الكذب ما كذبت. حدثني فلان وفلان أن الذي تولى كبره منهم هو عبد الله بن أبي بن سلول^(٣)، وفي القصة: فقال هشام: إنا نهيج الشيخ، مما يدل على أنه لم يكن جاداً في قوله: كذبت.

ألا ترى في هذه الحادثة ما يدل على أن الصلة بين العلماء والخلفاء أدنى وأضعف من أن تصل إلى دينهم وأمانتهم؟ رجل يقول لخليفة المسلمين:

اتصل بهم الملوك، فلا سبيل إلى أن يؤثر ذلك في دينهم وأمانتهم وورعهم، والمستفيد منهم على كل حال، هم المسلمون الذين يغدو علماءهم ويروحون من حلقات العلم إلى مجالس الخلفاء يروون حديثاً، أو يبثون حكماً، أو يبينون حكماً، أو يؤدّبون لهم ولداً، أو يذكرونهم بما للأمة عليهم من حقوق^(١).

ومهما يكن من أمر فلم تكن العلاقة بين علماء الحديث والحكام هي علاقة التابع المستجدي، بالمتبوع المستغل الذي يفرض إرادته، بل كانت علاقة العالم الناصح المرشد المنتقد في كثير من الأحيان.

وقد روي أن الإمام الزهري دخل على الوليد بن عبد الملك فقال له: "ما حديث يحدثنا به أهل الشام؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات. قال الزهري: باطل يا أمير المؤمنين! أنبيي خليفة أكرم على الله، أم خليفة غير نبي؟ قال: بل نبي خليفة، قال: فإن الله ﷻ يقول لنبيه داود ﷺ: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص)، فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة فما ظنك بخليفة غير نبي؟ قال الوليد: إن الناس ليغووننا عن ديننا^(٢).

فانظر إلى مدى ما تنتجه هذه الصلة من فائدة للأمة

١. انظر: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ٢٠٠.
٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، (١٣/ ١٢٢).
٣. تاريخ دمشق، ابن عساكر، مرجع سابق، (٥٥ / ٣٧١).

• وأما أحمد بن حنبل فكان يقف كالطود العظيم شامخاً بإيانه وعلمه، ويحل به العذاب الظالم حتى يفقد وعيه، ولا ينحرف قيد أنملة نحو الباطل الذي كانوا يراودونه عليه.

هذه قبسات مضيئة سجلها التاريخ بأحرف من نور للفقهاء والمحدثين^(٢).

ثم إننا نسأل في النهاية ماذا يمكن أن يتبغي علماء الحديث من مسaire الحكام والسلاطين، أيتغون المال أم الشهرة؟ إن التاريخ يشهد بأن المال أو الشهرة لم يستعبدهم، وقد قيل: إنه لم يُر السلاطين والملوك والأغنياء في مجلس أحقر منهم في مجلس الأعمش مع شدة حاجته وفقره.

تري هل يبلغ الحمق والغباوة بهم أن يبيعوا دينهم وسمعتهم بين المسلمين، وهم لا يطمعون في مال ولا جاه ولا منصب^(٣)!

ثانياً. كان حكام المسلمين من الأمويين والعباسيين على درجة كبيرة من العلم والتقوى تمنعهم من تحريض الرواة والعلماء على اختلاق الأحاديث:

لقد حرص أعداء الإسلام والسنة المطهرة على أن يصوروا لنا الملوك والأمراء من الأمويين والعباسيين بصورة جماعة دنيويين، كانوا في حياتهم العادية جاهليين، لا يمتون إلى تعاليم الإسلام وآدابه بصلة، وهذا افتراء على الواقع والتاريخ؛ فالنصوص التاريخية التي تمثل لنا العصر الأموي والعباسي، فيها أخبار

"لا أبأ لك" - وهي كلمة لا يقولها رجل من العامة لآخر مثله يحترمه - لدليل على أن صلتهم بالخلفاء والأمراء ليست صلة ضعيف بقوي، ولا مخدوع بخادع، بل صلة واثق بدينه، يغضب إن كُذّب، ويثور إذا حُرّف حقيقة من حقائق التاريخ المتصل بصحابة رسول الله ﷺ، ورجل يزأر في وجه الخليفة زئير الأسد؛ لأنه كذّبه في تفسير آية من كتاب الله ﷻ خلاف ما يعلم أهل العلم من قبله.

إن الزهري كان من ذلك الطراز الممتاز في تاريخ الإنسانية الذين رباهم الإسلام وأخرجهم للدنيا آيات باهرات في صدق اللهجة وسمو النفس، والترفع عن الكذب ولو كان مباحاً^(١)، إن موقف الزهري هذا وجرأته في الحق - وهو من أعلام علماء الحديث - هو المنهج الذي سار عليه رجال الحديث الأتقياء البررة، ومن شاء المزيد من هذه البطولات فليقرأ سيرة الأئمة الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل، ليرى مواقفهم الناصعة أمام حكام عصورهم، وتشددهم في إقرار الحق ودفع الباطل، والاعتزاز بكرامة الإيثار والعلم:

• فأبو حنيفة تؤدي به الجفوة بينه وبين الحكام إلى الزج به في غياهب السجون المظلمة الظلمة، ويلقى منيته في السجن كما في بعض الروايات.

• ومالك لما خالف حكام عصره آذوه وخلعوا ذراعاه، وأصابوه بالأمراض.

• أمّا الشافعي فقد ضاق به الأمراء ذرعاً، وطارده من قطر إلى قطر، دون أن ينيلهم ما يرجون.

٢. الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ص ٤٨.

٣. السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام، د. عماد الشربيني، مرجع سابق، ص ٢٠٠: ٢٠٢ بتصرف.

١. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ٢٠٠: ٢٠٢ بتصرف.

وزورًا بأكاذيب من صنع الرافضة.

يقول العلامة ابن خلدون مدافعًا عن أمراء الدولة الأموية: "... وإن كانوا ملوكًا لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي، إنما كانوا متحررين لمقاصد الحق جهدهم، إلا في ضرورة تحملهم على بعضها، مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد، يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتراء، وما علم السلف من أحوالهم ومقاصدهم، فقد احتجَّ مالك في الموطأ بعمل عبد الملك، وأما مروان فكان في الطبقة الأولى من التابعين، وعدالتهم معروفة ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك، وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه"^(٢).

ويقول أيضًا مدافعًا عن أمراء الدولة الأموية والعباسية معًا في معرض دفاعه عن أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد: "ثم إنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به، مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية، والسفاح، والمنصور، والمهدي، والرشيد من بني العباس، وأمثالهم ممن عُرِفَتْ عدالتهم، وحسن رأيهم للمسلمين، والنظر لهم، ولا يُعاب عليهم إيثار أبنائهم وإخوانهم، وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك، فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء، فإنهم كانوا على حين لم تَحْدُث طبيعة الملك وكان الوازع دينيًا"^(٣)، وهو حفظ وحدة المسلمين، وإنه لفي رواية الإمام مالك في موطئه لأمرأ بني أمية مثل عبد الملك بن مروان وأبيه مروان،

٢. المقدمة، ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ط٦، ١٤٠٦هـ/

١٩٨٦م، ص٢٠٦.

٣. المرجع السابق، ص٢١١.

تناقلتها الألسنة دون تحقيق، وهي من وضع غلاة الشيعة والروافض الذين أحدثوا الفتنة في صفوف الأمة الإسلامية، ومن هنا فلا يصح الاعتماد - دونها تمحيص - على كتب الأخبار وحدها فيما يتعلق بالأمويين والعباسيين.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى (كما يقول د. مصطفى السباعي): فإنه على الرغم من هذا فإننا نجد نصوصًا كثيرة تكذب أعداء السنة فيما رموا به أمراء الأمويين والعباسيين، من انحراف عن الإسلام وتحدُّ لأحكامه، فابن سعد يروي لنا في طبقاته عن نسك عبد الملك وتقواه قبل الخلافة، مما جعل الناس يلقبونه بحمامة المسجد، حتى لقد سُئِلَ ابن عمر رضي الله عنهما: "أرأيت إذا تفانى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من نساء؟ فأجابهم: سلوا هذا الفتى وأشار إلى عبد الملك".

وهذا الإمام مالك قد احتج بقضاء عبد الملك بن مروان في موطئه، وأبرزه في جملة قواعد الشريعة، أما أبوه مروان بن الحكم فأفضيته وفتاواه كثيرة في الموطأ، وفي الصحيح عن عبد الله بن دينار قال: "شهدت ابن عمر حيث اجتمع الناس على عبد الملك قال كتب: إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، على سنة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ما استطعت، وإن بني قد أقروا بمثل ذلك"^(١).

ونرى مثل ذلك في الوليد بن عبد الملك، فلقد أنشئت في عصره أكثر المساجد المعروفة اليوم، حتى كان عصره للمسلمين عصرًا عمرانيًا، ومثل ذلك يقال في بقية الخلفاء: بما فيهم يزيد بن معاوية الذي اتهم كذبًا

١. صحيح البخاري (شرح فتح الباري)، كتاب: الأحكام، باب: كيف يبایع الإمام الناس، (١٣/ ٢٠٥)، رقم (٧٢٠٣).

يسوق له حديثاً حتى يباح له، كما أنه لا يُستساغ أن يكافئ المهدي مَنْ يكذب على رسول الله ﷺ، وهو الذي كان يقتل الزنادقة^(٣).

وعلى فرض صحة القصة، فإن المهدي لم يكن مغفلاً ولا جاهلاً، بل كان عاقلاً عالماً، من الملوك الذين ينشأون في رحاب العلم الذي هو شرط من شروط الولاية، فعامل المتزلف إليه بوجود الملوك، وأراد قطع السبب الذي تزلف به الكذاب، وفطم نفسه عن التعلُّق بالحمام فذبحها - ولم يأت في الخبر أنه طرحتها - ولم ينتفع بها أكل، ومثل هذا لا يغيب عن مثل الخليفة المهدي العالم الذي نكل بالزنادقة أيما تنكيل أيام دولته، وعيّن لهم رجلاً سماه "صاحب الزنادقة"، وكل إليه أمر إبادتهم والقضاء عليهم، وجاء عنه أنه قال: "والله لئن عشت لأقتلنَّ هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف".

وخلاصة القول: أن ما وقع من وضع أثناء تدوين السنة في أيام الأمويين والعباسيين، وقع من غلاة الرافضة، والزنادقة، وغيرهم ممن لا يمتنون إلى العلم بصلة، وأمثال هؤلاء هم الذين كانوا في صراع دائم مع الدولة الأموية والعباسية، أما ما يزعمه أعداء الإسلام والسنة المطهرة، بأن الوضع أثناء التدوين وقع من العلماء الذين دأبوا على الوضع في السنة المطهرة نتيجة إغراء من الحكام المسلمين فهو كذب وافتراء^(٤)، فهؤلاء الحكام الذين عاصروا تدوين السنة كانوا على

وجمه لموطئه في أيام بني العباس، والدولة لهم، والحكم بأيديهم - لأكبر دليل على أن كثيرين من العلماء قد تحرّروا المصداقية بعيداً عن تأثير القوى المختلفة المتنازعة.

فلم يكن لهذا الصراع - في الغالب - تأثير على علماء المسلمين فيما يحفظون، ويدونون من حديث النبي ﷺ وإلا فلم لم يُغيّر وينكر أمراء بني العباس ما في الموطأ؟ فأين ما زعمه أعداء الإسلام من استغلالهم لعلماء المسلمين في وضع ما يوافق رغباتهم؟ نعم كان هناك من يتقرب إلى الملوك والأمراء بوضع ما يوافق فعلهم، ولكن هؤلاء الأدعياء لم يكونوا يمتنون إلى العلم بصلة، وهم غير العلماء الذين نهضوا لجمع الحديث وتدوينه ونقده، وفي نفس الوقت لم يغفل الأمراء عن كذبهم، كما حدث من غيَّاث بن إبراهيم النخعي مع الخليفة المهدي العباسي لما رآه يلعب بالحمام فحدثه بحديث أبي هريرة ؓ: "لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر"^(١)، وزاد فيه: "أو جناح"، فأمر له المهدي بعشرة آلاف درهم، فلما قام قال المهدي: أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله ﷺ، وإنما استجلبت ذلك أنا، فأمر بذبح الحمام فذبحت^(٢).

وقد أبطل بعض العلماء هذه القصة؛ لأن سبق الحمام لم يكن محرماً في أي وقت، وقد مارسه المسلمون في كل مكان وزمان بإجازة النبي ﷺ، فلا يحتاج المهدي لمن

٣. كيف ولماذا التشكيك في السنة، د. أحمد عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ٤٣ بتصرف.

٤. السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام، د. عماد السيد الشرييني، مرجع سابق، (١/ ٤٣٩: ٤٤٣) بتصرف.

١. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوزي)، كتاب: الجهاد، باب: ما جاء في الرهان والسبق، (٥/ ٢٨٧)، رقم (١٧٥٢). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (١٧٠٠).

٢. تاريخ دمشق، ابن عساكر، مرجع سابق، (٥٣/ ٤٢٥).

تبعاً لأهوائهم كنا نجد فيها هذا الحديث: "من بايع أميراً عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ولا بيعة للذي بايعه"^(٣)، إن هذا الحديث يسدُّ منافذ كثيرة يمكن من خلالها أن يستبد الحكام بأمر المسلمين.

وهناك أحاديث كثيرة دَوَّنَها المحدثون، تدل دلالة قاطعة على أن السنة لم تدوَّن في قصور الخلفاء والأمراء تبعاً لأهوائهم؛ نذكر منها على سبيل المثال:

• أخرج الطبراني عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: "صنفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي: إمام ظلوم غشوم، وكل غال مارق"^(٤).

• عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: "أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً أو قتله نبي، وإمام ضلالة"^(٥).

• أخرج أحمد عن عمرو بن مرة أن رسول الله ﷺ قال: "ما من إمام أو والٍ يُغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسكنة، إلا أغلق الله ﷻ أبواب السماء دون حاجته وخلته ومسكنته"^(٦).

• وأخرج الحاكم عن حذيفة ؓ قال: "يكون

درجة كبيرة من العلم والتقوى والورع تمنعهم من إغراء العلماء بوضع الأحاديث أو غير ذلك"^(٧).

ثالثاً. كثرة الأحاديث التي تشدد النكير على التصرفات السيئة لولاة الأمور، وخلق السنة من أحاديث تحابي الأمراء والحكام:

إننا نعجب حقاً أشد العجب من هؤلاء الذين يشككون في صحة السنة النبوية بدعوى أنها دُوِّنت في قصور الحكام والأمراء، وإننا نسأل هؤلاء: هل لو كانت السنة دُوِّنت في قصور السلاطين تبعاً لأهوائهم - كما تزعمون - كنا نجد فيها مثل هذا الحديث الذي فيه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: "أي الجهاد أفضل؟ فقال: كلمة حق عند إمام جائر"^(٨)!

فمن هو السلطان الذي يسمح بتدوين هذا الحديث وأمثاله في قصره، ويمنح واضعه العطايا؟ أليس في هذا الحديث تحريض وترغيب في التصدي للسلاطين والإنكار عليهم؟ وأنت ترى أن هذا الحديث يجعل مقاومة الظلمة أعلى مرتبة من مراتب الجهاد^(٩).

وهل لو كانت السنة قد دوت في قصور السلاطين

® في "تقديم الأمويين خطبة العيد على الصلاة لا يعني وضعهم للأحاديث" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية عشرة، من هذا الجزء. وفي "تدوين الخلفاء الأمويين وحرصهم على مصلحة الإسلام والمسلمين" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة عشرة، من هذا الجزء. وفي "أحاديث فضائل الأمويين في صحيح البخاري ومسلم" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء الخامس (الأئمة والرواة).

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث طارق بن شهاب ؓ، رقم (١٨٨٤٨). وصححه شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

٢. شبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ص ٤٦ بتصرف.

٣. صحيح: أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند عمر بن الخطاب، (١ / ٣٢٧)، رقم (٣٩١). وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

٤. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، كتاب: الخلافة، باب: في أئمة الظلم، (٥ / ٢٣٥)، رقم (٨٠٠٥). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٧٠).

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود، (٥ / ٣٣٣)، رقم (٣٨٦٨). وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

٦. صحيح لغيره: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث عمرو بن مرة الجهني ؓ، رقم (١٨٠٦٢). وقال عنه شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: صحيح لغيره.

أمرء يعذبونكم ويعذبهم الله" (١).

حبل المشتقة حول عنقه (٥)؟

إننا نسأل هؤلاء المشككين في تدوين السنة النبوية: ماذا تقولون في هذه الأحاديث التي ظاهرها مجابهة السلطان إذا أمر بالمعاصي أو استحلبها، أو عطلَّ حدًّا من حدود الله؟ وماذا تقولون في تلك الأحاديث التي تشدد النكير على ولادة الأمور، وتتوعددهم بالعذاب الأليم إذا ظلموا الرعية؟

إن الذين رووا هذه الأحاديث هم الذين رووا لنا بقية السنة النبوية، وهذا إننا يدل على أنه ليس ثمة مصلحة هؤلاء المحدثين والفقهاء إلا خدمة هذا الدين، وأنهم ليسوا أداة في أيدي الحكام يُسخرُونها متى شاءوا، وكيف شاءوا كما يزعم الزاعمون (١).

رابعاً. الأمر بطاعة أولي الأمر، واجتناب الفتن، من حقائق القرآن وتعاليم الإسلام التي سبقت النزاع حول الحكم:

إن ما يزعمه أعداء السنة من أن أحاديث طاعة أولي الأمر، وأحاديث اجتناب الفتن قد وضعها أهل الحديث لتثبيت أنظمة الحكم، فتلك دعوى يردها النقل والنظر، يقول الأستاذ الصديق بشير: "فأما النقل: فإن الأحاديث التي ذكرها ومعظمها في الصحيحين اللذين هما أصح كتب السنة، وهي تدعو إلى طاعة الحكام والأمراء، وتدعو إلى اجتناب الفتن والنجاة من شرورها، ويظن أنها وُضعت من أجل تثبيت الحكم، إما بطاعتهم، أو باعتزال الأمر وتركه، فهذه الأحاديث

• وأخرج أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: "ثلاثة لا ينظر الله - يعني إليهم - يوم القيامة؛ الإمام الكذاب، والشيخ الزاني، والعامل المزهو" (٢).

• وأخرج البخاري ومسلم عن معقل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيته، إلا حرَّم الله عليه الجنة" (٣).

• ما روي عن عبادة بن الصامت ؓ قال: "بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى ألا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم" (٤).

إن ما ذكرناه آنفاً من أحاديث وغيرها كثير تسد منافذ كثيرة يمكن من خلالها أن يستبد الحكام بأمور المسلمين، فمن هو السلطان الذي يسمح بوضع هذه الأحاديث في قصره؟ ويمنح العطايا الجزيلة لمن يلف

١. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب: الفتن والملاحم، (٤ / ٤٨٢)، رقم (٨٣٤٢). وقال الحاكم: صحيح، وقال عنه الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكشورين من الصحابة، مسند أبي هريرة ؓ، (١٨ / ١٧١)، رقم (٩٥٩٢). وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

٣. صحيح البخاري (شرح فتح الباري)، كتاب: الأحكام، باب: من استرعى رعية فلم ينصح، (١٣ / ١٣٥)، رقم (٧١٥٠). صحيح مسلم (شرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: في باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، (٢ / ٥٥٦)، رقم (٣٥٦).

٤. صحيح البخاري (شرح فتح الباري)، كتاب: الأحكام، باب: كيف يبایع الإمام الناس، (١٣ / ٢٠٤)، رقم (٧١٩٩).

٥. الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ص ٤٦ بتصرف.

٦. ضوابط الرواية عند المحدثين، الصديق بشير نصر، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط ١، ١٩٩٢م، ص ٣٤٢: ٣٤٧.

الرأي (ت: ١٣٤هـ)، وعطاء الخراساني (ت: ١٣٥هـ)، والأوزاعي (ت: ١٥٧هـ)، وأئمة المذاهب الأربعة.

فهل من الممكن أن يتفق أمثال هؤلاء - وهم من هم في الورع والعلم - على تثبيت نظام من الأنظمة، ودعوة الناس إلى مؤازرته والخضوع له، ولو أدى بهم ذلك إلى اختلاق الأحاديث، لتأكيد هذه الدعوى، وكأنهم شذمة من المتأمرين؟ وإذا صح لغيرهم أن يفعلوا ذلك فهل يرضى هؤلاء بذلك، وهم يعلمون أنه خطر يهدد الإسلام، وأن السكوت عليه خيانة للمسلمين؟

ويحق لنا أن نسأل: كيف ترضى الفرق الأخرى، التي تنازع نظام الحكم القائم، بهذا الصنيع وهي تعلم أنه دسٌ واختلاق؟ والعقل يقول: إنه لو أحسَّ هؤلاء بأن تلك الأحاديث موضوعة لغرض تثبيت نظام الحكم الذي ينازعونه لشنعوا بذلك أيما تشنيع، ولشهرّوا بواضعيها أيما تشهير، ولكن هذا لم نجده؛ لأنه لم يصح إلا في ذهن أعداء السنة، وقد فاتهم أن عصر بني أمية وبني العباس لم يخل من علماء نقد الحديث، وهم علماء الجرح والتعديل أمثال: شعبة بن الحجاج (ت: ١٥٩هـ)، وسفيان الثوري (ت: ١٦١هـ)، وعبد الرحمن بن مهدي (ت: ١٩٨هـ)، ويحيى بن سعيد القطان (ت: ١٩٨هـ)، هؤلاء وغيرهم هم الذين غرّبوا الحديث، وحذفوا الموضوعات وأظهروها، فهل غابت عنهم تلك الأحاديث التي ذكرها أعداء الإسلام، ومعظمها في الصحيحين، حتى يأتي أديعاء العلم في آخر الزمان ليبيّنوا لنا أنها موضوعة؟

وحتى لو افترضنا أن أعداء السنة لا يقصدون بزعمهم هذا أن هؤلاء العلماء وضعوا هذه الأحاديث - أي اختلقوها - فإن مجرد تسخيرهم لها لتثبيت دعائم

- لو افترضنا جدلاً صحة ادعائهم - يؤكدّها القرآن الكريم ويصدقها، قال ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩)، وقال الله ﷻ ذاماً الفتن ومحذراً من الارتكاس فيها: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (الأنفال: ٢٥)، وقال الله ﷻ: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٩١).

وكون الفتنة أشد من القتل؛ لأن شرورها لا تنقطع كالنار لا تَبْقَى على شيء، فهذا إذن أكبر دليل على أن مجموع تلك الأحاديث التي تحض على الطاعة، وتجنب الفتن، سبقت الخلافات والنزاع حول الحكم.

وأما النظر: فإنه يكذب هذا الادعاء؛ لأن اجتماع الفقهاء أو أهل الحديث أو جميعهم على وضع هذه المبادئ - كما يزعم الزاعمون - لا يمكن أن يتحقق، واجتماعهم على الكذب على رسول الله ﷺ لا يتأتى، ففي زمن بني أمية كان هناك كثير من الصحابة أمثال: أبي هريرة (ت: ٥٩هـ)، والنعمان بن بشير (ت: ٦٤هـ)، وعبد الله بن عمرو (ت: ٦٥هـ)، وعبد الله بن عباس (ت: ٦٨هـ)، وعبد الله بن عمر (ت: ٧٣هـ)، وأنس بن مالك (ت: ٩٣هـ).

وكان هناك عدد كبير من الفقهاء والأعلام أمثال: سعيد بن المسيب (ت: ٩١هـ)، وعروة بن الزبير (ت: ٩٤هـ)، وخارجة بن زيد (ت: ١٠٠هـ)، وأمثال: الشعبي (ت: ١٠٥هـ)، وسالم بن عبد الله (ت: ١٠٦هـ)، وابن سيرين (ت: ١١٠هـ)، وهذه الدولة العباسية بدأت بخلافة أبي العباس السفاح سنة ١٣٢هـ، وكان ممن حضر قيامها من أئمة الفقهاء ربيعة

الحكم الأموي تارة، والحكم العباسي تارة أخرى، مسبةً أيضًا، وفرية لا يقولها عاقل.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المتأمل يجد أن إشاعة هذه الأحاديث النبوية مصلحة للناس قبل أن تكون مصلحة للحكام؛ لأنه في أغلب الفتن لا يتأذى بويلاتها إلا الناس، ولا يبلغ الحكام إلا دخانها، وفي الفتن تختلط الأمور وتتداخل، فيدعي كل طرف فيها أنه على حق، وأن غيره على باطل، ومن لم يتبين أي الأطراف على حق، كان أولى به أن يعتزل الفتن.

كما أن الإسلام جاء داعيًا إلى التكتل والجماعة، وحذر من الفرقة والانقسام؛ لأن هلاك المسلمين في تفرقهم شيعًا وأحزابًا، يقول ﷺ: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، ويقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٥٩)، ويقول ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ (آل عمران: ١٠٥).

والأحاديث النبوية التي تدعو إلى الجماعة، وعدم الخروج عنها توضح هذه الحقيقة القرآنية، حقيقة أن فساد أمر المسلمين بافتراقهم، وهي حقيقة يعيها جيدًا أعداء السنة، إلا أنهم يتجاهلونها ليزعموا أن هذه الأحاديث موضوعة لخدمة الحكام، وذلك بعدم دفع المسلمين إلى الخروج على الحكام ولو كانوا جائرين، وتجاهلوا أن من شرع المسلمين عدم الخروج على السلطان لجور أو ظلم ما لم يأمر بمعصية^(١).

يقول شارح العقيدة الطحاوية: "قد دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولي الأمر ما لم يأمر"

بمعصية، فتأمل قوله ﷺ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩)، كيف قال: وأطيعوا الرسول، ولم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم؛ لأن أولي الأمر لا يفردون بالطاعة، بل يطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله، وأعاد الفعل مع الرسول؛ للدلالة على من أطاع الرسول فقد أطاع الله، فإن الرسول لا يأمر بغير طاعة الله، بل هو معصوم في ذلك، وأما ولي الأمر فقد يأمر بغير طاعة الله، فلا يُطاع إلا فيما هو طاعة لله ورسوله ﷺ.

وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا؛ فلأنه يترتب على الخروج عن طاعتهم من المفاصد أضعاف ما يحصل من جورهم، وقل من خرج على إمام إلا كان ما تولد عن فعله من الشر أعظم ما تولد من الخير^(٢).

إذن طاعة ولي الأمر، والتحذير من الفتن والفرقة من حقائق القرآن الكريم، ومن أبرز تعاليم الإسلام، ولم يكن مقتصرًا على السنة النبوية فحسب، حتى يزعم الزاعمون أن علماء الحديث قد اختلقوا الأحاديث في ذلك إرضاءً للحكام والأمراء، وتثبيتاً لدعائم ملكهم.

بل إن من الحقائق التي لا مرء فيها أن علماء الحديث "كانوا حفظة الشريعة وحراس الأرض: فهم فرسان هذا الدين؛ وقفوا بالمرصاد لحركة الوضّاعين من أعداء الإسلام، وأسفر صمودهم عن أدق منهج وأحكمه في نقد الروايات وتمحيصها، والتمييز بين غثها وثمينها، فأبلوا في ذلك أحسن البلاء وبرزوا في هذا المضمار، واستحدثوا فيه العلوم وقعدوها، وضبطوها وأصلوها، وجاءوا بالعجب العجاب في حفظ السنة

٢. شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، (١/ ٢٥٢).

١. المرجع السابق، ص ٣٤٢: ٣٤٧.

مروان في موطنه، وكذلك بأقضية أبيه مروان وفتاويه، كما أن غالب خلفاء بني العباس قد عرفوا بتحري الحق والعمل به، مثل: السفاح، والمنصور، والمهدي، والرشيد، وقد جمع مالك موطأه في عصر بني العباس.

• إن المتأمل في السنة النبوية يجد العديد من الأحاديث التي تشدد النكير على تصرفات ولاة الأمور، وتتوعددهم بعذاب شديد إذا ظلموا، وتحث على قول الحق عند السلطان الجائر، فهل لو دونت السنة في قصور السلاطين تبعاً لأهوائهم كنا نجد مثل هذه الأحاديث.

• لقد حث القرآن الكريم في كثير من آياته على وجوب طاعة أولي الأمر، كما حذر من الفتنة التي تؤدي إلى تشتيت كلمة المسلمين، فهذا إذن مبدأ قرآني وجد قبل أن يكون هناك نزاع على الحكم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن إشاعة الأحاديث التي تدعو إلى طاعة الحكام وتجنب الفتن تحقق مصلحة عامة للناس قبل أن تكون مصلحة للحكام؛ لأن أغلب الفتن لا يتأذى بويلاتها إلا العامة، ولا يبلغ الحكام إلا دخانها، كل هذا يؤكد أنه لا مصلحة للحكام في اختلاق مثل تلك الأحاديث.



المطهرة" (١)، فكانوا آية تصدق آية ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر).

وخلاصة القول: أن هذه الأحاديث التي استدل بها الزاعمون أحاديث صحيحة، ولم تدون في قصور الأمراء أو وضعت لإرضاءهم كما يزعمون، وإنما هي أحاديث يؤيدها القرآن الكريم أيضاً، فلا مجال للقول بأنها من اختلاق المحدثين لطاعة الخلفاء.

الخلاصة:

• لم تكن علاقة العلماء عموماً ومنهم علماء الحديث بالحكام علاقة وطيدة، بل كانت قلقة لدرجة أن بعضهم لا يقبل حديثاً في سنده رجل عُرف بالتردد على أبواب الملوك، كما كانوا يترفعون عن التردد عليهم، ولم يكونوا يتهاونون في الاحتجاج على الباطل، حتى ولو صدر من أصحاب القصور والصولجان، ومن كانت له منهم علاقة بأحد الحكام، فهذه العلاقة لم تكن علاقة تابع بمتبوع، بل كانت علاقة عالم مرشد ناصح لأولي الأمر، طاعته واجبة في المعروف، كما أن نصيحته واجبة أيضاً.

• لم يكن ولاة الأمر من الأمويين والعباسيين جماعة دنيويين كما صورتهم الأخبار التي وضعها أعداؤهم من الشيعة، بل كانوا على درجة كبيرة من العلم والتقوى، تمنعهم من أن يشجعوا أحداً على وضع واختلاق أحاديث على النبي ﷺ، ويكفيننا أن نعلم أن الإمام مالكا قد احتج بقضاء عبد الملك بن

١. الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث في القرن الثاني الهجري، د. عبد المجيد محمود، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ٣.

الشبهة الخامسة عشرة

اتهام الفقهاء بوضع الأحاديث لإرضاء

خلفاء بني العباس (*)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض المغرضين أن الفقهاء كانوا يضعون الأحاديث المزوّرة من أجل إرضاء خلفاء بني العباس وإشباع نزواتهم، ويستدلون على ذلك بما يلي:

• قصة غَيَّات بن إبراهيم النخعي الكوفي مع الخليفة المهدي الذي كان يهوى سباق الحمام؛ إذ تمكّن المهدي من إقناع غَيَّات بأن يسند حديثاً في هذا الصدد؛ فقال: "لا سباق إلا في خفٍّ أو حافرٍ أو جناح"، فأجزل له المهدي العطاء، وواصل هوايته .

• أن الفقهاء كانوا يحضرون مجالس الخلفاء التي يُشرب فيها الخمر، فيتناقشون في أثنائها في حد شرب الخمر، وقد وجدوا للخليفة العباسي الراضي - الذي كان يلتزم بتحريم الخمر - من يحدثه عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: "إن خفتم أن تسكروا فاكسروا حدته بالماء". رامين من وراء ذلك إلى إيهام المسلمين بأن السنة التي بين أيديهم من وضع الفقهاء لإرضاء الخلفاء.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) لقد أجمع المسلمون على جواز المسابقة في الجملة، فالمسابقة بغير عوض تجوز مطلقاً من غير تقييد بشيء معين، كالمسابقة على الأقدام والسفن والطيور (وفيها الحمام بطبيعة الحال) والبغال والحمير، ومن هنا لم يكن المهدي بحاجة إلى تزوير حديث لممارسة

(*) كيف ولماذا التشكيك في السنة، د. أحمد عبد الرحمن، مرجع سابق.

هوايته.

(٢) من المعروف بين علماء الحديث والفقهاء أن غَيَّاتاً لم يكن معدوداً بين المحدثين، فقد نبذه المحدثون كما نبذوا المثات من أمثاله، والمهدي نفسه كان يعلم أن الرجل كذّاب، وقد قال لما قام غَيَّات من عنده: "أشهد أن قفاك قفا كذّاب"، وهذا دليل على أن المسلمين كانوا قادرين على كشف المزور من الأحاديث، وتمييز صحيحها من سقيمها.

(٣) لا شك أن اتهام الفقهاء بهذه التهمة من الظلم البين، فكيف يعقل أن يكونوا فقهاء ومحدثين، ويشربون الخمر، ويحضرون مجالسها، فضلاً عن وضع أحاديث تُحُلُّها، وهم الذين دافعوا عن السنة ومحصوها وميزوا صحيحها من سقيمها؟! كما أن فضائل الراضي تنفي عنه ما نُسب إليه؛ إذ كيف يلتزم بالأحاديث الصحيحة التي تبين حرمة الخمر وتوضح حده، ثم يسوّغ لنفسه أن يقبل حديثاً موضوعاً ومكذوباً على النبي ﷺ في إباحتها؟!!

التفصيل:

أولاً. إجماع العلماء على جواز المسابقة في الجملة بغير عوض ودون تقييد بشيء:

إن المسابقة جائزة بالسنة والإجماع، أما السنة فقد روي أن النبي ﷺ سابق بين الخيل المضمرّة^(١) وبين التي لم تضمر^(٢)، وقد أجمع علماء المسلمين على جواز المسابقة.

١. تضمير الخيل: تقليل علفها مدة حتى يخف لحمها وتقوى على الجري.

٢. انظر: صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجهاد والسير، باب: السبق بين الخيل، (٦/ ٨٣)، رقم (٢٨٦٨).

بعوض إلا في النصل والخف والحافر، أي في التدريب على حمل السلاح، وفي أعمال الفروسية، لقول النبي ﷺ: "لا سبق إلا في خف، أو نصل، أو حافر"^(٣).

والسَّبَق: هو ما يجعل للسابق على السبق من جُعل، ولأن هذه الأمور آلات القتال، فيجوز التسابق إذن على كل ما هو نافع في الحرب.

أما المسابقة على الأقدام والمصارعة، فلا تجوز بعوض؛ لأنها لا تنفع في الحرب، وعليه، فإن المسابقة بغير عوض جائزة مطلقاً في الخيل، وغيرها من الدواب والسفن، وبين الطير - بما فيه الحمام - لإيصال الخبر بسرعة، كما أنها جائزة على الأقدام وفي رمي الأحجار والمصارعة^(٤).

وبهذا يتضح أن سباق الحمام ليس محرماً، فإذا واصل المهدي هوايته فذلك لأنها حلال ككل المسابقات المشروعة.

ومن هنا فلم يكن المهدي بحاجة إلى مَنْ يزور له الأحاديث حتى يستطيع ممارسة هوايته.

ثانياً. غِيَاثُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ فِي مِيزَانِ الْجَرَحِ وَالتَّعْدِيلِ:

لقد بيّن المحدثون والفقهاء أن غِيَاثُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ ليس من أهل الحديث، ولا من الذين يُعتد بروايتهم، بل هو واحد من الذين اجترءوا على ساحة السنة، وتقرّبوا إلى الملوك والأمراء والخلفاء بالفتاوى

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة، (١٩ / ١٣٦)، رقم (١٠١٤٢). وصححه أحمد شاعر في تعليقه على المسند.

٤. انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م، (٥ / ٧٨٦: ٧٨٨).

والمسابقة مستثناة من ثلاثة أمور ممنوعة: هي القمار، وتعذيب الحيوان لغير الأكل، وحصول العوض والمعوض عنه لشخص واحد، وذلك إذا قُدّم العوض لكلا المتسابقين ليأخذه السابق.

والمسابقة نوعان: مسابقة بغير عوض، ومسابقة بعوض.

أما المسابقة بغير عوض: فتجوز مطلقاً من غير تقييد بشيء معين كالمسابقة على الأقدام والسفن والطيور والبغال والحمير والفيلة، وكذلك تجوز المصارعة ورفع الحجر ليعرف الأشد، بدليل ما قالته عائشة رضي الله عنها: "سابقني النبي ﷺ فسبقته، فلبثنا حتى إذا رهقني اللحم سابقني، فسبقني، فقال: هذه بتيك"^(١). وصارع النبي ﷺ رُكَّانَةَ، فصرعه النبي ﷺ، ومَرَّ النبي ﷺ بقوم يرفعون حجراً ليعرفوا الأشد منهم، فلم ينكر عليهم، وتقاس بقية أنواع المسابقة على المذكور.

وأما المسابقة بعوض: فلا تجوز عند الحنفية إلا في أربعة أشياء؛ في النصل، والحافر، والخف، والقدم؛ لأن الثلاثة الأولى آلات الحرب المأمور بتعلمها، قال ﷺ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠)، وقال النبي ﷺ: "وليس من اللهو إلا ثلاث: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته امرأته، ورميه بقوسه..."^(٢).

في حين قال الجمهور غير الحنفية: لا يجوز السباق

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، رقم (٢٤١٦٤). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٢. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث عقبه بن عامر الجهني، رقم (١٧٣٧٣). وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: حسن بمجموع طرقه وشواهد.

وقيل بعشرة آلاف درهم، فلما قام قال: أشهد على قفاك أنه قفا كذاب على رسول الله ﷺ، ثم قال المهدي: أنا حملته على ذلك، ثم أمر بذبج الحمام، ورفض ما كان فيه منه^(٤).

وتبدو القصة مختلفة؛ لأن سباق الحمام لم يكن محرماً في أي وقت، وقد مارسه المسلمون في كل زمان ومكان بإجازة النبي ﷺ له، وبممارسة السبق مع الصحابة. ومما يدل كذلك على أن القصة مختلفة، ما ورد فيها من أن المهدي أمر لغيث بعشرة آلاف درهم، فلما قام قال: أشهد أن قفاك قفا كذاب، فهل يكافؤه وهو يعلم أنه كذاب؟!

ولو فرضنا صحة القصة لكانت شاهداً على أن المسلمين كانوا قادرين على كشف أي تزوير في أحاديث نبيهم ﷺ، مهما كان ضئيلاً، وإنهم كانوا يرفضونه كما فعل الخليفة المهدي^(٥).

ثالثاً. إن لأصحاب الحديث وعلماء الأمة شرف يتنزهون به عن أفعال السفهاء، فما بالناس بوضع أحاديث تبيح الخمر مرضاة للخلفاء!

إذا كان الحديث بعد القرآن هو عمدة أهل السنة، وإذا كانت دواوين أصحاب الحديث - بعد القرآن - دعائم الإسلام التي قامت عليها صروحه، فإن ذلك يدلنا على عظم مكانة المحذّثين بين علماء أهل السنة جميعاً، وهم بحق يصدق فيهم قول سفيان الثوري رحمه الله: "الملائكة حراس السماء، وأصحاب الحديث

٤. حماية السنة من الأكاذيب والأباطيل، د. صالح الفقي، دار النور، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٢٣ بتصرف.

٥. كيف ولماذا التشكيك في السنة، د. أحمد عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ٤٣ بتصرف.

الكاذبة والأقوال المخترعة التي نسبوها إلى الشريعة، وكذبوا على رسول الله ﷺ إرضاءً للأهواء والمصالح الشخصية.

فلم يكن غيَّاث معدوداً بين المحذّثين، وقد قال عنه الإمام أحمد: "ترك الناس حديثه"، وروى عن ابن عباس عن يحيى: "ليس بثقة". وقال الجوزجاني: "كان فيما سمعت غير واحد يقول: يضع الحديث". وقال البخاري: "تركوه"^(١).

إن وجود رجل كذاب، وضاع، متروك، نبذه المحذّثون والفقهاء، كما نبذوا المثات من أمثاله - لا يثبت أن الفقهاء والمحدّثين زوّروا الأحاديث لإرضاء أمراء بني العباس، والمهدي نفسه كان يعلم أن الرجل منافق كذاب، وقد قال لما قام غيَّاث من عنده: "أشهد أن قفاك قفا كذاب"^(٢).

ولعلنا بذكر القصة التي دارت بين غيَّاث بن إبراهيم النخعي والخليفة المهدي نلقي مزيداً من الضوء على طريق دفع هذه الشبهة، فقد أدخل غيَّاث على المهدي، وكان المهدي يشتري الحمام ويلعب به، فقيل له: حدّث أمير المؤمنين، فقال: حدثنا فلان عن فلان أن النبي ﷺ قال: "لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر أو جناح"^(٣).

فزاد في الحديث "أو جناح"، فأمر له المهدي ببدره

١. ميزان الاعتدال، الذهبي، مرجع سابق، (٣/ ٣٣٧).

٢. المرجع السابق، ص ٤٣ بتصرف.

٣. هذه الزيادة "أو جناح" موضوعة، انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الشيخ الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط ٢، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، أثناء الكلام على الحديث، رقم (٢٠٥٨)، والقصة بهذه الزيادة "أو جناح" أوردها ابن الجوزي في كتابه الموضوعات، مرجع سابق، (١/ ٤٢).

حراس الأرض" (١).

المسموع.

ومنهم كل عالم فقيه، وإمام رفيع نبيه، وزاهد في قبيلة، ومخصوص بفضيلة، وقارئ متقن، وخطيب محسن، وهم الجمهور العظيم، وسبيلهم السبيل المستقيم، وكل مبتدع باعتقادهم يتظاهر، وعلى الإفصاح بغير مذهبهم لا يتجاسر، من كادهم قصمه الله، ومن عاندهم خذله الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا يفلح من اعتزلهم، المحتاط لدينه إلى إرشادهم فقير، وبصر الناظر بالسوء إليهم حسير، وإن الله تعالى على نصرهم لقدير" (٢).

ولو دققنا النظر قليلاً لوجدنا أن علماء الحديث أنفسهم كانوا لا يقبلون حديثاً في سنده رجل عُرف بالتردد على السلاطين، أو قبول هدايا منهم، أو كانت له حظوة عندهم، وهذا منهم احتياط عظيم للحماية السنة من الدخيل والعليل والمكذوب.

فكيف يصح مع هذا اتهام علماء الحديث بأنهم وضعوا الأحاديث طمعاً فيما عند أمراء بني العباس (٣)، وهل يُعقل أن يكون هناك فقيه ومحدث يدافع عن سنة النبي ﷺ ثم يعمل بأفعال السفهاء، ويحضر مجالس الخمر، بل يضع أحاديث في تحليلها مرضاة للخلفاء؟! ولو فرضنا أن هناك فعلاً فقهاء فعلوا هذا، فهل من العقل أن يُطلق عليهم لفظ: فقهاء، وقد جُرِّحوا في عدالتهم!؟

ثم إننا إذا نظرنا في كتب التاريخ وجدنا أن الخليفة العباسي الرازي - الذي يزعم المدَّعون أن الفقهاء

ويقول أبو حاتم الرازي رحمه الله: "لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم، أمناء يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة، فقال له الرجل: يا أبا حاتم ربما رووا حديثاً لا أصل له، ولا يصح؟ فقال: علماءهم يعرفون الصحيح من السقيم، فروايتهم ذلك للمعرفة، ليتبين لمن بعدهم أنهم مَيَّزوا الآثار وحفظوها" (٢).

وإذا كنا متفقين على أنه لا قيام للإسلام بدون سنة، فقد صدق فيهم ما قاله الإمام أبو داود الطيالسي: "لولا هذه العصابة لاندرس الإسلام"، يعني أصحاب الحديث الذين يكتبون الآثار.

في حين يقول الخطيب البغدادي: "وقد جعل الله تعالى أهله أركان الشريعة، وهدم بهم كل بدعة شنيعة، فهم أمناء الله في خليقته، والواسطة بين النبي ﷺ وأُمَّته، والمجتهدون من حفظ ملته، قبلوا شريعته قولاً وفعلاً، وحرسوا سنته حفظاً ونقلًا حتى ثَبَّتُوا بذلك أصلها، وكانوا أحق بها وأهلها، وكم ملحد يروم أن يخلط بالشريعة ما ليس منها، والله تعالى يذب بأصحاب الحديث عنها، فهم الحفاظ لأركانها.

وكل فئة تتحيز إلى هوى ترجع إليه، أو تستحسن رأياً تعكف عليه، سوى أصحاب الحديث، فإن الكتاب عدَّتْهم، والسنة حجَّتْهم، والرسول ﷺ فتَّتْهم، وإليه نسبَّتْهم، لا يعرجون على الأهواء، ولا يلتفتون إلى الآراء، يُقبل منهم ما رووا عن الرسول، إذا اختلف في حديث كان إليهم الرجوع، فما حكموا به فهو المقبول

٣. السابق، ص ٢٧، ٢٨.

٤. الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية، د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، مرجع سابق، ص ٤٦ بتصرف.

١. شرف أصحاب الحديث، الخطيب البغدادي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط ٢، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص ٩١.
٢. المرجع السابق، ص ٨٩.

تسكروا فاكسروا حدثه بالماء" - وجدناه حديثاً موضوعاً، ولا أصل له في كتب السنة.

ثم إن تحريم الخمر ثابت بالأدلة القاطعة، ومنها: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها، لم يتب، لم يشربها في الآخرة"^(٤)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "سئل رسول الله ﷺ عن البتّع^(٥)، فقال: كل شراب أسكر فهو حرام"^(٦).

وعلى كل فإن هذه الفرية التي ألصقوها بالخليفة الراضي، تبدو - كسابقها - مختلفة، وكما ذكرنا فإن الباعث على اختلاقها الرغبة في النيل من خلفاء بني العباس، فالنصوص المذكورة في تحريم الخمر صريحة وقاطعة، والعقل ينفي أن يأخذ الخليفة العباسي الراضي بحديث مزور، ويترك الأحاديث الصحيحة في تحريمها، وقد ثبت عنه أنه كان يلتزم بتحريم الخمر.

وعليه، فلو فرضنا جدلاً صحة هذه القصة لكانت دليلاً عليهم، وعلى كذبهم، لما علم من حال الراضي من التنزه عن ذلك.

الخلاصة:

• إن المسابقة بغير عوض جائزة مطلقاً من غير

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الأشربة، باب: بيان أن كل مسكر خمر، (٧/ ٣٠٩٩)، رقم (٥١٢٠).

٥. البتّع: نبيذ العسل.

٦. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأشربة، باب: الخمر من العسل وهو البتّع، (١٠/ ٤٤)، رقم (٥٥٨٦).

صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الأشربة، باب: بيان أن كل مسكر خمر، (٧/ ٣٠٩٨)، رقم (٥١١٣).

وضعوا له حديثاً في إباحة الخمر - من الشخصيات التي برزت في حكم بني العباس، وكان لها كثير من الفضائل، قال أبو بكر الخطيب: "له فضائل منها: أنه آخر خليفة خطب يوم الجمعة، وآخر خليفة جالس الندماء، وآخر خليفة له شعر مدوّن، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش. وكانت جوائزه وأموره على ترتيب المتقدمين منهم"^(١)، وكان سمحاً جواداً أديباً فصيحاً محباً للعلماء.

"وعن أبي الحسن العباس بن عمر بن العباس الكلوذاني قال: سمعت أبا بكر محمد بن يحيى الصولي يقول: سمعت أمير المؤمنين الراضي بالله يقول: لله أقوام هم مفاتيح الخير، وأقوام مفاتيح الشر، من أراد به خيراً قصد به أهل الخير وجعله الوسيلة إلينا فنقضي حاجته، فهو الشريك في الثواب والشكر، ومن أراد الله به سوءاً عدل به إلى غيرنا، فهو الشريك في الوزر والإثم، والله المستعان على كل حال"^(٢).

"فهل هذا الخليفة الصالح يمكن أن يقبل حديثاً مزوراً من محدث كاذب، لإخراجه من حال الصلاح والورع إلى حال المعصية واقتراف الكبائر؟ وهل كان مجبراً على اجتناب الخمر، فيريد من يجللها له، أم كان طائعاً يارادته كارهاً لها من تلقاء نفسه"^(٣)!

وإذا انتهينا من ذلك ونظرنا في الحديث الذي استدلوا به على تحليل شرب الخمر ونسبوه إلى عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: "إن خفتم أن

١. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (١٥/ ١٠٣).

٢. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، (٢/ ١٤٣).

٣. كيف ولماذا التشكيك في السنة، د. أحمد عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ٨٤.

الشبهة السادسة عشرة

ادعاء أن علماء المسلمين كانوا يخترعون الكتب

وينسبونها للنبي ﷺ لإثبات قواعدهم

الفقهية حين تُعوزهم الروايات(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتقولين أن علماء المسلمين نسبوا للسنة ما ليس منها حين اخترعوا صحفًا مكتوبة وألصقوها بالنبي ﷺ على أنها تبين إرادته، فهي نصوص مُتخلقة لإثبات قواعدهم الفقهية التي أعوزتهم الروايات فيها، ويمثّلون لذلك بمسألة تعريف الصدقة، وما يتصل بها من كتب تفصّل شؤون الزكاة وأنصبتها في الإبل والبقر والغنم ونحوها. ويتساءلون: أليس قبول مثل هذه الصحف - قربة العهد - أيسر عند قوم قبلوا حلفًا بين اليمينية وربيعة يرجع لعهد تبع معد يكره حين أظهره بعض الناس توفيقًا بين عرب الشمال وعرب الجنوب؟! وهم بذلك يرمون إلى: تشكيك المسلمين فيما يُنسب للنبي ﷺ من صحف مكتوبة بشأن أحكام الصدقة؛ تمهيدًا للتشكيك في السنة النبوية جملة وتفصيلاً، بغية إنكارها وترك العمل بمقتضاها.

وجها إبطال الشبهة:

(١) لقد كان علماء المسلمين على حذر في قبول الصحف المكتوبة عن النبي ﷺ؛ ولذلك نقدوها وأجروا عليها قواعدهم الدقيقة، وما قبلوا منها إلا الصحيح الذي لا لبس فيه؛ ولذلك حكموا بالوضع

تقييد بشيء معين، كالمسابقة على الأقدام والسفن والطيور والبغال.

• إن مسابقة الطيور بغير عوض تجوز شرعًا، ومن ثم لم يكن الخليفة المهدي بحاجة إلى تزوير حديث في جواز ذلك.

• لقد تبين أن غيًّا أحد الذين اجترءوا على ساحة السنة وكذبوا على النبي ﷺ إرضاء للأهواء الشخصية، قال الإمام يحيى بن سعيد عنه: إنه كذاب، ليس بثقة ولا مأمون، والمهدي نفسه كان يعلم ذلك؛ فقد قال عنه لما قام: "أشهد أن قفاك قفا كذاب".

• القصة التي حدثت بين غياث والخليفة المهدي، تبدو مختلفة؛ إذ لا يعقل أن يترك الخليفة كذابًا يكذب على رسول الله ﷺ وهو يعلمه دون عقاب، ولو فرضت صحتها لكانت دليلاً على وعي العلماء والخلفاء بالكذابين والوضاعين مما يؤكد على الطمأنينة في كل ما أثبتوا صحته عن رسول الله ﷺ.

• إن لأصحاب الحديث وعلماء الأمة شرفًا ينتزهون به عن أفعال السفهاء؛ كشرب الخمر، وحضور مجالسها... فضلًا عن الإفتاء بتحليلها.

• إن ما كان عليه الخليفة العباسي الراضي من صلاح ينفي عنه ما نسب إليه من قبول حديث موضوع يجلّل الخمر.



(*) السنة ومكاتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق.

وقد كان من الجائز أن يكون لهؤلاء مسوغٌ في موقفهم لو أن علماءنا قبلوا هذه الصحف المكتوبة برمتها من غير ما بحث عن صحتها، لكنهم نقدوها وأجروها على قواعدهم الدقيقة واتخذوا جميع الوسائل لتمحيص الكلام المنسوب للنبي ﷺ والتمييز بين صحيحه وسقيمه، وهم الذين حفظوا الوفاً من الأحاديث الموضوعة ليكشفوا حقيقتها للأمة، وتتبعوا أحوال الرواة التي تساعد في عملية النقد وتمييز الطيب من الخبيث^(٢).

إن كل هذه القواعد وغيرها قد أُجريت على الصحف المكتوبة؛ ولذلك حكم علماء الحديث بالوضع على مثل نُسَخ ابن هذبة ودينار وأبي الدنيا الأشج وغيرهم، وفي الوقت ذاته نجدهم قد أجمعوا على صحة كتاب أبي بكر إلى أنس، وقد أخرج البخاري والنسائي وأبو داود والدارقطني والشافعي والحاكم والبيهقي.

إننا في الوقت الذي نعترف فيه بوجود موضوعات بشأن الصدقة وتعريفها، يجب أن نقر بالصحيح المجمع عليه في هذا الباب كالإجماع - الذي أسلفنا ذكره - على صحة كتاب أبي بكر إلى أنس، والذي أخرج البخاري قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن المثنى الأنصاري قال: حدثني أبي قال: حدثني ثمامة بن عبد الله بن أنس أن أنساً حدثه أن أبا بكر ﷺ كتب له هذا الكتاب لما وجهه إلى البحرين: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذه فريضة الصدقة التي فرض رسول الله ﷺ على المسلمين، والتي

على مثل نُسَخ ابن هذبة ودينار وأبي الدنيا الأشج وغيرهم، في مقابل إجماعهم مثلاً على صحة كتاب أبي بكر إلى أنس.

(٢) إن تلمُّس الدليل فيما لا يعد دليلاً ضرب من فقدان المرجعية؛ إذ إن الناس قد يصدقون كل شيء إلا أن يكون متصلًا برسول الله ﷺ منسوبًا إليه، فإنه يخضع لتمحيص شديد، ثم إنه لا يصح أن يتخذ الاختلاف في صحة نص في مسألة ما وردت فيها عدة نصوص دليلاً على وضع كل ما ورد فيها!

التفصيل:

أولاً. نقد علماء المسلمين للصحف المكتوبة:

إذا أمعنت النظر في حرص الصحابة على حفظ حديث رسول الله ﷺ ونقله، وحرص التابعين وتابعي التابعين ومن بعدهم على نقل هذا الحديث وجمعه، وتنقيته من شوائب التحريف والتزيُّد، وما قام به علماء السنة من جهود مُضنية في تَتَبُّع الكذابين والوَضَّاعين، وفضح نواياهم ودخائلهم، وبيان ما لَفَّقوه للسنة من أحاديث مكذوبة، حتى جُمعت السنة في كتب صحيحة، وأشبعها النقاد بحثاً وتمحيصاً، ثم خرجوا من ذلك إلى الاعتراف بصحتها والتسليم بها، إذا أمعنت النظر في ذلك كله؛ أيقنت أن المستشرقين، ومن سلك سبيلهم في التشكيك في السنة يخبطون في أودية الأوهام، ويتأثرون بأهوائهم، وتعصبهم في الحكم على حقائق يعتبر العبث بها - في نظر المحقق المنصف - إسفافاً وتلاعباً بالعلم، ولياً لأعناق الحقائق التاريخية ميلاً مع نظريات الهوى والعصبية^(١).

١. المرجع السابق، ص ١٨٤ بتصرف.

٢. الرد على المستشرقين في شبهاتهم حول السنة النبوية، محمد شيخ عبد الله، مكتبة عباد الرحمن، القاهرة، ط ١، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م، ص ٣٦، ٣٧ بتصرف.

نخلص من النص السابق بعدة نتائج تتعارض في مجملها على إثبات صحة كتاب أبي بكر لأنس رضي الله عنها في الصدقة وهي:

• ورود الكتاب في صحيح البخاري، وهو أصح كتب السنة، قاطع بصحته، بل اعتماد البخاري له في استنباط أصول زكاة الغنم.

• الراوي الوحيد الذي تُكلم فيه من رواية البخاري، وهو عبد الله بن المثنى، قال فيه ابن معين مرة: صالح، ومرة: ليس بشيء، لكن كبار علماء الجرح والتعديل على قبول روايته.

ذكر ابن حجر لهذا الحديث طرقاً أخرى تعضده، وهي: طريق أحمد وأبي داود وإسحاق بن راهويه، وكلها عن حماد بن سلمة عن ثمامة.

هناك قاعدة ذكرها علماء الحديث مفادها: أن البخاري إذا خرّج رواية لراوٍ متكلم فيه، فإنه يخرج له ما صفا من الروايات التي لم يُحطى فيها هذا الراوي.

وإذا كان العلماء قد أجمعوا على صحة كتاب أبي بكر إلى أنس في الصدقة، فإنهم اختلفوا في غيره من الكتب بين تصحيح وتحسين، ومنها ما جاء مراسلاً، ومنها ما جاء منقطعاً.

ومهما يكن من أمر فإن علماء الحديث لم يتلقوا هذه الصحف بالقبول من غير ما نقد ولا فحص، ولم يعتمدوا فقط على مجرد النص المكتوب، بل رووا محتوياته بالطرق المعتادة، مشافهةً راوياً عن راوٍ وهكذا، فكان اعتمادهم عليها من ناحيتين: النص المكتوب، والرواية الشفوية المتصلة^(١).

٣. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ٢١٨ بتصرف.

أمر الله بها رسوله، فمن سُئِلَها من المسلمين على وجهها فليُعْطها، ومن سُئِلَ فوقها فلا يُعْط..."^(١).

قال ابن حجر في شرح هذا الحديث ما نصه: "قوله: "حدثني ثمامة" هو عم الراوي عنه؛ لأنه عبد الله بن المثنى بن عبد الله بن أنس بن مالك، وهذا الإسناد مسلسل بالبصريين من آل أنس بن مالك. وعبد الله بن المثنى اختلف فيه قول ابن معين، فقال مرة: صالح، ومرة: ليس بشيء. وقواه أبو زُرْعة وأبو حاتم والعجلي، وأما النسائي فقال: ليس بالقوي. وقال العقيلي: لا يتابع في أكثر حديثه.

وقد تابعه على حديثه هذا حماد بن سلمة فرواه عن ثمامة أنه أعطاه كتاباً زعم أن أبا بكر كتبه لأنس وعليه خاتم رسول الله ﷺ حين بعثه مصدقاً فذكر الحديث.

وأخرجه أبو داود عن أبي سلمة عنه، ورواه أحمد في مسنده قال: "حدثنا أبو كامل حدثنا حماد قال: أخذت هذا الكتاب من ثمامة بن عبد الله بن أنس عن أنس أن أبا بكر... فذكره.

وقال إسحاق بن راهويه في مسنده: "أخبرنا النضر بن شميل حدثنا حماد بن سلمة أخذنا هذا الكتاب من ثمامة يحدثه عن أنس عن النبي ﷺ... فذكره.

فوضح أن حماداً سمعه من ثمامة وأقرأه الكتاب فانتفى تعليل من أعلّه بكونه مكاتبه، وانتفى تعليل من أعلّه بكون عبد الله بن المثنى لم يتابع عليه"^(٢).

١. صحيح البخاري (شرح فتح الباري)، كتاب: الزكاة، باب: زكاة الغنم، (٣/ ٣٧١، ٣٧٢)، رقم (١٤٥٤).

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، (٣/ ٣٧٢).

ثانياً. كتاب الزكاة والصدقات كان من بين الكتب التي كتبها النبي ﷺ في أحكام الإسلام:

إذا كان هؤلاء المغرضون يطعنون في صحة بعض كتب النبي ﷺ ككتاب الصدقة ويزعمون أن المسلمين هم الذين كتبوا هذه الكتب، ونسبوا إلى النبي ﷺ وهي آراؤهم الخاصة وليست من أقوال النبي ﷺ - فإننا نسألهم لماذا كتاب الصدقة بالذات؟ وماذا عن بقية الكتب في الزكاة وغيرها؟ وماذا عن آلاف المسائل الأخرى التي اجتهد فيها العلماء برأيهم ولم ينسبوا إلى النبي ﷺ؟! ولماذا نسبوا كتاب الصدقة فقط ولم ينسبوا بقية آرائهم؟ ومتى كان الاختلاف في صحة نص في مسألة وردت فيها عدة نصوص، دليلاً على أن كل ما ورد موضوع لا أساس له؟! وهل يُتخذ من وجود نص قديم مكتوب منذ عهد الرسول ﷺ دليلاً على أنهم كانوا يخترعون الكتب حين تعوزهم الروايات؟ وهل يعجز الذين وضعوا الحديث في مختلف نواحيه أن يضعوا بضعة أحاديث تفصل مقدار الزكاة دون أن يلجئوا إلى اختراع نص مكتوب^(١)؟!

وإذا تجاوزنا هذه التساؤلات إلى تساؤل آخر - من شأنه أن يلقي مزيداً من الضوء على جانب من جوانب هذه الشبهة - مؤداه: هل ينكر أحد معاهدات الرسول ﷺ وكتبه إلى الملوك والرؤساء؟!

فهناك صلح الحديبية وهي معاهدة مشهورة بين الرسول ﷺ والمسلمين من جانب، وبين أهل مكة من جانب آخر، وهناك صلح خيبر، ومعاهدة أهل الحدود بين الحجاز والشام وغيرها.

١. المرجع السابق، ص ٢٨ بتصرف.

وبعد صلح الحديبية كانت كتبه ﷺ إلى الملوك والرؤساء، فمنها رسالة إلى كسرى ملك الفرس، ورسالة إلى المقوقس عظيم القبط، ورسالة إلى هرقل قيصر الروم، ورسالة إلى النجاشي ملك الحبشة. فهذه الكتب وتلك المعاهدات ثابتة تاريخياً لا يستطيع أحد إنكارها.

وكما كتب ﷺ إلى الملوك والرؤساء، كتب عدة رسائل إلى عمال له، وإلى غير عمال، تضمنت بعض تشريعات الإسلام، وكان من بين هذه الرسائل، رسالة تضمنت أحكام الزكاة والصدقات؛ فقد روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال: "كان رسول الله ﷺ قد كتب الصدقة - في صحيفة - ولم يخرجها إلى عماله حتى تُوفي، قال: فأخرجها أبو بكر من بعده فعمل بها حتى توفي، ثم أخرجها عمر من بعده فعمل بها..."^(٢).

ومن هنا يتبين لنا أن فريضة الزكاة التي وردت في القرآن مجملة كتبها الرسول ﷺ مفصلة وعمل بها، فلما ولي أبو بكر الخلافة كتب كتباً وضمن هذه الكتب ما ورد في صحيفة رسول الله ﷺ الخاصة بالصدقات، ثم أرسلها إلى عماله في أقاليم الدولة الإسلامية^(٣).

"أما قضية النزاع بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وتصديقهم نصاً مكتوباً من عصر تبع، فهذا من أغرب الأمور في هذا الوطن، إذ إن الناس يتساهلون في كل

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب، (٦ / ٢٩٠)، رقم (٤٦٣٤). وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

٣. دراسات في السنة النبوية الشريفة، د. صديق عبد العظيم، مرجع سابق، ص ١١٠: ١١٤ بتصرف.

• كما لا يستطيع أحد أن ينكر معاهدات الرسول ﷺ ورسائله إلى الملوك والرؤساء، بحكم كونها ثابتة تاريخياً؛ فإنه من الواجب بالمثل أن نقر بما كتبه رسول الله ﷺ إلى عماله على الأمصار وإلى غيرهم، وأن صحيفة الصدقة واحدة من تلك الصحف المكتوبة.

• إن الاستدلال بنص مكتوب من عصر تبع معد يكرب على سرعة تلقي الناس وقبولهم الصحف حتى وإن كانت موضوعة، وهذا من قبيل تلمس الدليل فيما لا يعدُّ دليلاً؛ إذ إن الذين قبلوا النص المكتوب في قضية النزاع بين عرب الشمال وعرب الجنوب لم يكونوا من المحدثين، كما أن الصحيفة المستشهد بها إنما هي حلف بين اليمانية وربيعة، وفرق بين حلف منسوب لقبيلتين يخرجه بعض الناس توفيقاً بين فريقين، وبين حديث منسوب للنبي ﷺ يخرجه خليفة راشد تشريعاً للمسلمين.



الشبهة السابعة عشرة

الزعم أن التمسك الشديد، بالسنة كان من

دواعي الوضع (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن التمسك الشديد بالسنة أدّى إلى ظهور الوضع في الحديث. ويستدلون على ذلك بأن الناس تغالوا في أنهم لا يقبلون من العلم إلا ما

(*) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق. حجية السنة ورد الشبهات التي أثيرت حولها، الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية، مرجع سابق.

شيء إلا أن يكون متصلًا برسول الله ﷺ منسوبًا إليه، فهنا تفتتح العيون، وهنا يقوم البحث والاستقصاء؛ لأنه دين، وما كان لأحد أن يقبل دين الله بالوهم والظن والهوى، ثم إن الذين قبلوا النص المكتوب في النزاع بين عرب الشمال وعرب الجنوب لم يكونوا من علماء الحديث، فما صلة هذا بالموضوع^(١)!

إن تلمس الدليل فيما لا يعدُّ دليلاً ضرب من فقدان المرجعية، وكما رأينا فإن الواحد من هؤلاء المشككين يخترع الأكذوبة ويتخيلها، ويركّب لها في نفسه هيكلًا، ثم يلتقط من هنا وهناك ما يوهم أنه يؤيد مقالته ويعضد وهمه، ولا يبالي أن يكذب في النصوص، أو يغالط في الفهم، أو يستدل بما ليس بدليل ويعرض عن الدليل البيّن القاطع.

الخلاصة:

• لم يقبل المحدثون الصحف التي كتبت على عهد النبي ﷺ هكذا دون نقد وتمحيص، بل نقدوها وأجروا عليها قواعدهم الدقيقة؛ ولذلك نجدهم يحكمون بصحة كتاب أبي بكر إلى أنس رضي الله عنهما في الوقت الذي يحكمون فيه بالوضع على مثل نسخ: ابن هذبة ودينار وأبي الدنيا الأشج وغيرهم.

• ورد كتاب أبي بكر إلى أنس رضي الله عنهما في صحيح البخاري، وهو أصح كتب السنة، واعتماد البخاري إياه في استنباط أصول زكاة الغنم كافٍ لقبوله والاطمئنان إليه، فضلاً عن أن العلماء أجمعوا على أنها نسخة من كتاب رسول الله ﷺ في الصدقة.

١. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ٢١٨.

فهو أحق بها، فما الداعي لرفضها ما دامت لا تصادم نصوص الشريعة، ولا روحها، ولا غايتها السامية، ولا آدابها المطلوبة، وما الداعي إذن لوضع الأحاديث، أو صبغ الحكمة بصبغة دينية؟!

التفصيل:

أولاً. التشدد في قبول الرواية أدى إلى صيانتها وحفظها، وليس إلى الوضع فيها:

لقد بذل العلماء جهداً عظيماً لمقاومة الوضع في الحديث، وقد أدى هذا الاهتمام والتشدد في قبول الأحاديث، ورد ما خالف الصحيح منها، والاعتناء بالإسناد وجعله من الدين كل ذلك أدى إلى الحفاظ على السنة وتمحيصها ببيان صحيحها من سقيمها، فقد قيض الله ﷻ لسنة نبيه ﷺ رجالاً أمناء صدقوا في إخلاصهم لله ولرسوله، ونصبوا أنفسهم للذب عن السنة الشريفة فأنفوا أعمارهم في التمييز بين الصحيح والباطل صيانة للسنة النبوية وحفاظاً على الإسلام من الدسّ والتحريف، وفي سبيل تنقيح السنة، وتنقيتها من الوضع بذل علماء الأمة من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم جهوداً مخلصاً، فوضعوا قواعد الجرح والتعديل، وكان من ثمرة أعمالهم "علم مصطلح الحديث" وهو يشتمل على أدق الطرق العلمية للتحقيق والتوثيق وأقومها في التمحيص والنقد^(١).

ولقد اتخذ المحدثون والعلماء طرقاً عدة للحفاظ على السنة وصيانتها من كل دخيل عليها، ومما لا يليق نسبته للنبي ﷺ وكان من أهم ما اتخذوه للذود عن السنة

اتصل بالكتاب والسنة اتصالاً وثيقاً، ولما كانت هناك أحكام للحلال والحرام مؤسسة على مجرد الرأي، فإنها لم تحظ عند العلماء بالقبول؛ لأنها مؤسسة على غير الحديث، بل إن كثيراً من العلماء في ذلك العصر كان يرفضها ولا يمنحها أية قيمة، وربما شنع بعضهم على من ينحو هذا النحو.

ويستدلون كذلك بأن الحكمة والموعظة الحسنة إذا كانت من أصل هندي، أو يوناني، أو فارسي، أو من شروح التوراة والإنجيل لم يؤبه لها؛ فحمل ذلك كثيراً من الناس أن يصبغوا هذه الأشياء كلها بصبغة دينية حتى يأخذ بها الناس ويقبلوا عليها، فوجدوا الحديث هو الباب الوحيد المفتوح على مصراعيه فوضعوا الأحاديث لتأييد ذلك، فكان من أثر ذلك أن نرى الحكم الفقهي المصنوع، والحكمة الهندية، والفلسفة الزرادشتية، والموعظة الإسرائيلية والنصرانية مدعومة بمرويات من الحديث.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) التمسك بالسنة والتشدد في قبول الأخبار والأحاديث أدى إلى تمحيصها، وتمييز صحيحها من سقيمها والاهتمام بها، والحفاظ عليها، وليس الوضع فيها كما يزعم المغرضون.

(٢) القرآن الكريم والسنة النبوية هما مصدر التشريع الإسلامي، ولا يجوز لأحد أن يحكم في القضاء الإسلامي بخلاف ما جاء فيهما، ولا يجوز للمجتهد أن يجتهد في مسألة بغير الرجوع إليهما، ولم يثبت أن أحداً من أتباع المذاهب الفقهية قد اجتهد في مقابلة النص.

(٣) من المأثور أن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها

١. السنة النبوية وعلومها، د. أحمد عمر هاشم، مرجع سابق، ص ٩٢ بتصرف.

وصيانتها ما يلي:

١. علم الإسناد:

ولقد أشاد علماء الأمة به وأبانوا عن أهميته، وأنه لم يكن مثله لأمة من الأمم، قال محمد بن سيرين: "إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم"، وقال أيضًا: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة، فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع، فلا يؤخذ حديثهم"^(١)، وقال عبد الله بن المبارك: "الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء"^(٢)، وقال أيضًا: "بيننا وبين القوم القوائم، يعني الإسناد"^(٣).

٢. التثبت من الأحاديث:

وفي سبيل التثبت كانوا يتذكرون الأحاديث فيما بينهم لمعرفة ما يأخذون منها، وترك ما ينكرونه، كما كانوا على جانب كبير من الوعي والحيطه بحيث يحفظون الأحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعه، خشية أن تختلط عليهم، وحتى يستطيعوا التمييز بين الصحيح وغيره بدقة فائقة وحيطه بالغه، وروى أبو بكر بن الأثرم: أن أحمد بن حنبل رأى يحيى بن معين بصنعاء في زاوية وهو يكتب صحيفة معمر عن أبان عن أنس، فإذا طلع عليه إنسان كتبه، فقال له أحمد بن حنبل: تكتب صحيفة معمر عن أبان عن أنس، وتعلم

أنها موضوعه، فلو قال لك قائل: إنك تتكلم في أبان، ثم تكتب حديثه على الوجه؟ فقال: رحمك الله يا أبا عبد الله، أكتب هذه الصحيفة عن عبد الرزاق عن معمر على الوجه فأحفظها كلها، وأعلم أنها موضوعه حتى لا يجيء بعده إنسان فيجعل بدل أبان ثابتًا، ويرويها عن معمر عن ثابت عن أنس بن مالك، فأقول له: كذبت، إنما هي عن معمر عن أبان لا عن ثابت. وقال الثوري: إني لأكتب الحديث على ثلاثة وجوه: فمنه ما أتدين به، ومنه ما أعتبر به، ومنه ما أكتبه لأعرفه^(٤).

٣. نقد الرواة ودراسة حياتهم وتاريخهم وبيان

أحوالهم من صدق أو كذب:

وقد وصلوا عن طريق هذه الدراسة إلى تمييز الصحيح من المكذوب، وكانت لديهم قواعد اتبعوها وساروا عليها من الأخذ من الرواة أو عدم الأخذ منهم، فحصروا المتروكين الذين يكذبون على رسول الله ﷺ والذين يكذبون في أحاديثهم العامة، وإن لم يكذبوا على النبي ﷺ، وأصحاب البدع والأهواء والزنادقة، والذين لا يفهمون ما يحدثون به، ومن لا تتوافر فيهم صفات الضبط والعدالة والفهم، وقد كانوا في حكمهم لا يخافون في الحق لومة لائم، ولا تأخذهم عاطفة ولو كان الراوي أختًا لأحدهم، يقول زيد بن أبي أنيسة: "لا تأخذوا عن أخي"^(٥). وقد ألقت المصنفات الكبيرة في الرواة، وألقت كتب خاصة بالضعفاء فصار

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: بيان أن الإسناد من الدين... (١/ ١٧٣).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: بيان أن الإسناد من الدين... (١/ ١٧٣).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: بيان أن الإسناد من الدين... (١/ ١٧٣).

٤. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، (٢/ ٢٨٣، ٢٨٤) بتصرف.

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: بيان أن الإسناد من الدين، (١/ ١٨١).

ثانياً. لم يثبت أن أحداً من أتباع المذاهب الفقهية قد اجتهد في مقابلة النص الصريح:

لقد اتفق المسلمون سلفاً وخلفاً - إلا من لا يعتد بخلافهم من أصحاب البدع والأهواء - على أن الكتاب والسنة أصلان من أصول التشريع الإسلامي، لا يجوز لأحد أن يحكم في القضاء الإسلامي بخلاف ما جاء فيها، ولا يجوز لمجتهد أن يجتهد في مسألة بغير الرجوع إليهما، ثم انقسموا قسمين:

- قسم يرى الأخذ بظواهر النصوص من غير تعليل ولا توسُّع في القياس، وهم الظاهرية، وأكثر أهل الحديث.

- وقسم يرى إعمال الفكر في استنباط الأحكام من النصوص، فعملوا بالقياس مع الكتاب والسنة، وبحثوا عن العلة وخصَّصوا العام، وقَيَّدوا المطلق، وبينوا الناسخ من المنسوخ حين تقوم القرينة على ذلك كله، وهؤلاء هم جمهور المجتهدين وحملة العلم منذ عصر الصحابة حتى يومنا هذا.

نعم، كان هناك تفاوت بينهم في الأخذ بالقياس والتعليل، وفي الإحاطة بالسنة وشروط صحتها والعمل بها، ومن هنا كان الخلاف بين مدرسة الرأي ومدرسة الحديث، ولكنهم متفقون جميعاً على أنه لا يصح الاجتهاد في الفقه مجرداً غير منظور به إلى الحديث، بل أوجبوا على المجتهد أن يحيط بأحاديث الأحكام كلها لا يألو في ذلك جهداً.

والمجمع عليه لدى الأئمة المجتهدين، أن المجتهد ينظر أولاً في كتاب الله ﷻ، ثم في سنة رسوله ﷺ وفي أقوال الصحابة رضوان الله عليهم، ثم لا يتحول إلى الاستنباط

من السهل التمييز بين المحق والمبطل على أساس من القواعد الدقيقة حتى اكتمل هذا العلم منذ القرن الثالث الهجري على أيدي الأئمة الأعلام الذين أخذوا على عاتقهم حفظ السنة الشريفة، والذود عن حياضها، فألفوا الكتب الكثيرة في الجرح والتعديل.

٤. وضع قواعد عامة لتقسيم الحديث وتمييز الصحيح من غيره:

لم يكتف العلماء بالتزام الإسناد، والتثبت من الأحاديث بالرحلة، ومراجعة الأحاديث، ودراسة الأسانيد والطرق، وإنما ضمُّوا مع هذا تقسيم الحديث إلى درجات: صحيح وضعيف، وذلك لمعرفة القوي من الضعيف وما يُقبل وما يُرد.

وقد وضع العلماء قواعد يعرفون بها الحديث الموضوع، ويَبَيَّنوا العلامات الدالة على وضعه، منها ما هو في السند، ومنها ما هو في المتن^(١).

ونخلص مما سبق إلى أن تشدد العلماء والمحدثين في قبول الرواية أدى إلى صيانتها وحفظها من الموضوع الذي ليس من كلامه ﷺ، ولكنه نُسب إليه عن طريق بعض الرواة الكذابين الذين افتضح أمرهم فلم يقبل أحد الأخذ عنهم، ولم يكن الوضع أبداً من أسباب التشدد في قبول الرواية كما يزعمون، ولكن كانت له أسبابه ودواعيه المعروفة والمشهورة، التي أفاض العلماء في بيانها[®].

١. السنة النبوية وعلومها، د. أحمد عمر هاشم، مرجع سابق، ص ٩٢: ٩٥ بتصرف.

® في "جهود العلماء في الحفاظ على السنة من الوضع" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثالثة عشرة، والوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من هذا الجزء.

والقياس إن لم يكن هناك إجماع^(١).

على ضلالة^(٢)، وعندني أن إجماع الصحابة لا يجوز خلافهم؛ لأنه لا يجوز على جميعهم جهل التأويل^(٤). ولقد دافع الإمام أبو حنيفة - والذي ادّعى أنه كان يفتي في المسائل برأيه - عن نفسه، وردّ على ادعاءات خصومه القدماء ردوداً مفحمة، سجلتها الرواية الأمانة بكل إخلاص وصدق.

قال الإمام رحمه الله: "إننا نأخذ أولاً بكتاب الله، ثم السنة، ثم بأقضية الصحابة، ونعمل بما اتفقوا عليه، فإن اختلفوا قسنا حكماً على حكم، بجامع العلة بين المسألتين، حتى يتضح المعنى"^(٥).

فالذي يفهم من كلام الإمام أبي حنيفة أن أحكام الحلال والحرام كانت مؤسسة على اجتهاد مؤسس على الحديث، وليس كما زعم المشككون من أنها كانت مؤسسة على مجرد الاجتهاد، فهذا لم يحدث أصلاً، وكيف يستساغ قول هؤلاء الطاعنين إذا علم أن من قواعد أئمتنا المشهورة المسلمة لهم جميعاً أن الاجتهاد في مقابلة النص لا يجوز.

إذن القول بأن الأحكام كانت مؤسسة على مجرد الاجتهاد ثم وُضعت على هيئة أحاديث عندما دعت الحاجة إلى صبغها بصبغة دينية - زعم باطل لا أساس له من الصحة ولا دليل يؤيده، وكتبنا الإسلامية حافلة بما

٣. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذى)، كتاب: الفتن، باب: لزوم الجماعة، (٦/ ٣٢٢)، رقم (٢٢٥٥). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢١٦٧).

٤. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، مرجع سابق، ص ٧٥٩، ٧٦٠.

٥. الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية، د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، مرجع سابق، ص ٨٣.

وأخرج الحافظ ابن عبد البر في كتابه "جامع بيان العلم" عن الشافعي رحمه الله أنه قال: "ليس لأحد أن يقول في شيء: حلال أو حرام إلا من جهة العلم، وجهة العلم ما نصّ في الكتاب أو في السنة أو في الإجماع، فإن لم يوجد في ذلك فالقياس على هذه الأصول ما كان في معناها"^(٢).

وهكذا كانت أصول الأئمة المجتهدين، فهم يأخذون بكتاب الله ﷻ، فإن لم يجدوا في كتاب الله، فبسنة رسول الله ﷺ، فإن لم يجدوا في السنة فبالإجماع، فإن لم يجدوا، فبالقياس والاستنباط المؤسسين على الكتاب والسنة، ولم يثبت عن أحد منهم أنه اجتهد من هوى نفسه، وإنما كانت له أصول يسير عليها في اجتهاده.

قال الحافظ ابن عبد البر: "أما كتاب الله فيغني عن الاستشهاد عليه، ويكفي من ذلك قول الله تعالى:

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (الأعراف: ٣)، وكذلك

السنة يكفي فيها قوله ﷺ: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

(النساء: ٥٩)، وقوله ﷺ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

(الحشر: ٧)، وأما الإجماع فمأخوذ من قول الله ﷻ: ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النساء: ١١٥)؛

لأن الاختلاف لا يصح معه هذا الظاهر. وقول النبي ﷺ: "إن الله لا يجمع أمتي - أو قال: أمة محمد -

١. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ٢٤٠، ٢٤١ بتصرف.

٢. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، مرجع سابق، (١/ ٧٥٩).

ينقضه، ومن ادعى ذلك فقد افترى الكذب بغير علم على أصول الأئمة المجتهدين.

فالحق الذي لا مرأى فيه أن جل الأحكام التي يدور عليها الفقه في شتى المذاهب المعتمدة قد ثبتت بالسنة، ومن طالع كتب الفقه تبين له ذلك بكل جلاء؛ ولو حذفنا السنن، وما تفرّع عليها واستنبط منها من تراثنا الفقهي، ما بقي عندنا فقه يُذكر^(١).

وبناء على هذا الأساس، فإنه لا يتصور أن يكون هناك مذهب فقهي، أو إمام مجتهد يتعمّد في فقهه ترك حديث صحيح الثبوت، صريح الدلالة على الحكم، لا معارض له، والمراد صحته عنده هو، وصراحة الدلالة على الحكم عنده لا عند غيره.

وهذا ما عني ببيانه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الوجيز القيم "رفع الملام عن الأئمة الأعلام" الذي دافع فيه عن أئمة الفقه أمام بعض الحرفيين أو المتعجلين الذين اتهموهم بمخالفة الحديث وترك السنة، فقال: "وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة - المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً - يتعمّد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته، دقيق ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلا بد له من عذر في تركه، وجميع الأعدار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.

الثاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول.

١. المدخل لدراسة السنة النبوية، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م، ص ٤٥ بتصرف.

الثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ، وهذه الأصناف الثلاثة تتفرع إلى أسباب متعددة:

منها: ألا يكون الحديث قد بلغه؛ لأن الإحاطة بحديث رسول الله ﷺ لم تكن لأحد من الأئمة.

ومنها: أن يكون الحديث قد بلغه لكنه لم يثبت عنده؛ لأن راويه قد يكون مجهولاً عنده.

ومنها: عدم معرفته بدلالة الحديث... "إلى آخر ما ذكره"^(٢).

ونستطيع أن نؤكد هنا جازمين: أن جميع فقهاء المسلمين، من مختلف المدارس، وشتى الأمصار، ممن له مذهب باقٍ أو منقوض، متبوع أو غير متبوع، كانوا يرون الأخذ بالسنة، والاحتكام إليها، والرجوع إلى حكمها إذا تبينت لهم، جزءاً من دين الله، ولا يسعهم الخلاف عن أمرها، يستوي في ذلك المنتمي إلى مدرسة الرأي والمنتمي إلى مدرسة الحديث^(٣).

وهذا مما يؤكد أن الزعم بأن الاجتهاد لم يكن مؤسساً على الحديث لا أصل له من الصحة على الإطلاق.

ولو افترضنا جدلاً أنه وُجد اجتهاد غير مؤسس على النص الموجود في مقابلة اجتهاد آخر مؤسس على النص الموجود، وكلاهما في حكم واحد، فالطبيعي حينئذ أن نأخذ بالاجتهاد المؤسس على النص؛ وذلك لأن الاجتهاد في مقابلة النص الصريح لا يجوز على الإطلاق.

٢. رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ابن تيمية، مرجع سابق، ص ١١، ١٢.

٣. المدخل لدراسة السنة النبوية، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص ٥١.

ومن المأثور أن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها.

ونحن إذا نظرنا في القرآن الكريم، وجدنا في آياته البينات ما يدعو نبي الإسلام وجماعة المسلمين إلى أن يرجعوا إلى علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى ليسألوهم عن بعض الحقائق التي جاءت في كتبهم، وجاء بها الإسلام فأنكروها، أو أغفلوها، ليقم عليهم الحجة ولعلمهم يبتدون.

ومن هذه الآيات الدالة على إباحة رجوع النبي ﷺ ومن تبع دينه من المسلمين إلى أهل الكتاب ليسألوهم عن بعض ما عندهم من الحقائق، قول المولى ﷺ: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكِّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١٦) (يونس).

وقصص علينا القرآن الكريم كثيرًا من أخبار بني إسرائيل وغيرهم من الأمم السابقة، ومن ذلك قصة قتيل بني إسرائيل الواردة في قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْجَبُوا بَقْرَةَ﴾ (١٧) (البقرة) إلى قوله ﷺ: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْأَمْوَاتَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٧) (البقرة).

وقصة أمر موسى ﷺ لقومه أن يدخلوا الأرض المقدسة، وما كان من هلعهم وجبنهم، ثم دخولهم أرض التيه، وقصة ابني آدم هابيل وقابيل، وقصة المائدة، وقصة أصحاب الأخدود... إلخ (٢).

وكذلك فعل رسول الله ﷺ فقص علينا كثيرًا من

٣. انظر: الإسرائيليات في التفسير والحديث، د. محمد حسين الذهبي، مرجع سابق، ص ٤٥: ٤٧.

وعليه فإن القول بأن أحكام الحلال والحرام مؤسسة على مجرد الاجتهاد مع وجود النص قول باطل وفساد لا يصح بأي حال من الأحوال أن يكون دليلاً على إثبات الوضع في الحديث[®].

ثالثًا. الدين قد اكتمل وبلغ غاية الكمال، ولكنه لا يرفض الأخذ من الثقافات الأخرى مادامت لا تصادم نصوص الشرع ومقاصده:

إن دين الإسلام دين معرفة واسعة، ومعارفه ليست مقصورة على ما يدور في فلك المسلمين وحدهم من تشريعات خاصة، ووقائع تتصل بتاريخ حياتهم وجهادهم الطويل، وإنما تمتد معارفه إلى معارف أمم سالفه، وديانات سابقة تأخذ منها الحق لتؤيد به حقها، وتلفظ منها الباطل الذي لا يتفق وهديتها^(١).

وأهل السنة لا يرفضون الأخذ بالحكمة والموعظة الحسنة لمجرد أنها لم ترد في القرآن والسنة، مادامت لا تصادم نصوص الشريعة، ولا روحها، ولا غايتها السامية، ولا آدابها المطلوبة، فلا نعلم إمامًا من الأئمة رفض الأخذ بها لمجرد أنها لم ترد في الكتاب والسنة النبوية^(٢).

® في "استقلال السنة بالتشريع" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الأولى، والشبهة السابعة، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها). وفي "اعتماد الفقهاء جميعًا السنة مصدرًا ثانيًا للتشريع" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الحادية والثلاثين، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها).

١. الإسرائيليات في التفسير والحديث، د. محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ٤٥ بتصرف.

٢. السنة ومكائنها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ٢٤١ بتصرف.

أخبار بني إسرائيل، ومن ذلك: حديث الأبرص والأعمى والأقرع عند البخاري، فعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص، وأعمى، وأقرع، بدا الله ﷻ أن يتليهم فبعث إليهم ملكًا..." إلى آخر الحديث^(١).

ومن ذلك أيضًا قصة جريج العابد التي رواها البخاري عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له: جريج، كان يصلي، جاءته أمه فدعته، فقال: أجيبيها أو أصلي؟ فقالت: اللهم لا تمته حتى تربيه وجوه المومسات..."^(٢). ولذا قال رسول الله ﷺ: "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"^(٣).

قال الحافظ ابن حجر: "أي لا ضيق عليكم في الحديث عنهم؛ لأنه كان تقدم منه ﷺ الزجر عن الأخذ عنهم والنظر في كتبهم، ثم حصل التوسع في ذلك، وكان النهي وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية والقواعد الدينية خشية الفتنة، ثم لما زال المحذور وقع الإذن في ذلك، لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار... وقال مالك: المراد جواز التحدث عنهم

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، (٦/ ٥٧٨)، رقم (٣٤٦٤).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: في قول الله ﷻ: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ آهْلِهَا﴾، (٦/ ٥٤٩)، رقم (٣٤٣٦).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، (٦/ ٥٧٢)، رقم (٣٤٦١).

بها كان من أمر حسن، أما ما عُلم كذبه فلا"^(٤).
ومن هنا جاءت القاعدة الأصولية: "شرع من قبلنا شرع لنا إذا قصه الله أو رسوله علينا من غير نكير".
ولقد ثبت أن بعض الصحابة كأبي هريرة وابن عباس كانوا يرجعون إلى بعض من أسلم من أهل الكتاب يسألونهم عما في كتبهم.

وأبو هريرة وابن عباس وغيرهما ممن كانوا يرجعون إلى بعض من أسلم من أهل الكتاب كان لهم منهج سديد، ومعيار دقيق في قبول ما يلقي إليهم من الإسرائيليات، فما وافق شرعنا صدقوه، وما خالفه كذبوه^(٥).

فإذا ثبت أن بعض الصحابة قد أكثر من الأخذ عن كعب الأخبار، ووهب بن منبه حتى فاضت كتب التفسير بالإسرائيليات، كما فاضت كتب الصوفية والأخلاق بالحكم المنقولة عن الأمم الأخرى - إذا ثبت هذا كله، فكيف يصح الزعم أن المسلمين رفضوا الحكمة والموعظة الحسنة، إذا كانت من أصل غير إسلامي؟! فهذا ادعاء باطل ولا أساس له من الصحة على الإطلاق^(٦).

الخلاصة:

• لقد اعتنى المحدثون والعلماء بالسنة النبوية أيما اعتناء؛ وذلك حفاظًا عليها وصيانة لها من التحريف

٤. فتح الباري (بشرح صحيح البخاري)، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، (٦/ ٥٧٥).

٥. الإسرائيليات في التفسير والحديث، د. محمد حسين الذهبي، مرجع سابق، ص ٥١ بتصرف.

٦. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ٢٤٢ بتصرف.

الشبهة الثامنة عشرة

اتهام أئمة المسلمين بوضع أحاديث

تمجّد نبيهم وأمتهم (*)

مضمون الشبهة:

يتهم بعض المغالطين أئمة المسلمين بوضع الأحاديث التي فيها مدح أو تمجيد لرسولهم ﷺ، أو وصف الأمة الإسلامية بأنها أحسن الأمم، وغير ذلك من الأوصاف، ويزعمون أنها أحاديث موضوعة مكذوبة على النبي ﷺ.

ويستدلون على ذلك باختلاف هذه الأحاديث وتناقضها وتعارضها مع القرآن.

وجها إبطال الشبهة:

(١) إن في السنة الصحيحة كثيراً من الأحاديث التي تمجّد النبي ﷺ وأمته، مما يغني أئمة المسلمين عن الوضع في هذا الباب، فضلاً عن أنهم حماة السنة لا واضعوها.

(٢) إن الله ﷻ هو الذي مدح النبي ﷺ وبين فضل أمته، ثم جاءت السنة وعضدت ما أورده ﷻ، فكيف يدعون أن ثمة اختلافاً بين السنة والقرآن في هذا الصدد؟!

(*) منهجية جمع السنة وجمع الأنجيل، عزيزة علي طه، مرجع سابق. دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٢م. المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، سلسلة دعوة الحق، العدد (١٠٤)، السعودية، ١٩٩٠م. الاستشراق والمستشرقون: ما لهم وما عليهم، د. مصطفى السباعي، دار الوراق، السعودية، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

والتغيير والوضع الذي ظهر بعد الفتنة الكبرى، فقد تتبعوا أحوال الرواة وكشفوا عن صدقهم أو كذبهم، واشتروا الإسناد وجعلوه من الدين، ولم يخشوا في الله لومة لائم، حتى وإن كان الكاذب أحمًا أو ابناً أو غيره. فهل كل هذه الجهود كانت سبباً في الوضع أو سبباً في نفي الوضع عن السنة؟!

• إن جلّ الأحكام التي يدور عليها الفقه في شتى المذاهب المتبعة قد ثبت بالسنة، ومن طالع كتب الفقه تبين له ذلك بكل جلاء؛ ولو حذفنا السنن، وما تفرع عليها وما استنبط منها من تراثنا الفقهي ما بقي لنا فقه يُذكر.

• لا يتصور أن يكون هناك مذهب فقهي، أو إمام مجتهد يعتمد في فقهه ترك حديث صحيح الثبوت، صحيح الدلالة على الحكم، لا معارض له.

• إذا وجد لإمام من أئمتنا قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلا بد له من عذر في تركه؛ لأنه لا يتخيل أن يكون الحديث قد بلغه ويعمل بخلافه، أو يجتهد في مقابله.

• إن الاجتهاد غير المؤسس على الحديث الموجود بين يدي المجتهد لم يوجد أصلاً في تاريخ المذاهب الفقهية؛ وذلك لأن القاعدة تقول: "الاجتهاد في مقابلة النص لا يجوز"، وأما إذا لم يوجد النص فلا بأس بالاجتهاد.

• على الرغم من أن الدين الإسلامي قد اكتمل، وبلغ غاية الكمال في كل شيء، فإنه لا يرفض الأخذ بالحكمة والموعظة الحسنة، ما دامت لا تصادم نصوص الشريعة ولا غايتها السامية.



التفصيل:

أولاً. الأحاديث الصحيحة تبين فضائل النبي ﷺ وأمته:

إن من الجهل بمكان أن نتهم أئمة المسلمين بوضع الأحاديث لا سيما في تمجيد ومدح نبيهم ﷺ؛ وذلك لأن السنة الصحيحة مليئة بهذا النوع من الأحاديث بما يغني المرء عن مجرد التفكير في وضع حديث في مدحه ﷺ.

ثم إننا لو تأملنا قليلاً لنقف - جَدلاً - على دوافع أئمة المسلمين الذين وضعوا هذا النوع من الأحاديث، فإننا سنكتشف أمرًا عجبًا، وهو أن حبهم للنبي ﷺ هو الدافع الأول، وبه أيضًا تبطل هذه الشبهة؛ إذ كيف يجب إنسان رسول الله ﷺ ثم يكذب عليه، وهو القائل ﷺ: "من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار"^(١).

وصدق الشاعر إذ يقول عن طاعة المحب لحبيبه:

لو كان حبك صادقًا لأطعته

إن المحب لمن يحب مطيع

إن السنة الصحيحة قد اشتملت على ما يغيننا في هذا الباب، فمن ذلك ما رواه البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: "عطش الناس يوم الحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ فجهش الناس نحوه فقال: ما لكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ، ولا نشرب إلا ما بين يديك. فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون. فشربنا وتوضأنا،

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: إثم من كذب على النبي ﷺ، (١/ ٢٤٤)، رقم (١١٠). صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: تغليظ الكذب على النبي ﷺ، (١/ ١٦٩).

قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة"^(٢).

ولقد ذكر ابن حجر رأي القاضي عياض في هذه القصة، إذ يقول: هذه القصة رواها الثقات من العدد الكثير عن الجم الغفير عن الكافة متصلة بالصحابة، وكان ذلك في مواطن اجتماع الكثير منهم في المحافل ومجمع العساكر، ولم يرد عن أحد منهم إنكار على راوي ذلك، فهذا النوع ملحق بالقطعي من معجزاته ﷺ^(٣).

ولك أن تمنع النظر في هذا الحديث الذي رواه البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما "أن النبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار (أو رجل): يا رسول الله، ألا نجعل لك منبرًا؟ قال: إن شئتم، فجعلوا له منبرًا، فلما كان يوم الجمعة دُفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ فضمه إليه، تثنُّ أنين الصبي الذي يسكن. قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها"^(٤).

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلت الأرض لي مسجدًا، وطهورًا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحِلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث لقومه خاصة،

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، (٦/ ٦٧٢)، رقم (٣٥٧٦).

٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، (٦/ ٦٧٦).

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، (٦/ ٦٩٦)، رقم (٣٥٨٤).

ومن أراد المزيد فعليه الرجوع إلى كتب السنة، وإن اقتصر على كتابي البخاري ومسلم - وهما أصح كتب السنة - فإنه سيجد بغيته.

ثانياً. إن مدح النبي ﷺ ووصف أمته بأنها خير الأمم لم يكن في السنة فحسب، بل في القرآن أيضاً:

إن وصف أمة النبي ﷺ بالخيرية والأوصاف الحسنة لم يكن من النبي ﷺ فحسب، وإنما كان من الله ﷻ، إذ يقول في كتابه العزيز: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)، فهذه الآية تدحض دحضاً تاماً الشبهة القائلة بأن الأحاديث التي تمدح النبي ﷺ أو تصف أمته بالخيرية تتعارض مع القرآن الكريم، فقد قال مجاهد: "كنتم خير أمة؛ إذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وإنما صارت أمة محمد ﷺ خير أمة؛ لأن المسلمين منهم أكثر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أفضى" (٥).

وهو تشریف متعلق بالتكليف، فمن فعل هذا الفعل وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله نال الأجر، وكانت له الخيرية.

ولا غرابة في ذلك فلقد فضل الله ﷻ بني إسرائيل على غيرهم من الأمم لما استقاموا على أمر الله تعالى: ﴿ يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة)، إلا أنهم له يصونوا هذه النعم وذلك التفضيل، وهو الحال مع هذه الأمة إن تولت، قال ﷻ: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ

٥. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، (٤ / ١٧١).

وبعث للناس كافة وأعطيت الشفاعة" (١).

ولم تقف الأحاديث الصحيحة عند تمجيد النبي ﷺ وبيان فضله فقط، وإنما تعددت الأحاديث الصحيحة التي تبين فضل هذه الأمة وتمدحها أيضاً؛ ومن هذه الأحاديث ما رواه الترمذي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في قوله ﷻ: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)، قال: "أنتم تُمتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها عند الله" (٢).

وعن عبيدة عن عبد الله ﷻ عن النبي ﷺ قال: "خير الناس قرني، ثم الذي يلونهم، ثم الذي يلونهم" (٣).

وروى أبو أمامة أن النبي ﷺ قال: "طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى سبع مرات لمن لم يَرني وآمن بي" (٤).

ولا شك أن هذه الأحاديث التي ذكرناها غيض من فيض، ولن يتسع المجال هنا أن نسرد كل الأحاديث الصحيحة التي تمجد النبي ﷺ وتبين فضله وفضل أمته،

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الصلاة، باب: قول النبي ﷻ: "جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً"، (١ / ٦٣٤، ٦٣٥)، رقم (٤٣٨).

٢. حسن: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذني)، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة آل عمران، (٨ / ٢٨٠)، رقم (٣١٨٨). وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٣٠٠١).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا شهد، (٥ / ٣٠٦)، رقم (٢٦٥٢). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، (٩ / ٣٦٥٩)، رقم (٦٣٥٢).

٤. حسن لغيره: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي، رقم (٢٢٢٦٨). وقال عنه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: صحيح لغيره.

لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾ (محمد).

فاجزاء من جنس العمل، قانون رباني مطرد، ولذا وعد الله ﷺ المؤمنين العاملين الصالحين بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين لهم، وحصول الأمن، وطلب منهم جل شأنه أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وأن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويطيعوا رسوله ﷺ، فإذا فعلوا ذلك فإن الله ﷻ سيرحمهم، قال ﷻ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (النور)، ويقول ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣)، فأى فضل بعد وصف هذه الأمة بأنها أمة وسط بين الأمم وشهيدة عليهم جميعاً؟ وأي فضل بعد وصف الرسول الكريم بأنه سيكون شهيداً على خير أمة؟ ونضيف إلى ذلك أن الله تعالى وصف هذه الأمة بأنها أمة واحدة فقال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (الأنبياء: ٩٢).

وبلغ الأمر ذروته عندما أعلن الله ﷻ رضاه عن عباده الذين أطاعوا رسوله ﷻ واستجابوا لدعوته فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ مِن السَّابِقِينَ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ (التوبة).

أبعد هذا الفضل فضل؟! وهل يحتاج المسلمون إلى وضع أحاديث تبين فضلهم، وفضل نبيهم بعد بيان الله له؟! وهل تتعارض الأحاديث التي تمدح هذه الأمة مع هذه الآيات التي ذكرناها وغيرها؟!

هذا بالنسبة إلى بيان القرآن الكريم لفضل هذه الأمة ومكانتها، أما عن مدح الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ وتمجيده، فإن القرآن الكريم حافل بمثل هذا؛ إذ قال الله ﷻ فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (القلم). ماذا يحتاج أئمة المسلمين لتمجيد نبيهم بعد هذا الوصف العظيم من الله ﷻ؟! إن هذا هو قمة المدح والتمجيد له ﷻ. وقال تعالى مبيناً أنه ﷻ لا يتكلم إلا عن وحي من الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ (النجم)، فهذا بيان كافٍ لأخلاقه ﷻ.

وعليه فلا تعارض بين أحاديث وصف الأمة بالخيرية ومدح النبي ﷻ، وبين القرآن، أليس هو القائل ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الأنبياء)؟ وجاء قول النبي ﷻ في المعنى نفسه في الحديث الذي رواه الإمام مسلم، قال رسول الله ﷻ (كما في حديث أبي موسى الأشعري ﷺ): "أنا محمد، وأحمد، والمقفى، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة" (١). وقال ﷻ: "إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة" (٢)، فهل في هذه الأحاديث صحيحة الإسناد تعارض مع القرآن الكريم كما زعموا؟!

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفضائل، باب: في أسماؤه ﷻ، (٨ / ٣٤٧٦)، رقم (٥٩٩٣).
٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها، (٩ / ٣٧٢٠)، رقم (٦٤٩٠).

وضعوها في هذا الصدد، وهل كان الإسلام أو نبيه ﷺ في حاجة لها؟!



الشبهة التاسعة عشرة

الزعم أن السنة من وضع الزهاد والصالحين

ومسلمي أهل الكتاب (*)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض المغرضين أن الزهاد والصالحين كان لهم دور بارز في وضع أحاديث مختلقة على رسول الله ﷺ، مثل أحاديث فضائل السور، ويستدلون على ذلك بقول المحدث أبي عاصم النبيل: "ما رأيت الصالح يكذب في شيء أكثر من الحديث"، ويقول مثل ذلك يحيى بن سعيد القطان. كما يزعمون أن مسلمي أهل الكتاب كان لهم دور بارز في وضع كثير من الأحاديث. مستدلين على ذلك بالإسرائيليات التي تعجّب بها كتب التفسير، مما أحدث فوضى في الروايات واختلاطاً بين الصحيح وغيره، وأصبح من العسير التمييز بينها.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) إذا كان هناك وضع واختلاق في الحديث النبوي فقد بينه العلماء، وذكروا أسبابه وأفردوه بالتصنيف، وأنشئوا لذلك علوم الحديث والمصطلح.

(٢) إن قول بعض العلماء "ما رأيت الصالح يكذب في شيء أكثر من الحديث" المقصود منه الجهال من

ونخلص مما سبق كله إلى أن في السنة الصحيحة كثيراً من الأحاديث التي تمدح النبي ﷺ وتمجّده وتبين فضل هذه الأمة المحمدية مما يكفي الأئمة والمسلمين في هذا المجال، ويتعد بهم عن وضع أحاديث في هذا الصدد، بالإضافة إلى أن هذه الأحاديث التي نحن بصددنا تتفق وما جاء به القرآن الكريم، ولا تعارض بينهما؛ وبذلك فلا مجال لهذه الشبهة المزعومة.

الخلاصة:

• إن في السنة الصحيحة ما يغني أئمة المسلمين عن وضع أحاديث لمدح النبي ﷺ، ومن يتصفح كتب الصحاح يجد ما يثلج الصدر، ويقر العين من الأحاديث التي تبين فضل النبي ﷺ.

• إن ورع هذا الفريق - أئمة المسلمين - ليمنعهم من الوضع في هذا الشأن؛ وإذا كان هذا الوضع حُبّاً للنبي ﷺ فهل يكذب المحبُّ على من أحب؟!

• بالرجوع إلى كتاب الله ﷻ، يتضح للقارئ من أول وهلة أن هذه الشبهة قد انبنت على دليل فاسد والقاعدة الأصولية تقول: "ما بُني على فاسد فهو فاسد"؛ إذ إن القرآن الكريم يتفق أيما اتفاق مع الأحاديث الصحيحة التي تمدح النبي ﷺ وتصف هذه الأمة بالخيرية، أليس هو القائل ﷺ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، كما قال ﷺ:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء)، فأى اختلاف أو تناقض بين القرآن والسنة في هذا الصدد، أو أي وضع هذا الذي يتحدثون عنه، وأين هم هؤلاء الأئمة الذين وضعوا الحديث، وأين الأحاديث التي

(*) السنة بين الأصول والتاريخ، حمادي ذويب، المؤسسة العربية للتحديث الفكري، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥م.

أين؟ وذكروا شيوخه الذين يُحَدِّث عنهم وبلدانهم ووفياتهم، ووضعوا قواعد لت نقد المتن حتى تبين لهم الحديث الصحيح من الضعيف، وبذلك تحقق وعد الله بحفظ هذه الرسالة من تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين^(١).

ولا يزال العلماء في جد واجتهاد حتى استطاعوا أن يصلوا إلى قواعد نقدية راقية، بها يميزون الخبيث من الطيب من الحديث، وكانت هذه القواعد أرقى ما يمكن أن يصل إليه عقل بشري في تحقيق نسبة الأقوال إلى أصحابها.

وقد شهد بذلك القريب والبعيد، والصديق والعدو، وذلك فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء قال مرجليوث: "ليفترخ المسلمون ما شاءوا بعلم حديثهم"^(٢).

وقد قيل لعبد الله بن المبارك: "هذه الأحاديث المصنوعة؟ قال: يعيش لها الجهابذة، ثم قرأ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر)^(٣).

وقال عبد الله بن المبارك أيضاً: "الإسناد من الدين، لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء"^(٤).

وذكر أن هارون الرشيد قد أمر بقتل زنديق، فقال الزنديق: يا أمير المؤمنين أين أنت من أربعة الآف

الصالحين والزهاد، وليست الكلمة على إطلاقها، والمقصود بكذبهم هو قبولهم الأحاديث المكذوبة دون تحييص، وليس اختلاقها.

(٣) لقد وقف العلماء من الإسرائيليات موقفاً حازماً؛ فلم يقبلوا منها إلا ما ورد الشرع بتصديقه فقط، وعُرفت على أنها إسرائيلييات، وليست أقوالاً للنبي ﷺ.

التفصيل:

أولاً. موقف العلماء من الموضوعات:

الواضح أن المشككين في السنة يريدون أن يوهموا الناس أن السنة المطهرة كلها غير صحيحة، وأنها من وضع الناس قديماً وحديثاً، والحق أنه إذا كانت هناك أحاديث كثيرة موضوعة - وهذه حقيقة يعترف بها المسلمون أنفسهم - فإن هؤلاء الحاقدين قد غفلوا أو تجاهلوا - عن عمد - موقف علماء الإسلام الأفاضل من الوضع في الحديث، وكيف واجهوا هذه المشكلة.

لا مرأى في أن الله ﷻ قيض لحفظ الحديث علماء أجلاء وقفوا حياتهم على خدمة الحديث، واتخذوا جميع الوسائل لغربة الحديث والتمييز بين صحيحه وسقيم، حفظوا ألوفاً من الأحاديث الموضوعة ليكشفوا حقيقتها للأمة، وتتبعوا أحوال الرواة التي تساعد في عملية النقد وتمييز الطيب من الخبيث، وأنشئوا علم الجرح والتعديل، ودونوا في ذلك المدونات، وأحصوا فيها بالنسبة لكل راوٍ متى ولد؟ ومن أي بلد؟ وكيف هو في الدين، والأمانة، والعقل، والمروءة، والحفظ؟ ومتى شرع في الطلب؟ ومتى سمع؟ وكيف سمع؟ ومع من سمع؟ وهل رحل؟ وإلى

١. حجية السنة، د. الحسين شواط، نقلا عن: الرد على المستشرقين في شبهاتهم حول السنة النبوية، محمد شيخ عبد الله، مرجع سابق، ص ٣٦، ٣٧ بتصرف.

٢. الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، مرجع سابق، (١/ ب).

٣. المرجع السابق، (١/ ٣).

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: بيان أن الإسناد من الدين... (١/ ١٧٣).

مرحلة من مراحل النقد، حتى أصبحت الأحاديث الصحيحة واضحة المعالم ناصعة الوجود، كما حُصرت الموضوعات ودوّنت في الكتب، حتى لا يندس موضوع بين الصحاح، فإذا جاء بعد ذلك مفترٍ وزعم كذبًا وزورًا أن الموضوعات اختلطت بالصحيح، حتى أصبح من العسير التمييز بينهما قلنا له: هات الدليل، وإلا كان قوله عبثًا وهوى" (٢).

فقد منح الله تاريخ السنة أفذاذًا عباقرة أولياء صفّوها من شوائب المتنطعين والمتشدقين، ولئن كانت حبات الملح التي ذوّبت في الماء قد وجد الناس طريقًا للحصول عليها مرة أخرى عن طريق عملية الترشيح الكيماوي، فإن ما ألصقه - بل ما حاول إلصاقه - جماعات المغرضين وذوي الأهواء، كانت كحبات الخرز الأسود في صندوق اللؤلؤ الحر الأصيل، وبرادة الحديد وسط كتل الماس، فالتقطها العلماء وأخرجوها من السنة وبوّبوا لها، ولرجالها حتى صارت للسنة الإسلامية كتبها النقية، وصار للملتصقات المكذوبة ورقاتها، وللوضاعين مثلها أيضًا (٤).

كما يتبين أن علماء الإسلام، لا سيما المحدثون هم الذين عرّفوا الوضع، وبيّنوه، وذكروا أسبابه، وسُمّوا الوضاعين من الناس، وصنّفوا الكتب المختلفة في الموضوعات، ثم جاء المشككون وأرادوا أن يتخذوا من حديث العلماء عن الوضع وأسبابه ذريعة لإيهام الناس

حديث وضعها فيكم أحرمّ فيها الحلال وأحلّ فيها الحرام، ما قال النبي ﷺ منها حرفًا واحدًا؟ فقال هارون له: أين أنت يا زنديق من عبد الله بن المبارك وأبي إسحاق الفزاري ينخلانها فيخرجانها حرفًا حرفًا (١)؟ وقال الدارقطني: "يا أهل بغداد، لا تظنوا أن أحدًا يقدر يكذب على رسول الله ﷺ" (٢)، فهذه الأعمال الثابتة العظيمة الخالصة لله تعالى جعلها الله سببًا لحفظ سنة رسول الله ﷺ.

ويقول د. محمد لقمان السلفي في كتابه "اهتمام المحدثين بنقد الحديث": "إن المحدثين اعترفوا بوجود فتنة الوضع في الأحاديث النبوية لأغراض وأهداف ذكروها في مصنفاتهم، ولكن الجهود التي بُذلت في سبيل القضاء على هذه الفتنة وتمييز الأكاذيب والأباطيل من الأحاديث الصحيحة، والأصول والقواعد التي روعيت في هذا الصدد والدقة واليقظة والانتباه التي كانت دأب المحدثين والأسفار المضمّنية، ومتاعب التحقيق والتنقيح التي تحملها النقاد - كانت أعظم وأضخم بكثير من الفتنة، ولا يوجد لها مثيل في عالم الثقافة حتى اضطر بعض المستشرقين - رغم أنفهم - أن يعترفوا بهذا كله.

وقد وضع العلماء قواعد وضوابط محكمة ساعدت على نقد الحديث، وبيان صحيحه من ضعيفه. والتزموا بهذه القواعد والأصول بكل شدة، وفي كل

٣. اهتمام المحدثين، د. محمد لقمان، ص ٤٥١، ٤٥٢، نقلًا عن: الرد على المستشرقين في شبهاتهم حول السنة النبوية، محمد شيخ، مرجع سابق، ص ٣٨: ٤٠.

٤. السنة ومكائنها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ١٤٤ بتصرف

١. تاريخ دمشق، ابن عساکر، مرجع سابق، (٧/ ١٢٧). تهذيب التهذيب، ابن حجر، مرجع سابق، (١/ ١٣٢). تذكرة الحفاظ، الذهبي، مرجع سابق، (١/ ٢٧٣).

٢. اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعية، الحافظ السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، (٢/ ٣٩٢).

أصحابها في الكذب من غير تعمد له، وذكر منها غلبة الزهد، والعبادة على بعض الناس حتى جعلتهم يغفلون عن الحفظ، والتمييز، حتى صار الطابع لكثير من الزهاد الغفلة^(١)، حتى قال أبو عاصم النبيل: "ما رأيت الصالح يكذب في شيء أكثر من الحديث"^(٢).

ونستدل على أن العلماء الأوائل لم يتركوهم يضعون الحديث دون بيان زيفهم وجهلهم بما روي عن عبد الله بن المبارك قال: "قلت لسفيان الثوري: إن عباد بن كثير من تعرف حاله، وإذا حدث جاء بأمر عظيم، فترى أن أقول للناس: لا تأخذوا عنه؟ قال سفيان: بلى، قال عبد الله: فكنت إذا كنت في مجلس ذكر فيه عباد أثبت عليه في دينه، وأقول: لا تأخذوا عنه"^(٣).

فهو - أي عباد بن كثير - صالح زاهد، لكن لا يقبل هؤلاء المحدثون حديثه؛ لأنه يقبل الحديث دون تمحيص وتدقيق جهلاً منه. وها هو ذا يحيى بن سعيد القطان لم يجهل حالهم، ولم يلتبس عليه أمرهم؛ إذ يقول: "لم تر أهل الخير في شيء أكذب منه في الحديث"، قال مسلم: يقول أي يحيى بن سعيد القطان: "يجري الكذب على لسانهم، ولا يتعمدون الكذب"^(٤).

وعن أيوب السخيتاني قال: "إن لي جاراً، وذكر من فضله، ولو شهد عندي على تمرتين ما رأيت شهادته

بعدم صحة السنة كلها لوجود الموضوع بها، ويستدلون على ذلك بأقوال العلماء تديسًا على الناس، ولا يذكرون أن علماء الحديث الذين بينوا الأمور، وميزوا الغث من الثمين، هم أنفسهم الذين تحدثوا عن الوضع وأسبابه، والوضاعين، وطرق معرفتهم، وهذا فخر يفتخر به المسلمون، وهو دليل على حفظهم لسنته ﷺ وليس عيباً يعيب السنة كما يريد المغرضون أن يوهمونا بذلك.

وبهذا يتبين قيمة ما قام به العلماء من جهود جبارة لتنقية السنة مما أصابها من فساد، وإنها لجهود لا يسع المنصف إلا أن ينحني حيالها إجلالاً، ويعترف بأنها تكاد تكون فوق مستوى البشر، فجزاهم الله خيراً[®].

ثانياً. المقصود من "الصالحين الزهاد" هنا هم الجهال منهم فقط، وكذبهم هو قبولهم الأحاديث المكنوبة دون تمحيص، وليس اختلاقها:

مما هو معلوم أن كثيراً من جهال الصالحين والزهاد وضعوا أحاديث علي النبي ﷺ ترغيباً في فعل الخير، وترهيباً من فعل الشر، عن جهل منهم بحقيقة هذا الدين السمح، ولكن لم يختلط أمرهم على المحدثين كما يزعم أعداء الإسلام، ولم تدون مروياتهم في كتب السنة الصحيحة بلا تمييز، وإنما وقف لهم علماء الإسلام بالمرصاد، فبينوا زيفها كما وضحنا في الوجه السابق.

يقول د. عبد الكريم الخضير: هناك أسباب أوقعت

® في "جهود العلماء في الحفاظ على السنة من الوضع" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الأولى، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها)، والوجه الرابع، من الشبهة الثالثة عشرة، والوجه الأول، من الشبهة السابعة عشرة، والوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من هذا الجزء.

١. الحديث الضعيف وحكم الاحتجاج به، د. عبد الكريم الخضير، دار المنهاج، الرياض، ط ٢، ١٤٢٦هـ، ص ١٣٩.

٢. الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، (١/ ٢٧٩).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: بيان أن الإسناد من الدين... (١/ ١٧٥).

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: بيان أن الإسناد من الدين... (١/ ١٧٥).

وهكذا بهذا المنهاج العظيم الذي لا تعرف له الدنيا بأسرها مثيلاً خاب ظن هؤلاء الوضاعين من جهلة الزهاد والصالحين وغيرهم من الكفرة والزنادقة والمبتدعة والمتصوفين، كما قال الإمام الشعرائي في العهود الكبرى: "واعلم يا أخي أن أكثر من يقع في خيانة هذا العهد المتصوفة الذين لا قدم لهم في الطريق، فربما رووا عن رسول الله ﷺ ما ليس من كلامه لعدم ذوقهم، وعدم فرقانهم بين كلام النبوة وكلام غيرها، وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: إنما قال بعض المحدثين: أكذب الناس الصالحون؛ لغلبة سلامة بواطنهم، فيظنون بالناس الخير وأنهم لا يكذبون على رسول الله ﷺ فمرادهم بالصالحين: المتعبدون الذين لا غوص لهم في علم البلاغة، فلا يفرقون بين كلام النبوة وغيره، بخلاف العارفين فإنهم لا يخفى عليهم ذلك" (٦).

ويتضح مما سبق أن صلاح الكذابين: ليس المراد منه الصلاح الحقيقي الذي يتمثل في صلاح العلماء وأئمة الدين وحفاظ الحديث، بل هو الصلاح الذي تحدث عنه الأئمة سابقاً، وإلا كان يجب أن يكون سعيد بن المسيب وعروة والشافعي ومالك وأحمد وأبو حنيفة والبخاري ومسلم وغيرهم من أئمة المسلمين، من أكذب الناس في الحديث، وهل هذا يُعقل!؟

بالإضافة إلى أنه إذا كان أئمة المسلمين هم أكذب الناس في الحديث - كما يتصور هؤلاء المغرضون - فمن إذن الذي كشف كذبهم؟ ومن الذي عرّفنا بالموضوع

٦. قواعد التحديث، جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، ص ١٦٤.

جائزة" (١)، وعن عبد الله بن المبارك رحمه الله قال: "بقيّة صدوق اللسان، ولكنه يأخذ عنمن أقبل وأدبر" (٢).

فبقية مع صدقه وصلاحه، لا يأخذ عنه عبد الله بن المبارك؛ لأنه يأخذ عن أناس لا يدقق النظر فيهم.

وقال الإمام يحيى بن معين: "إننا لنطعن على أقوام لعلمهم قد حطوا رحالهم في الجنة منذ أكثر من مائتي سنة" (٣).

قال السخاوي مفسراً "أي: أناس صالحون، ولكنهم ليسوا من أهل الحديث" (٤)، فهل هؤلاء الناس الصالحون الذين حطوا رحالهم في الجنة منذ زمن بعيد تركهم يحيى بن معين دون تجريح وبيان لضعفهم، وعدم اعتمادهم رجلاً للحديث!؟

وقد نبه الإمام مالك رحمه الله إلى وجود هذا الصنف من الوضاعين فقال: "لا يؤخذ العلم عن أربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك، لا يؤخذ من رجل صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا سفيه معلى بالسفه وإن كان أروى الناس، ولا من رجل يكذب في أحاديث الناس وإن كنت لا تتهمه أن يكذب على رسول الله ﷺ، ولا من رجل له فضل وصلاح وعبادة لا يعرف ما يحدث" (٥).

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: بيان أن الإسناد من الدين... (١ / ١٧٧، ١٧٨).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: بيان أن الإسناد من الدين... (١ / ١٧٦).

٣. الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، مرجع سابق، (٦ / ٤١٢).

٤. الإعلان بالتبويخ لمن ذم التاريخ، السخاوي، نقلا عن: السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، (١ / ٤٢٠).

٥. المحدث الفاضل، الراهرمزي، مرجع سابق، ص ٤٠٢.

التحديث عنهم بما كان من أمر حسن، أما ما علم كذبه فلا.

وقال الشافعي: من المعلوم أن النبي ﷺ لا يميز التحديث بالكذب، فالمعنى: حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحديث عنهم، وهو نظير قوله: "إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم" (٣).

ولم يرد الإذن ولا المنع من التحديث بما يقطع بصدقه، وقد فطن ابن حجر إلى معنى دقيق حين قال: "لا حرج"؛ أي لا تضيق صدوركم بما تسمعون من الأعاجيب، فإن ذلك وقع لهم كثيراً... والمراد رفع الحرج عن حاكي ذلك لما في أخبارهم من الألفاظ الشيعة نحو قولهم: ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ (٢٤) (المائدة: ٢٤)، وقولهم: ﴿أَجْعَل لَنَا إِلَهًا﴾ (الأعراف: ١٣٨) (٤).

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فإنه في "مقدمة أصول التفسير" قسّم الإسرائيليات وموقف المسلمين منها إلى ثلاثة أقسام:

• ما يوافق الصحيح من شريعة الإسلام وأخبار القرآن:

وهذا يجب على المسلمين الإتيان به، ويدخل تحت هذا القسم قصة الخضر مع موسى عليه السلام، وقصة (جريج

وأسبابه وبأصنافه وبعلاماته، وصنّف فيه المصنفات المتعددة^(١)؟

وبناء عليه فإن كان الصالحون والزهاد قد وضعوا أحاديث فإن هؤلاء ليسوا الصالحين الحقيقيين، وإنما الجهلة منهم الذين لا معرفة لهم بالعلم، وهم لم يضعوا أحاديث من عند أنفسهم، وإنما كانوا يأخذون عن من لا يوثق فيهم دون تمحيص وتدقيق لما ينقلون، كما قال يحيى بن سعيد القطان "يجري الكذب على لسانهم، ولا يتعمدون الكذب". ومع ذلك ظهر كذبهم جلياً واضحاً للعلماء، الذين بينوا الصحيح من الزائف حتى لا يختلط الأمر على العامة من المسلمين، وبالفعل تحقق ما أراده العلماء من التفريق بين الصحيح والموضوع.

ثالثاً. موقف العلماء من الإسرائيليات:

لقد كان سلف الأمة العدول من العلماء المحدثين والرواة والنقاد والفقهاء على وعي كامل بكل ما روي عن بني إسرائيل وأساطيرهم التي سجلها المفسرون في طيات كتبهم للإذن بالتحديث عن بني إسرائيل في قوله ﷺ: "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" (٢)، فانبرى الكثير منهم لمحو هذه الأساطير، أو تصحيحها، وتبيان زيفها وزورها.

كما ذكره ابن حجر العسقلاني إذ قال: قال مالك: المراد - يعني من الحديث عن بني إسرائيل - جواز

٣. إسناده حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث أبي نملة الأنصاري رضي الله عنه، رقم (١٧٢٦٤). وحسن إسناده شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٤. الإسرائيليات والموضوعات وبدع التفسير قديماً وحديثاً، حامد أحمد الطاهر البسيوني، دار التقوى، القاهرة، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م، ص ١٤، ١٥، بتصرف.

١. السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام، د. عماد الشربيني، مرجع سابق، (١ / ٤٢١) بتصرف.

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، (٦ / ٥٧٢)، رقم (٣٤٦١).

والصحابة لن ينهوا عن هذا من باب الرأي، وإنما لا بد لهم سماع عن النبي ﷺ.

• ما ليس في شريعتنا ما يوافق، ولا ما يخالفه:

أي المسكوت عنه فلا إيمان به ولا تكذيب، وهذا هو الأكثر الذي نُقل عن أهل الكتاب ولعله الذي نهى النبي ﷺ عن تصديقه أو تكذيبه، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة ؓ قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم" (٣).

وهذا القسم تجد كتب التفسير مملوءة به؛ إذ يذكر فيها أسماء أصحاب أهل الكهف وعددهم، واسم الغار، وطيور إبراهيم ؑ، والشجرة التي أكل منها آدم ؑ، وما دار في سفينة نوح ؑ بينه وبين إبليس، وما إلى ذلك (٤).

على أننا نود أن نذكر هنا بعض الملاحظات على علماء أهل الكتاب الذين أسلموا ونقلوا لنا هذه الإسرائيليات، أمثال عبد الله بن سلام، وكعب الأبحار، وتميم الداري، ووهب بن منبه، وهي:

١. أنهم لم يخترعوا هذه الإسرائيليات أو يلقفوها

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي ﷺ: "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء"، (١٣ / ٣٤٥)، رقم (٧٣٦٢).

٤. انظر: الإسرائيليات والموضوعات وبدع التفسير قديماً وحديثاً، حامد أحمد الطاهر البسيوني، مرجع سابق، ص ١٣ بتصرف. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزائر، دار الوفاء، مصر، ط ٣، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، (١٣ / ٣٦٦).

العابد)، وبعض ما جاء من التوراة والإنجيل مبشراً بالنبي ﷺ، معرفاً بصفاته.

• ما يخالف شريعة الإسلام، وأخبار القرآن

الكريم:

كالطعن في عصمة الأنبياء، وهو ما نقله المسلمون عن اليهود بشأن يوسف ؑ في الهمم بامرأة العزيز، وقصة الخطيئة المزعومة لداود ؑ، وخاتم سليمان ؑ، والتوراة مليئة بهذا الصنف من القصص التي تتهم الأنبياء بالوقوع في الشرك والزنا وغيرها من التهم الأخلاقية التي تأبى طبيعة النبوة أن تقع في أمثالها، حتى صاح ابن حزم في الرد علي ابن النغريلة اليهودي قائلاً: "تالله ما رأيت أمة تقر بالنبوة، وتنسب إلى الأنبياء ما يشبه هؤلاء الكفرة" (١).

وقد جاء النهي صريحاً عن سؤال أهل الكتاب والأخذ عنهم فيما يتعلق بهذه المسألة، فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله ﷺ أحدث، تقرأونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ والله، ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم" (٢).

١. الفصل في الملل والنحل، ابن حزم، تحقيق: د. محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، (١ / ٢٣٩).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي ﷺ: "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء"، (١٣ / ٣٤٥)، رقم (٧٣٦٣).

من عندهم، وإنما كانت لهم مصادرهم الإسرائيلية التي نقلوا عنها، فروايتهم للكذب والاختلاق لا تعني كذبهم واختلاقهم.

٢. لكن هذا لا يعفيهم من مسئولية الوساطة، فقد كانوا وسطاء في حمل ونقل معارف أهل الكتاب إلى المسلمين، وما يتحملونه هنا أنهم فتحوا الباب أمام ضعفاء الإيمان كي ينسبوا إليهم المزيد من الضلالة والافتراءات التي تتفق ونوع ما رووه من القصص.

٣. أن نقلهم كان في الجانب القصصي والأعاجيب بعيداً عن العقيدة والتشريع.

٤. أنهم لم ينسبوا أيّاً من هذه الأباطيل إلى النبي ﷺ، فليسوا بوضّاعين للحديث كغيرهم.

٥. أن العلماء - علماء الجرح والتعديل، وهم سيف مسلول على رقاب الرواة - عدلوهم ولم يذكروا فيهم جرحاً^(١).

أما بالنسبة للصحابة الذين نقلوا الإسرائيلية عن أهل الكتاب فهم عدول، أمثال عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة، وعبد الله بن عباس، وهناك بعض المجروحين الذين رَوَّجوا الإسرائيلية، وقد أحصاهم العلماء وبيّنوا شأنهم كغيرهم من الوضّاعين للحديث، ولكننا نقرر بعض الحقائق فيما نقله الصحابة عن أهل الكتاب:

١. أن الصحابة لم يكونوا ليأخذوا عن أحدهم شيئاً يتعارض مع المقررات الدينية الثابتة في القرآن والسنة، ومن ثم ينحصر مجال الأخذ فيما لا يمس جوهر

العقيدة، أو المبادئ الدينية المقررة.

٢. أن الصحابة لم يأخذوا من أحد شيئاً وهم يشكون في صدق إسلامه؛ لأن هذا يخالف المبادئ المقررة لديهم في التلقي والرواية.

٣. لو فرضنا - جدلاً - أن الصحابة نقلوا عن أهل الكتاب ما يخالف عقيدة المسلمين أو شرائعهم فهذا يُتقد ويُمحص مثل غيره من المرويات، ولا يشفع له أن يكون ناقله صحابياً.

٤. أن علماء المسلمين من الصحابة والتابعين أخذوا عن أهل الكتاب في مجالات محدودة بعيدة عن العقائد والأحكام، وأكثر أخذهم من أهل الكتاب كان في مجال القصص، لا سيما التفصيلات التي لم ترد في القرآن والسنة^(٢).

ومع تقرير الحقائق السابقة فيمن نقلوا لنا هذه الإسرائيلية سواء من أهل الكتاب أو الصحابة أو التابعين فإن العلماء لم يهونوا من شأنها، بل وقفوا لها بالمرصاد، ونقّحوا كتب التفسير والحديث منها، ولم يقبلوا منها إلا ما صدقه القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة، كما تصدوا للوضّاعين والكذابين في الحديث حتى صفّوه من الشوائب.

وبذلك فإن الإسرائيلية التي رواها مسلمو أهل الكتاب نقلت إلينا على أنها إسرائيلية لا على أنها أحاديث قالها النبي ﷺ، فالفرق بينهما واضح، ولقد لقيت هذه الآثار ما لقيته السنة النبوية من تمحيص وغرلة دقيقة من جانب علماء الحديث، مما يجعلنا نطمئن إلى سلامة ما بين أيدينا من دواوين السنة من

١. الإسرائيلية والموضوعات وبدع التفسير قديماً وحديثاً،

حامد أحمد الطاهر البسيوني، مرجع سابق، ص ٣٠.

٢. المرجع السابق، ص ٣٨: ٤٠ تصرف.

● إن المقصود بالصالحين والزهاد الذين قبلوا أحاديث مكذوبة على النبي ﷺ هم الجهال منهم فقط، لا العلماء الصالحون كلهم.

● لقد وقف العلماء المعاصرون لهؤلاء الجهلة من الصالحين بالمرصاد، فبينوا جهلهم وزيفهم، والأمثلة على ذلك كثيرة.

● إن هؤلاء الزهاد لم يكذبوا على النبي ﷺ، وإنما تساهلوا في قبول الموضوع والمكذوب دون تدقيق وفحص له.

● إن موقف العلماء من الإسرائيليات هو موقف النبي ﷺ، وهو قبول ما يتفق مع تعاليم الإسلام، وترك ما يخالفه، وعدم تصديق أو تكذيب ما لم يرد فيه نص عندنا.

● إن ما روي من الإسرائيليات يخص الجانب القصصي كثيرًا، ولا يتناول أصول الدين أو الأمور العقديّة؛ لذلك فلا يحدث اضطرابًا أو خلطًا في السنة النبوية.

● إن هذه الإسرائيليات رويت على أنها إسرائيلية من أقوال أهل الكتاب، ولم تنسب إلى النبي ﷺ، وبذلك فرواها ليسوا بوضّاعين في الحديث النبوي، ولا يطعن ذلك في السنة النبوية.

● إن المرويات من الإسرائيليات قد نقدت ومحصّت مثل السنة تمامًا حتى تميز صحيحها من سقيمها، وبذلك فلا خلط بين الصحيح والضعيف فيها.



الوضع من قبل مسلمي أهل الكتاب، أو غيرهم[®].

الخلاصة:

● لقد قيّض الله ﷻ لحفظ السنة علماء أجلاء وقفوا حياتهم على خدمة الحديث، واتخذوا جميع الوسائل لغربلته وتمحيصه، حتى استطاعوا التمييز بين صحيحه وسقيمه على أكمل وجه.

● لقد درس العلماء جميع الرواة وبينوا حال كل منهم، سواء كانوا من العدول أو من جهلة الزهاد والصالحين، الذين قبلوا أحاديث مكذوبة على النبي ﷺ جهلاً منهم.

® في "نبوت عدالة الصحابة بالقرآن والسنة والإجماع" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية عشرة، والوجه الثاني، من الشبهة الخامسة عشرة، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها)، والوجه الثاني، من الشبهة التاسعة، والوجه الأول، من الشبهة السادسة والثلاثين، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة)، والوجه الثالث، من الشبهة الثالثة، من الجزء السابع (الإسناد والمتن). وفي "موقف الصحابة من روايات أهل الكتاب" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السادسة عشرة، من الجزء الثالث (أبو هريرة). وفي "ثناء الله تعالى ونبيه على الصحابة وتزكيتهم" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الأولى، والوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة). وفي "عدالة الصحابي لا تتوقف على حجية قوله" طالع: الشبهة الثالثة، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة). وفي "العصمة والاجتهاد ليسا شرطين في عدالة الصحابة" طالع: الشبهة الرابعة، والوجه الأول، من الشبهة السادسة، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة). وفي "عدالة الصحابة الأعراب" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة). وفي "حكم رواية الإسرائيليات في الشريعة الإسلامية وحكمته" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة عشرة، من الجزء السادس (دواوين السنة)، والوجه الثاني، من الشبهة الثامنة، من الجزء العاشر (السمعيات). وفي "نفي وصف الصحابة بالضلال" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الخامسة والعشرين، من الجزء التاسع (النبوات).

الشبهة العشرون

دعوى إهمال المحدثين الأسباب السياسية الدافعة للوضع في الحديث (*)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض المغرضين أن علماء الحديث، قد أهملوا البحث في الأسباب السياسية الداعية إلى الوضع في الحديث، ويستدلون على ذلك بأن أصحاب المذاهب السياسية قد أكثروا الوضع في الحديث، ولم يتنبه المحدثون لذلك الأمر. رامين من وراء ذلك إلى إنكار جهود المحدثين في تنقية الحديث الصحيح من الموضوع.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) كان من أسباب العناية بالحديث سندًا وامتثًا، ظهور المذاهب السياسية المختلفة في أواخر القرن الأول الهجري؛ فكيف يدّعون أن المحدثين أهملوا النظر في الأسباب السياسية الدافعة للوضع، وهم أول من كشف ذلك وقاومه؟

(٢) اهتمام المحدثين بنقد روايات الشيعة - وهم إحدى الفرق السياسية - والتنبيه على عدم الأخذ عنهم، ونبذ أقوالهم، كل ذلك يؤكد اهتمام المحدثين بالأسباب السياسية الدافعة للوضع في الحديث.

(٣) كان لبعض الخوارج - وهم من الفرق السياسية أيضًا - دور في وضع الحديث، وهذا ما حدا بالمحدثين إلى التشديد في قبول الرواية عنهم.

(*) دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، د. محمد أبو شهبه، مرجع سابق.

التفصيل:

أولاً. عناية المحدثين بنقد الأحاديث سندًا وامتثًا مع بداية ظهور الخلافات السياسية:

إن أئمة الحديث كما عنوانه من ناحية جمعه في الكتب الجامعة لمتونه، عنوان ذلك بالبحث عنه من نواحٍ أخرى تتصل به من جهة سنده وامتته، مما يتوقف عليه قبوله أو رده، والبحث عن حال الحديث من هذه الجوانب هو الأساس الذي يُعرف به صحة الحديث أو عدم صحته؛ إذ يتوقف عليه تمييز الطيب من الخبيث، والصحيح من العليل، وتطهير السنة مما عسى أن يكون دخلها من التزويد والاختلاق، وبذلك تسلم الشريعة من الفساد.

وإذا كانت السنة لم تدوّن تدوينًا عامًا إلا آخر القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجري، فلا يشكلكن عليك أن مباحث الرواة وشروطها، والرواة وصفاتهم، والتعديل والتجريح، لم تكن مدونة آنثذ؛ لأنها كانت منقوشة في الحواظ والأذهان، وعلى صفحات القلوب، شأنها في ذلك شأن متون الأحاديث، وما كان أئمة الحديث الجامعون بغائبة عنهم هذه القواعد، بل كانوا يعرفونها حق المعرفة، فكان وجودها في الأذهان، وإن لم توجد في الأعيان، وكان من أثر هذه المعرفة ما نُقل إلينا من الثبُت البالغ والتحوُّط الشديد في قبول المرويات وتدوينها، وصيانتها عن أن يتطرق إليها الكذب، أو الغلط، أو الخطأ.

وإنك لتلمس هذا جليًا في الكتب التي ألفت في القرون الأولى، فقد مزجت فيها المتون بأصول علم النقد والرواية، ومن ذلك ما نجد في ثنايا كتاب "الرسالة" للإمام الشافعي، وما نقله تلاميذ الإمام أحمد

يكون الحديث في فضائل علي وراويه شيعي، أو في ذمه وراويه ناصبي، أو في ذم أعدائهم وراويه رافضي، إلى غير ذلك، ولو رجع هؤلاء إلى الكتب المؤلفة في الموضوعات مثل كتاب "الموضوعات" لابن الجوزي، و"الآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة" للسيوطي، و"تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الموضوعة" لابن عراق، لوجدوا أن العلماء انتبهوا غاية الانتباه إلى أحاديث الفضائل في الأشخاص، والأمكنة، والأجناس، والأمم، وبوّبوا لذلك الأبواب في كتبهم، وقد استغرق ذكر الفضائل في كتاب "الآلئ" ما يزيد عن مائة صحيفة، فكيف بعدما ذكرناه يستجيزون لأنفسهم أن يقولوا: "إن العلماء لو اتجهوا هذا الاتجاه لانكشفت أحاديث كثيرة، وتبين وضعها مثل كثير من أحاديث الفضائل...؟!"

أما إذا كانوا يقصدون أنهم لم يحكموا على كل ما ورد في الفضائل بالوضع، فهذا ما لا نوافقهم عليه وما لا نرتضيه لبحث علمي^(٢).

وتأكيداً لما سبق فقد وضع المحدثون أيضاً شروطاً عامّةً للرواية المقبولة، بحيث تكفل هذه الشروط الضمانات الكافية لصدق الرواية وسلامتهم من الكذب والخطأ والغفلة في النقل، ومن هذه الشروط:

١. الإسلام: وهو الانقياد ظاهراً وباطناً لله ﷻ والامتثال في كل أمر ونهي.

٢. التكليف: وذلك يتحقق بالبلوغ والعقل، فلا تقبل رواية الصبي والمجنون.

٣. العدالة: وهي ملكة تحمل على ملازمة التقوى

في أسئلتهم له ومحاورتهم معه، وما كتبه الإمام مسلم في مقدمة صحيحه، وما ذكره أبو داود في رسالته إلى أهل مكة في بيان طريقته في كتابه "السنن"، وما ذكره الإمام الترمذي في كتابه "العلل"، الذي هو في آخر "جامعه" من تصحيح وتحسين وتضعيف، وما ذكره الإمام البخاري في تواريفه الثلاثة.

ومن هنا يتبين لنا أن نقد المرويّات، وتمييز صحيحها من زائفها قد كان ملازمًا لجمعها في الكتب والجوامع والمسانيد^(١).

وردًا على فرية إهمال المحدثين للأسباب السياسية الدافعة للوضع يقول د. أبو شهبة: ولا أدري كيف يقولون إنهم لم يتعرضوا - أي علماء الحديث - لبحث الأسباب السياسية، وقد جعلوا من قواعدهم: عدم قبول رواية أهل الأهواء والمبتدعة من الطوائف المنتسبة إلى الإسلام، ومنهم من فصل بين الداعية وغيره، فقبلوا رواية غير الداعية وردوا رواية الداعية، وما ذلك إلا لأن احتمال تزيده احتمال قريب، بل انظر إلى دقتهم في التعويل على البواعث في الجرح، ويتمثل ذلك واضحًا جليًا في تفصيلهم في الراوي الداعية، وهو: أن يروي ما يؤيد بدعته أو يروي ما يخالفها، فردوا رواية الأول، وقبلوا الثاني؛ لأن الباعث على التزيّد والاختلاق في الأول قريب محتمل، وفي الثاني بعيد جدًا، وكذلك تفصيلهم في الراوي غير الداعية، بين أن يروي ما يؤيد بدعته أو يردّها ويخالفها، فردوا رواية الأول دون الثاني.

كما جعلوا من قواعدهم التي تدل على الوضع: أن

٢. السابق، ص ٢٨٦، ٢٨٧.

١. المرجع السابق، ص ٢٨، ٢٩ بتصرف.

والمروءة والتقوى امتثال الأمور واجتناب المنهيات، وذلك بألا يفعل كبيرة، ولا يصر على صغيرة، ولا يكون مبتدعاً.

٤. الضبط: هو الحفظ الصحيح لكل ما يسمع من شيخه أو يكتبه.

وبناء على هذه الشروط فقد ردوا رواية من كثر غلظه وغفلته وساء حفظه، وكذا من تساوى صوابه وغلظه، واعتبروا حديثه منكرًا، ومن هنا نجد أن المحدثين احتاطوا غاية الاحتياط في الرواية، ولم يأخذوا إلا عن العدل الفطن اليقظ، ونبذوا أحاديث المغفلين والغالطين وأصحاب الأوهام^(١).

ولذلك قد يكون الرجل موصوفًا بصفات الراوي الضبط إلا أنه قد يكون من أهل البدع والأهواء فلا يأخذون عنه الحديث.

روى مسلم في صحيحه عن ابن سيرين أنه قال: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة، قالوا: سمؤنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم"^(٢).

وابن سيرين يشير بهذا إلى ما كان عليه الأمر في عصر التابعين بعد ظهور الفتن، وتفرق المسلمين إلى مذاهب دينية، وأخرى سياسية، واستباح بعض الدعاة لهذه المذاهب الكذب على رسول الله ﷺ وترويجها وتمكينها، فكان ذلك مدعاة للتشدد في رواية الحديث، والتأكد من صحته وصدقه على نطاق أشمل وأشد حيلة وحذرًا مما كان عليه الأمر في عهد الصحابة

١. السابق، ص ٣٠: ٣٢ بتصرف.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: بيان أن الإسناد من الدين... (١/ ١٧٣).

الكرام ﷺ^(٣).

يقول د. عمر الأشقر: ومن يدرس طرائق أهل الأهواء في وضعهم الحديث يجد أنهم سلكوا في ذلك طرقًا ثلاثة:

الأول: وضع الأحاديث التي تشيد بالأئمة الذين ينتسبون إليهم، كما فعل الشيعة الذين غلوا في تعظيم أئمتهم، وكما فعل الذين وضعوا الأحاديث في فضل معاوية والدولة الأموية، ونحوهم.

الثاني: الأحاديث التي تدم خصومهم، كتلك التي وُضعت كذبًا وزورًا في سب الصحابة الأبرار، أو ذمت معاوية، وخلفاء الدولة الأموية، ونحوهم.

الثالث: الأحاديث التي وضعت لتأصيل الآراء والأحكام والنظريات التي تضمنها مذاهب واضعيها، أو تدم وتبطل ما عليه خصومهم في معتقداتهم وتوجهاتهم.

ويمكن أن يضاف إلى هذه الطرق الثلاث طريقتان آخران، ذكرهما ابن عراق:

أحدهما: وضع أحاديث فيها شناعات تنكر من العقلاء، يعزونها إلى مخالفينهم لتسفيه أقوالهم ومذاهبهم، كالأحاديث التي تشبه الله ﷻ بخلقه، والتي وضعها عليهم خصومهم لتسفيه معتقدتهم.

الآخر: جعل الحكم القياسي حديثًا لفظيًا منسوبًا إلى رسول الله ﷺ^(٤).

٣. حماية السنة من الأكاذيب والأباطيل، د. صالح الفقي، مرجع سابق، ص ٨٢ بتصرف.

٤. تنزيه الشريعة المرفوعة، ابن عراق الكناني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، (١/ ١١). وانظر: الوضع في الحديث النبوي، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص ٧٥، ٧٦.

ووضع الحديث، ولم يخالف في ذلك أحد، بل إن نفرًا من الشيعة أنفسهم يُقرُّون بأن بعض من انتسب إليهم كان يفترى ويتقوّل على رسول الله ﷺ وآل بيته، ويذكر ابن أبي الحديد أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة، فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم، حملهم على وضعها عداوة خصومهم، فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها في مقابلة هذه الأحاديث^(١).

وتميز الروافض من بين الشيعة بكثرة الوضع وغزارته، وشهرتهم بالكذب معروفة عند الأئمة من قديم.

وينقل ابن تيمية اتفاق أهل العلم - بالنقل والرواية والإسناد - على أن الرافضة أكذب الطوائف، والكذب فيهم قديم، ولهذا كان أئمة الإسلام يعلمون امتيازهم بكثرة الكذب^(٢)، كما يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الرافضة في الأصل ليسوا أهل علم وخبرة بطريق النظر والمناظرة، ومعرفة الأدلة، وما يدخل فيها من المنع والمعارضة، كما أنهم من أجهل الناس بمعرفة المنقولات والآثار والتمييز بين صحيحها وضعيفها، وإنما عمدتهم في المنقولات على تواريخ منقطعة الإسناد، وكثير منها من وضع المعروفين بالكذب بل بالإلحاد.

ونقل ابن تيمية قول الإمام مالك عندما سُئل عن الرافضة، فقال: لا تكلمهم ولا ترو عنهم فإنهم يكذبون، وكذلك قول الشافعي: لم أر أحدًا أشهد بالزور من الرافضة^(٣).

١. انظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، (١/ ٤٨، ٤٩).

٢. منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، مرجع سابق، (١/ ٩٠).

٣. المرجع السابق، (١/ ٩٠، ٩١) بتصرف.

بهذا يتبين بجلاء اهتمام المحدثين بدراسة كافة الجوانب عند نقد الحديث بما في ذلك الجانب السياسي[®].

ثانيًا. أثر الشيعة في وضع الحديث، ونقد علماء الحديث لروياتهم:

أجمع العلماء على أن للشيعة أثرًا بارزًا في الكذب

® في "شروط قبول الإسناد" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها). وفي "منهج المحدثين في التحقق من صحة الحديث" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها)، والوجه الثالث، من الشبهة الثانية، من الجزء الخامس (الأئمة والرواة). وفي "شروط الحديث الصحيح وأنواعه وعلامات عدم صحة الحديث" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثالثة عشرة، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها)، والوجه الأول، من الشبهة الرابعة، من الجزء السابع (الإسناد والمتن). وفي "جهود العلماء في نقد الحديث سندًا ومتنًا" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والثلاثين، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها)، والوجه العشرين، من الجزء الخامس (الأئمة والرواة)، والوجه الأول، من الشبهة الرابعة، من الجزء السابع (الإسناد والمتن). وفي "معايير قبول الراوي والرواية" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والثلاثين، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها)، والوجه الأول، من الشبهة الثالثة، من الجزء الخامس (الأئمة والرواة)، والوجه الأول، من الشبهة الخامسة، من الجزء السادس (دواوين السنة). وفي "استخدام العلماء قواعد الحكم على الأحاديث منذ ظهور الوضع" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من هذا الجزء. وفي "الخلافات السياسية لم تؤثر في الرواية عن رسول الله" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة والثلاثين، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة). وفي "انشغال أهل البيت بالسياسة كان سببًا في قلة مروياتهم" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة، من الجزء السادس (دواوين السنة). وفي "معنى علم النقد الحديثي ونشأته المبكرة" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية، من الجزء السابع (الإسناد والمتن). وفي "قبول رواية المنفرد ما دام ثقة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثلاثين، من الجزء التاسع (النبوات).

واشتهرت طائفة الخطَّابِيَّة بين الروافض بالإمعان في الكذب وشهادة الزور، فيروي الخطيب البغدادي عن الشافعي رحمه الله أنه قال: "وتقبل شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية من الروافض؛ لأنهم يرون الشهادة بالزور لموافقهم"^(١).

وقال الخطيب أيضًا: "قال أبو أيوب: سئل إبراهيم عن الخطابية، فقال: صنف من الرافضة"^(٢).

وهؤلاء الرافضة كانوا إذا استحسنا أمرًا جعلوه حديثًا، فقد روى الخطيب في الجامع بإسناده عن حماد بن سلمة قال: "حدثني شيخ لهم - يعني الرافضة - تاب، قال: كنا إذا اجتمعنا واستحسنا شيئًا جعلناه حديثًا"^(٣).

ومع ما لعليٍّ وآل البيت ﷺ في قلوب المؤمنين من رفيع المنزلة وعظيم المكانة بما ثبت لهم من فضل في الكتاب العزيز والسنة الصحيحة، فإن الروافض لم يتورعوا أن يحملوا على عليٍّ وآل البيت ما هم في غنى عنه^(٤).

بيد أننا نتساءل لماذا كانت الشيعة وفرقهم أكثر وضعًا عن غيرهم من الفرق الأخرى؟ وهنا يتجلى دور العلماء في بيان العوامل السياسية وإبراز دورها في عملية الوضع في الحديث.

١. الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، (١/ ٣٦٧).

٢. المرجع السابق، (١/ ٣٨١).

٣. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، (١/ ٢١٠).

٤. الوضع في الحديث وجهود العلماء في مواجهته، أبو عبد الله محمد بن رسلان، مكتبة البلاغ، مصر، ط ٢، ٢٠٠٥م، ص ٢٨، ٢٩.

ويجيب د. عمر فلاتة عن هذا التساؤل بقوله: "لو أمعنا النظر لرأينا أن ثمة مؤثرات حدت بكثير من متسبي الشيعة إلى الوضع في الحديث، وهذه المؤثرات يمكن تقسيمها إلى قسمين: مؤثرات خارجية، ومؤثرات داخلية.

فالمؤثرات الخارجية تتمثل فيما يأتي:

١. انخراط الكثير من أعداء الإسلام في صفوف كثير من الشيعة، وانتحلوا مذهبهم وتظاهروا بحب آل بيت رسول الله ﷺ، وهم يهدفون بذلك إلى نشر آرائهم الباطلة، وبث نظرياتهم المعادية للإسلام، فاتخذوا التشيع ستارًا يعملون من خلفه لتحقيق أهدافهم والوصول إلى مآربهم، وقد استغلوا مكانة آل بيت رسول الله ﷺ في نفوس المسلمين، وبعدهم عن السلطة بعد تنازل الحسن عن الحكم، فأشعلوا نار الفتنة وأذكوها حتى اشتد أوارها باسم آل البيت ليبلغوا ما أرادوا، فلم يكتفوا بتفريق كلمة المسلمين؛ حيث غدوا يشتم بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا، ويضرب بعضهم رقاب بعض، حين بشوا تعاليمهم المخالفة للإسلام، فسووا بين الأئمة وبين الأنبياء، بل جعل بعضهم الأئمة آلهة عبدوها من دون الله، وطعنوا في الذات العلية، وجعلوها مكانًا للجهل والتناقض.

٢. انتحال بعض الكذابين والفَسَقَة مذهب التشيع والقيام بالدعوة لبعض أئمة آل البيت والأخذ برتهم^(٥)، وإنما غرضهم من ذلك الوصول إلى السلطة والحياة في ظل الإمرة.

وقد سوَّغوا لأنفسهم الكذب ووضع الحديث

"وحب علي يأكل السيئات كما تأكل النار الحطب"،
 و"من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه، ونوح في فهمه،
 وإبراهيم في حكمه، ويحيى في زهده، وموسى في بطشه؛
 فلينظر إلى علي"، و"من مات وفي قلبه بغض لعلي بن
 أبي طالب فليمت يهودياً أو نصرانياً"، و"من أحبني
 فليحب علياً، ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن
 أبغضني فقد أبغض الله، ومن أبغض الله أدخله الله
 النار"^(٢).

٢. اقتضى إثباتهم الوصية له من رسول الله ﷺ
 التقول عليه، بأن وضعوا أحاديث تنص على وراثته،
 وأنه وصيه من بعده، ومنها: "وصيي، وموضع سري،
 وخليفتي في أهلي، وخير من أخلف بعدي علي"، و"إن
 لكل نبي وصياً ووارثاً، وإن وصيي ووارثي علي بن أبي
 طالب".

٣. دعوى الشيعة أن الأئمة محيطون بالأحكام
 المتعلقة بأفعال العباد، وأن النبي ﷺ لقنهم إياها،
 سواء فيما وقع أو فيما سيقع، وأن معرفة هذه
 الأحكام استأثر الأئمة بها، فلا يعلمها غيرهم إلا من
 طريقهم، كل هذا سوغ لبعض من انتسب إليهم أن
 يضع في ذلك أحاديث ينسبها إليهم، ويسلسل إسناده
 بأئمتهم.

فقد اشتهر لدى أئمة الحديث نسخ موضوعة
 ألصقت بآل البيت من ذلك:
 ○ نسخة أحمد بن عامر بن سليمان الطائي عن آل
 البيت.

٣. انظر: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، الشوكاني،
 تحقيق: المعلمي البياني، المكتب الإسلامي، بيروت، د. ت،
 ص ٣٤٢: ٣٨٣.

والحض عليه، بل تجاوزوا الأمر في ذلك حتى ادعوا
 الإمامة، بل النبوة، ويكفي في ذلك مثلاً قيام المختار
 الثقفي الكذاب الذي طلب من بعض الصحابة الكرام
 وأبنائهم أن يقووه بأحاديث يضعونها على لسانه ﷺ،
 ليلج بها الوصول إلى الإمارة السلطنة"^(١).

وعلى الرغم من كل هذا فإننا لا نتصور قط أن
 يوافق الحسن والحسين، أو محمد بن الحنفية، أو جعفر
 الصادق أو زيد بن علي، وغيرهم من أهل البيت على
 الكذب على رسول الله ﷺ جدّهم، وهم على جانب
 عظيم من الورع والتقوى والصفاء، وإن أهل البيت
 لأرفع بكثير من أن يكذبوا على رسول الله ﷺ، لهذا
 وجب أن نبين أن أهل البيت براء من هذا كله، وإنما
 حمل إثم الوضع باسمهم من لف حولهم من شيعتهم،
 وكثر الوضع وأساءوا إلى إمامهم علي ﷺ أكثر مما
 أحسنوا إليه بذلك"^(٢).

أمّا المؤثرات الداخلية فتتضح في بعض آراء انفرادها
 الشيعة:

ومحور هذه الآراء يتعلق بالإمامة وغيرها ومن
 ذلك:

١. جعلوا شرط الإمامة الأفضلية، وقالوا بفضل
 عليّ ﷺ على الإطلاق بعد رسول الله، وقد ذكر
 الشوكاني في كتابه "الفوائد المجموعة في الأحاديث
 الموضوعة" جملة من هذه الأحاديث، ومنها: "من لم يقل
 علي خير الناس فقد كفر"، و"النظر إلى علي عبادة"،

١. الوضع في الحديث، د. عمر حسن فلاتة، مرجع سابق، (١/ ٢٤٧، ٢٤٨).

٢. السنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب، مرجع سابق،
 ص ١٩٦ بتصرف.

وهكذا أسرفت الرافضة في وضع الأحاديث بما يتفق مع أهوائها، وبلغت من الكثرة حدًا مزعجًا، حتى قال الخليلي في الإرشاد: "وضعت الرافضة في فضائل عليّ وأهل بيته نحو ثلاثمائة ألف حديث"، ومع ما في قوله من المبالغة؛ فإنه دليل على كثرة ما وضعوا من الأحاديث.

ويكاد المسلم يقف مذهولاً من هذه الجرأة البالغة على رسول الله ﷺ، لولا أن يعلم أن هؤلاء الرافضة أكثرهم من الفرس الذين تستروا بالتشيع لينقضوا عرى الإسلام، أو ممن أسلموا ولم يستطيعوا أن يتخلوا عن كل آثار ديانتهم القديمة، فانتقلوا إلى الإسلام بعقلية وثنية، لا يهملها أن تكذب على صاحب الرسالة، لتؤيد حباً ثاوياً في أعماق أفتدتها، وهكذا يصنع الجهال والأطفال حين يجبون وحين يكرهون^(٢).

وبناء على ما سبق يتضح لنا أن الشيعة هم أول من بدءوا الوضع في الحديث، وأن أول باب طرده الوضاعون في الحديث هو فضائل الأشخاص، كما أن ذلك يوضح لنا أن المحدثين والعلماء تنبهوا لهذه العصبية، وفطنوا لهذه المسالك فنخلوا الأحاديث على أسسها ولم يهملوا هذه الجوانب.

وقد ضارح الشيعة الجهلة من أهل السنة، فقابلوا - مع الأسف - الكذب بكذب مثله، وإن كان أقل منه دائرة وأضيق نطاقاً، ومن ذلك: "ما في الجنة شجرة إلا مكتوب على ورقة منها لا إله إلا الله محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق، عثمان ذو النورين".

○ نسخة محمد بن سهل بن عامر البجلي عن موسى الرضا عن آبائه.

○ نسخة أحمد بن علي بن صدقة عن علي بن موسى الرضا عن آبائه.

وغير ذلك من النسخ التي حكم عليها الجهابذة بالوضع والكذب.

٤. سوَّغ قول الشيعة بالبداء الوضع والكذب على الله ﷻ، وعلى رسول الله ﷺ، فإذا كُشف أمره وبدت عورته وأسقط في يده، زعم أنه بدا لله غير ما أخبر^(١).

ويذكر د. مصطفى السباعي جنائتهم وتقوُّهم على الصحابة فيقول عنهم: "وكما وضعوا الأحاديث في فضل علي وآل البيت ﷺ، وضعوا الأحاديث في ذم الصحابة وخاصة الشيخين وكبار الصحابة، حتى قال ابن أبي الحديد: فأما الأمور المستبشعة التي تذكرها الشيعة من إرسال قنفذ إلى بيت فاطمة، وأنه ضربها بالسوط فصار في عضدها كالدملج، وأن عمر ﷺ ضغطها بين الباب والجدار، فصاحت: يا أبتاه. وجعل في عنق علي حبلاً يقاد به، وفاطمة خلفه تصرخ، وابناه الحسن والحسين يبكيان، ثم أخذ ابن أبي الحديد في ذكر الكثير من المثالب، ثم قال: "فكل ذلك لا أصل له عند أصحابنا، ولا يثبت أحد منهم، ولا رواه أهل الحديث ولا يعرفونه، وإنما هو شيء تنفرد الشيعة بنقله"، وكذلك وضعوا الأحاديث في ذم معاوية ﷺ: "إذا رأيت معاوية على منبري فاقتلوه". وفي ذم معاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهما: "اللهم أركسهما في الفتنة ودعَّهما في النار دعاً".

٢. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ٨٣، ٨٤.

١. الوضع في الحديث، د. عمر حسن فلاتة، مرجع سابق، (١/ ٢٤٧: ٢٤٩) بتصرف.

ثالثاً. أثر الخوارج في وضع الحديث، ودور العلماء في كشف ذلك وتمحيصه:

اختلفت نظرة الباحثين إلى دور الخوارج في وضع الحديث إلى فريقين:

الفريق الأول: يرى أن الخوارج كغيرهم من الفرق الإسلامية؛ كان لبعض الجاهلين والمتعصبين منهم دور في الكذب على رسول الله ﷺ، انتصاراً أو تعصباً للآراء التي يتحلونها، وقد استدلوها فيما ذهبوا إليه بأدلة هي:

١. قال الرامهرمزي: "حدثني الحسين بن عبد الله الجشمي من ولد مالك بن جشم، حدثنا عبيد بن هشام حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم قال: قال لي رجل من الخوارج: إن هذا الحديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم إنا كنا إذا هوينا أمراً جعلناه في حديث" (١).

وكذلك ما رواه الخطيب بسنده إلى أبي نعيم الحلبي قال: "حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، عن ابن لهيعة، قال سمعت شيخاً من الخوارج وهو يقول: إن هذه الأحاديث دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، إنا كنا إذا هوينا أمراً صيرناه حديثاً" (٢).

وهكذا أشارت الروايتان إلى أن الخوارج كانوا يضعون الحديث فيما يؤيد آراءهم.

٢. قال الرامهرمزي: "حدثنا الحضرمي حدثنا ابن نمير، حدثنا ابن إدريس عن الأعمش قال: جالست إياس بن معاوية فحدثني بحديث؛ قلت: من يذكر هذا؟ فضرب لي مثل رجل من الحرورية، فقلت: إني

كذلك قابلهم المتعصبون لمعاوية ﷺ والأمويين فوضعوا أحاديث مثل قولهم: "الأمناء ثلاثة، أنا وجبريل، ومعاوية"، "أنت مني يا معاوية وأنا منك"، "لا أفتقد في الجنة إلا معاوية يأتي أنفاً بعد وقت طويل، فأقول: من أين يا معاوية؟ فيقول: من عند ربي ينجيني وأناجيه، فيقول: هذا بما نبيل من عرضك في الدنيا".

وكذلك فعل المؤيدون للعباسيين فوضعوا إزاء حديث وصاية علي ﷺ المكذوب وصاية العباس ﷺ، "العباس وصيي ووارثي".

وتأسيساً على ما سبق، فإن الوضع في الأحاديث ومناقبة الرجال شهد نشاطاً ملحوظاً على أيدي غلاة الشيعة وخصومهم، وانسحب ذلك على الحكومات والآراء في تلك الفترة، مما عمق هوة الخلاف بين هذه الأحزاب؛ فعاشت الأمة الإسلامية ما بين التناحر السياسي، والتشيع الدافع إلى الوضع في الحديث، قيص الله لهم علماء بيتنا زيف هذا كله، فردوا كل الأحاديث التي جاءت بها هذه الفرق، وجعلوا من شروط قبول الحديث ألا يوافق مذهب صاحبه، فإن وافقه ردوه، واحتاطوا لأنفسهم من الأخذ والرواية عن أصحاب هذه المذاهب، وببهاؤهم غيرهم على عدم الأخذ عنهم.

أبعد هذا يُتهم المحدثون بإهمالهم الأسباب السياسية للوضع في الحديث؟ وإذا كان هذا حالهم كما يدعون، فكيف عرفنا الأحاديث الموضوعية من الصحيحة إن لم يكونوا هم أول من ببهاؤهم على ذلك واهتموا به؟! (٣)

١. المحدث الفاضل، الرامهرمزي، مرجع سابق، ص ٤٢٤.
٢. الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، (١/ ٣٧٦).

٣. في "وضع غلاة الشيعة الأحاديث في مدح علي وآل البيت" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثالثة عشرة، والوجه الأول، من الشبهة الرابعة والعشرين، من هذا الجزء.

تضرب هذا المثل؟ تريد أن أكس الطريق بثوبي فلا أدع بعرة ولا خنفساء إلا حملتها"^(١).

ويعلق د. عمر فلاتة على ذلك بقوله: فقد دلّ كلام الأعمش على أن الخوارج يجانبون الصدق في مروياتهم، ولذا مثل رواياتهم بالبعر والخنفساء تحقيرًا واستهانة، ولو لم يظهر له من كذبهم ما شبّه حديثهم بما شبه.

الفريق الثاني: يرى أن الخوارج لم يكن لهم دور في وضع الحديث، ولم يقدّم دليل يثبت به أنهم وضعوا حديثًا، ويستدلون على ذلك بما يأتي:

١. روى الخطيب البغدادي في الكفاية وأخرجه عن أبي داود سليمان بن الأشعث قال: "ليس في أصحاب الأهواء أصح حديثًا من الخوارج"^(٢).

٢. كذلك ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على الشيعة قال: ونحن نعلم أن الخوارج شر منكم، ومع هذا لا نقدر أن نرّمهم بالكذب، لأننا جربناهم فوجدناهم يتحرون الصدق لهم وعليهم، وكذلك قوله: ومن تأمل كتب الجرح والتعديل رأى المعروف عند مُصنِّفيها بالكذب الشيعة أكثر منهم في جميع الطوائف، والخوارج مع مروقهم من الدين فهم من أصدق الناس حتى قيل: إن حديثهم من أصح الحديث، لكنهم جهلوا وضلوا في بدعتهم، ولم تكن بدعتهم عن زندقة وإلحاد، بل عن جهل وضلال في معرفة معاني الكتاب"^(٣).

وبعد أن عرض صاحب كتاب الوضع في الحديث لضعف الآثار السابقة، وصل إلى حكم مفاده أن الخوارج لم يكن لهم أثر في وضع الحديث ويسوق الأدلة على ذلك ومنها:

- أن النظر في الكتب المؤلفة لجمع الأحاديث الموضوعية والتي تناولت كل الجزئيات التي تطرق إليها الوضع بما في ذلك أحاديث الفرق والمذاهب التي وضعت تأييدًا أو انتصارًا لتلك المذاهب، فإننا لا نرى لآراء الخوارج التي بنوا عليها مذهبهم ذكرًا في تلك المؤلفات، مما يدل على أن الخوارج لم يسلكوا هذا السبيل انتصارًا لمذهبهم، أو للدعوة إلى آرائهم، وإذا ثبتت براءتهم فيما انفردوا به مع إعوازمهم إلى الانتصار والتأييد، فإن تبرئتهم فيما شاركوا فيه غيرهم أولى وألزم.

- أن كثيرًا من طوائف الخوارج يقتصرون في الاحتجاج على ظواهر القرآن، ولا يحتجون بالسنة؛ ولذا فقد خالفوا المشهور من السنة، بل المتواتر في بعض ما ذهبوا إليه؛ كقولهم بإسقاط الرجم عن الزاني؛ إذ ليس في القرآن ذكره، وإسقاط حد القذف عن قذف المحصن من الرجال، مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء؛ لأن القرآن نص عليهن دون الرجال، وكقولهم: إن الصلوات ركعتان بالعشيّ وركعتان بالغداء لا غير؛ لقوله ﷺ: ﴿ وَأَقْبِرَ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ ﴾ (مود: ١١٤)، وحيث إنهم لا يقولون بحجية السنة، فمن الطبيعي أنهم لا يلجئون إلى الوضع في الحديث لعدم حاجتهم إليه.

- أن من أصول الخوارج أن مرتكب الكبيرة

١. المحدث الفاضل، الراهرمزي، مرجع سابق، ص ٢٠٩.

٢. الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، (١/ ٣٨٩).

٣. منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، مرجع سابق، ص ٩٦، ٩٧ بتصرف.

الكاذب ومن ذوي المعصية الظاهرة"، وكانوا في جمهورتهم عربًا أقحاحًا؛ فلم يكن وسطهم بالوسط الذي يقبل الدسائس من الزنادقة والشعوبيين كما وقع ذلك للرافضة، وكانوا في العبادة على حظ عظيم، شجعانًا صرحاء، لا يجاملون، ولا يلجئون إلى التقية كما يفعل الشيعة. وقوم هذه صفاتهم يبعد جدًا أن يقع منهم الكذب. ولو كانوا يستحلون الكذب على رسول الله ﷺ لاستحلوا الكذب على من دونه من الخلفاء والأمراء والطغاة كزياد والحجاج، وكل ما بين أيدينا من النصوص التاريخية يدل دلالة قاطعة على أنهم واجهوا الحكام والخلفاء بمتتهى الصراحة والصدق، فلماذا يكذبون بعد ذلك؟ على أي أعود - والحديث للدكتور مصطفى السباعي - فأقول: إن المهم عندنا أن نلمس دليلًا محسوسًا يدل على أنهم ممن وضعوا الحديث، وهذا ما لم أعر عليه حتى الآن^(٢).

ويقول د. عجاج الخطيب بعد معالجته للأثار التي تثبت الوضع للخوارج وتفنيدها وإبطالها: وهكذا يثبت أن الخوارج لم ينغمسوا في حمأة الوضع، لما عرف عنهم من الورع والتقوى. بيد أن هذا الأمر - عدم وضع الخوارج للحديث - لم يكن مطلقًا أو ممنوعًا نهائيًا، ولكن لكل قاعدة استثناءات، ولكل فرقة شذوذ، ومن الخوارج أيضًا فقد ذهبت طائفة مارقة منهم إلى الوضع في الحديث، ولكنه كان قليلًا، يؤيد ذلك صاحب كتاب "الحديث والمحدثون" بعد عرضه للخوارج، والتعريف بهم وبأهم صفاتهم، وعوامل قلتهم للوضع فيقول:

كافر، والكذب عندهم من الكبائر؛ ولذا فهم يكفرون الكاذب.

• اتصافهم بالشدة والغلظة والغلو الشديد لما يعتقدون مما لا يحتاجون فيه إلى ما قالوا برهانًا، مع عدم قولهم بالتقية، واعتمادهم على السيف والقوة في إدخال الناس إلى بدعهم حيث لم يعرف الجدل والمناقشة إليهم سبيلًا.

• كونهم أعرابًا أقحاحًا؛ إذ لم يكن للموالي والعجم أثر أو تأثير عليهم في بدعتهم، مع اتصافهم بالبداءة والحياة المجانفة للمدنية، والحضارة - التي من شأنها المداهنة والملق - هي الدافع إلى الكذب وتبريره.

• شهادة جماعة من أئمة الحديث، وعلماء الأمة بصدق الخوارج، وترفعهم عن الكذب وصحة حديثهم مع مخالفتهم له ومن هؤلاء: أبو داود، وابن تيمية وغيرهما^(١).

ومن ذهب إلى تبرئة الخوارج من الوضع في الحديث د. مصطفى السباعي، حيث يقول بعد عرضه للروايات القائله بالوضع: "لقد حاولت أن أعرش على دليل علمي يؤيد نسبة الوضع إلى الخوارج، ولكنني رأيت الأدلة العلمية على العكس، تنفي عنهم هذه التهمة؛ فقد كان الخوارج كما ذكرنا يكفرون مرتكب الكبيرة أو مرتكب الذنوب مطلقًا، والكذب كبيرة، فكيف إذا كان على رسول الله ﷺ؟"

يقول المبرّد: "والخوارج في جميع أصنافها تبرأ من

٢. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ٨٥، ٨٦.

١. الوضع في الحديث، د. عمر حسن فلاتة، مرجع سابق، (١/ ٢٣٦، ٢٣٧) بتصرف.

وقعت الفتن واختلف الناس، وغدوا فرقاً وأشياء،
واندس في جسد الأمة الإسلامية أصحاب المصالح
والأهواء، وأصبح كل فريق يسعى لمطلبه، وتحول
الخلاف على شخصية الخليفة إلى خلاف سياسي اصطنع
بالصبغة الدينية، ومن هنا فقد قامت كل فرقة على
نظريات تخصصها، ووضعت في الحديث ما يؤيد وجهة
نظرها، فنشأ الوضع في الحديث، وكان أول الوضع من
قِبَل الشيعة في مناقب الرجال لتقوية من يرونه أهلاً
للإمامة وأحق بها.

• قام المحدثون بجهود عظيمة في كشف
الأحاديث الموضوعية ووضع قواعد لنقد الرويات مع
تقنين أسباب الوضع وبيان سمات الوضعين، وكان
من أبرز أسلحتهم في ذلك: قواعد الجرح والتعديل،
وأسس الحكم على الرجال والأسانيد، واستعملوا ذلك
ليخلصوا السنة الصحيحة من المكذوبة والموضوعة،
ووضعوا لذلك شروطاً لا بد أن تتوفر في الراوي،
وكان من عمدة هذه الشروط ألا يكون من أصحاب
البدع والأهواء والمذاهب السياسية التي استباح
الكذب على النبي ﷺ، فكيف يدعي أصحاب الأهواء
بعد ذلك أن العلماء أهملوا الأسباب السياسية الدافعة
لوضع، وهم الذين كشفوا حقيقة هذه الأسباب
ونظروا لها القواعد، وكان على رأسها ظهور الفرق
والمذاهب الكلامية الفلسفية، ونَبَّهوا على ضرورة البعد
عن أصحاب هذه المذاهب والآراء، وعدم الأخذ
عنهم.

• وبعد كل هذا الجهد العظيم الذي قام به
المحدثون في تنقيح الأحاديث وتمييز صحيحها من
سقيمها، فاعتنوا بنقدها سنداً وامتناً عناية فائقة،

فكل هذه العوامل كان لها أثر في تقليل الكذب في
الحديث من الخوارج بالنسبة إلى غيرهم من الفرق
الأخرى. ومع ذلك لم يعدوا أفراداً منهم اصطنعوا
الأكاذيب واختلقوا الأحاديث^(١).

وبناء على ما سبق يتضح لنا أن الخوارج يتحرون
الصدق في الحديث ولا يكذبون فيه، ولم يقعوا في حماة
الكذب، ولم يعرف عنهم التجرد على رسول الله ﷺ أو
التقول عليه سوى فئة ضالة منهم - وهم قليل - عبثت
بالحديث، بيد أن الله قيض للسنّة من يكشف زيف
أقوالهم وسوء فعالهم، كما أبطل كيد غيرهم من الفرق
المنتسبة للإسلام وغير المنتسبة إليه.

فإذا كان العلماء والمحدثون قد قاموا بهذا الجهد
العظيم في نقد الرويات وتمييز صحيحها من سقيمها
وقعدوا لذلك القواعد التي لم تصل إلى مثلها أمة من
الأمم قبلهم ولا بعدهم ومنها عوامل الوضع وأسبابه،
آخذين في الحسبان التعصب المذهبي والانتماءات
السياسية ودورها في وضع الحديث - فكيف يقال بعد
ذلك: إن علماء الحديث أهملوا الدوافع السياسية
الدافعة للوضع[®]!؟

الخلاصة:

• لقد بقي الحديث النبوي الشريف نقيّاً لا يعتره
الكذب، ولا يدخله التحريف طوال مدة اجتماع كلمة
الأمة الإسلامية على خلفائها الراشدين، ولكن بعد أن

١. الحديث والمحدثون، د. محمد أبو زهو، مطبعة مصر،
القاهرة، ط ١، ١٩٥٨م، ص ٨٧.

® في "الخلافات السياسية لم تؤثر في الرواية عن رسول الله"
طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة والثلاثين، من الجزء
الرابع (عدالة الصحابة).

فريقين: الأول يرى أنهم وضعوا الحديث، والفريق الآخر يرى براءة ساحتهم من هذا الوضع، والرأي الراجح في هذه المسألة هو قلة وضع الخوارج مقارنة بغيرهم من الفرق الضالة الأخرى، وذلك لأنهم لا يكذبون ويتحرون الصدق مما جعلهم لا يتقولون على النبي ﷺ رغم مروقهم من الدين.



الشبهة الحادية والعشرون

ادعاء أن القواعد الكلية للحكم على الحديث الموضوع لم تُعرف إلا في القرن الثامن الهجري (*)

مضمون الشبهة:

يَدَّعي بعض المتوهمين أن القواعد والضوابط الكلية للحكم على الحديث الموضوع لم تُعرف إلا في القرن الثامن الهجري، ويستدلون على ذلك بأن أول من جمع هذه القواعد والضوابط الكلية هو ابن قيم الجوزية، والذي توفي في منتصف القرن الثامن الهجري (٧٥١هـ)، في كتابه "نقد المنقول والمحك المميّز بين المرود والمقبول"، كما أن صحيح البخاري ومسلم لم يُعرّضَا على هذه القواعد. ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في صحة الأحاديث الصحيحة الواردة عنه ﷺ عامة، والطعن في أحاديث صحيح البخاري ومسلم خاصة.

وجهاً لإبطال الشبهة:

(١) إن المتأمل لجهود علماء الأمة في مقاومة الوضع

(*) دور السنة في إعادة بناء الأمة، جواد عفانة، مرجع سابق.

وحذروا من الرواية عن أصحاب هذه البدع والأهواء، هل يُتَّهمون بإهمال الأسباب السياسية الداعية للوضع؟!

• لقد كشف علماء الأمة الأفاضل أثر الشيعة البارز في وضع الحديث، كما بيّنوا دور الروافض الذين تميزوا بكثرة الوضع، وكان للوضع من قبل الشيعة مؤثرات دفعتهم إلى كثرته، ومن ذلك أسباب خارجية منها: دخول الكثير من أعداء الإسلام في صفوف الشيعة، وانتحلوا مذهبهم وتظاهروا بحب آل البيت، وهم يرمون من وراء ذلك إلى نشر آرائهم الباطلة، كما أنهم انتحلوا مذهب التشيع للوصول إلى السلطة والجاه، فوضعوا الكثير من الأحاديث التي تؤيد وجهتهم وأحقيتهم.

أما المؤثرات الداخلية الداعية للوضع: فقد كان على رأسها شرط الإمامة عندهم أو أفضلية علي بن أبي طالب على غيره من الصحابة وأحقيته بالإمامة دونهم، وكذلك الوصية لعليّ ﷺ، مما جعلهم يلصقون بسيدنا عليّ ﷺ أو صافاً لا تليق به أو بمكانته في الإسلام، هذا فضلاً عن قولهم بالبداء، والذي سَوَّغَ لبعضهم الوضع والكذب على الله ﷻ.

• لقد تطاول الشيعة - بدعوى حبهم لآل البيت - على الصحابة ﷺ، ووضعوا في ذلك مروبات باطلة وأحاديث مكذوبة، فحدا ذلك بفريق من الوضعيين من الأحزاب الأخرى، إلى أن يضعوا في مقابلها أحاديث ترفع من شأن من أنقصهم الشيعة، فوضعوا أحاديث في فضل الأمويين والعباسيين وغيرهم.

• اختلف الباحثون حول الخوارج، وهل لهم دور في وضع الحديث أم لا؟ وانقسموا حيال هذا الأمر إلى

الذهبي عنه: "أول من احتاط في قبول الأخبار"، وقصته في توريث الجدة مشهورة، وكذلك الفاروق عمر رضي الله عنه، ومواقفه في ذلك معلومة، قال عنه الذهبي: "وهو الذي سن للمحدثين الثبوت في النقل"، وكان علي رضي الله عنه شديد التحري في الأخذ، بالغ الثبوت فيه.

وجاء في صحيح مسلم أن محمد بن سيرين قال: "إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم" ^(١)، وفيه عن سليمان بن موسى قال: "لقيت طاوسًا فقلت: حدّثني فلان كيت وكيت، قال: إن كان صاحبك مليًا فخذ عنه" ^(٢).

قال النووي: "قوله: "إن كان مليًا": يعني ثقة ضابطًا متقنًا، يوثق بدينه ومعرفته، ويعتمد عليه كما يعتمد على معاملة الملي بالمال ثقة بدمته".

وبمثل هذا وصّى الأئمة طلاب علمهم، فقد أخرج الخطيب بسنده عن معن بن عيسى، قال: "كان مالك بن أنس (ت: ١٧٩ هـ) يقول: لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سوى ذلك، لا يؤخذ من سفيه معلى بالسفه وإن كان أروى الناس، ولا يؤخذ من كذاب يكذب في أحاديث الناس إذا جُرب ذلك عليه، وإذا كان لا يُتَّهم أن يكذب على رسول الله، ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من شيخ له فضل وعبادة، إذا كان لا يعرف ما يحدث" ^(٣).

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: بيان أن الإسناد من الدين... (١/ ١٧٣).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: بيان أن الإسناد من الدين... (١/ ١٧٣).

٣. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، (١/ ٢١٢).

في الحديث النبوي ليجد أن هذه الجهود قد بدأت منذ ظهور الوضع في أثناء الفتنة، ومن حينها والسنة محاطة بسياج من التوقّي والنقد، فلا ينفذ إليها دَخْل، ولا يخلص إليها دخيل، وقد مارس العلماء قواعد الحكم على الحديث الموضوع على أرض الواقع مباشرة منذ فجر الرواية والتحديث، وقد جاءت بعض هذه القواعد في مؤلفاتهم، كما راعوها في تأليفهم تطبيقًا، وذلك كله كان قبل القرن الثامن الهجري.

(٢) اتفق العلماء على أن أصح كتابين بعد كتاب الله صحيح البخاري ومسلم، وقد تلقتهما الأمة بالقبول، وليس ذلك ناتجًا إلا عن فحص، وتدقيق، وتطبيق لقواعد وضوابط الحكم على الحديث، وما استدركات الحاكم والدارقطني والبيهقي إلا دليل على تناول الصحيحين بالفحص.

التفصيل:

أولاً. ممارسة علماء الحديث قواعد الحكم على الحديث الموضوع منذ فجر الرواية والتحديث:

لم تكن ضوابط الرواية وقوانينها إلا ثمرة من ثمرات تصدّي العلماء للوضع في الحديث، ونتيجة من نتائج جهودهم في نفي الكذب عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد بدأت جهود العلماء منذ عصر الراشدين رضي الله عنهم في حيطة السنة بسياج من التوقّي والنقد، فلا ينفذ إليها دخل، ولا يخلص إليها دخيل، وإنما تبقى على أصل نقائها بغير شائبة تشوبها.

وقد سلك العلماء في مقاومة الوضع مسالك شتى، منها الثبوت في السماع والتشديد فيه، وقد بدأ الأمر مبكرًا على عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو كما قال

فقال أحمد: إذا سَكَتَ أنت وسَكَتُ أنا، فمتى يُعرف الجاهل الصحيح من السقيم" (٤).

لقد ألزم العلماء أنفسهم ببيان أمر الكذابين، وإظهار حالهم لِيَتَوَقَّفَ عن الاحتجاج بهم. ومن هاتيك المسالك أيضًا تضيق الخناق على الوضاعين، وذلك بمواجهتهم المباشرة مع الوضاعين؛ ليكون ذلك زاجراً لهم عن التهادي في الكذب والاختلاق، وقد كان ذلك بتعنيفهم للوضاعين بمقاطعتهم، وعدم إلقاء السلام عليهم، وذلك بعد تذكيرهم بالله مع تهاديهم في الكذب، وإن تمادوا بعد ذلك وكذبوا استعدى العلماء عليهم السلطان ليزدجروا عن وضعهم وإفكهم.

وثمة مسلك في غاية الأهمية، وهو فحص الإسناد والذي تأسس بناء عليه علم الجرح والتعديل، فقد برز الفحص عن الإسناد درعاً يتحطَّم عليه الكذب، ويتبين به الصحيح من الزائف؛ إذ الإسناد للحديث كالتَّسَبُّب للرجل.

يقول ابن المبارك صحيحه: "الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء" (٥).

وعن محمد بن سيرين قال: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سَمُّوا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم" (٦).

وقد قيل: إن أول من فُتِّش عن الإسناد الشعبي،

إذا علمنا ذلك وغيره، تبين - بما لا يدع مجالاً للمباحلة أو اللجاج - مدى تثبتهم وحيطتهم في قبول الرويات، وحرصهم على الأخذ عن الأثبات الثقات، كل ذلك في القرون الأولى المتقدمة على القرن الثامن الهجري.

ومن مسالكهم في مقاومة الوضع، الكشف عن معايب رواة الحديث، وهذا مسلك سلكه العلماء منذ مطلع فجر الرواية والتحديث، فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن سعيد بن جبير قال: "قلت لابن عباس: إن نوحاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، فقال ابن عباس: كذب عدو الله..." (١)، وتتابع العلماء على ذلك لا يجابون أحداً، ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، حتى ليتكلم الرجل في أبيه من أجل الدين.

قال ابن حبان: "سئل علي بن المديني - وهو شيخ البخاري - عن أبيه، فقال: اسألو غيري، فقالوا: سألتناك، فأطرق ثم رفع رأسه وقال: هذا هو الدين، أبي ضعيف" (٢)، بل كان علماء الحديث يتقربون إلى الله ﷻ ببيان أحوال الكاذبين على رسول الله ﷺ فكان شعبة يقول: تعالوا حتى نغتاب في الله ﷻ (٣).

وقال محمد بن بNDAR لأحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ): "إنه لَيْشْتَدُّ عَلَيَّ أن أقول: فلان ضعيف، فلان كذاب،

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: ما يستحب للعالم إذ سئل: أي الناس أعلم، (١/ ٢٦٣)، رقم (١٢٢).

٢. كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، ابن حبان، مرجع سابق، (٢/ ١٥).

٣. المرجع السابق، (١/ ١٩).

٤. طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى، نقلا عن: الوضع في الحديث، محمد سعيد رسلان، مرجع سابق، ص ١٢١ وما بعدها.

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: أن الإسناد من الدين... (١/ ١٧٣).

٦. صحيح مسلم (بشرح النووي)، المقدمة، باب: أن الإسناد من الدين... (١/ ١٧٣).

مما سبق يتضح للعيان أن قواعد التحديث والحكم على الحديث عُرفت منذ ظهور الوضع، وقد استخدم العلماء هذه القواعد والضوابط فعلياً وعملياً، من الثبت في السماع والكشف عن معايب رواة الحديث وتضييق الخناق على الوضاعين وفحص الإسناد الذي أدى بدوره إلى ظهور علم الجرح والتعديل، ولقد كان كل هذا يتداول بين العلماء، يمارسون هذه القواعد، لينفوا الزيف عن السنة، ويدفعوا عنها الدخيل.

ولقد كان كل هذا في وقت مبكر جداً، وليس كما يدعي المتوهمون أنه لم يكن ثمة معرفة بهذه القواعد قبل القرن الثامن الهجري.

وإذا قلنا: إن قواعد التحديث والمحدثين تتغيماً معرفة الرواة والمرويات؛ ببيان صفاتهم وأحوالهم، والطرق الموصلة إلى ذلك وتتبعها ونقدتها، وبيان ما لها وما عليها، وكذلك المنهج الذي ساروا عليه في التأليف والنقد، والتعديل والتجريح، إذا قلنا هذا، فإن هذا الأمر قد هيمن على الحركة العلمية الحديثية من حين اهتم أبنائها بجمع الحديث النبوي، بل من حين عرف الصحابة الكرام أهمية الحديث ومكانته بالنسبة للتشريع عموماً وخصوصاً.

وعليه يمكن القول بأن هذه القواعد قد نشأت في وقت مبكر، تزامن مع بدء الرواية والتحمّل والأداء، وقد كان لدى الصحابة ما يمكن أن نطلق عليه "قواعد تحديث" أو "أصول الحديث".

مما يقطع بأن هذه القواعد بدايات مبكرة، وإن لم تأخذ شكل العلوم المدونة في الكتب، والمسماة باسمها الخاص المشعر بها، أو لم تتبلور في صورة علم محدد مدوّن من هذه الناحية.

وقيل: محمد بن سيرين، والأقرب أن التفتيش عن الإسناد ونقد الرجال كان معمولاً به من جهة الصحابة أنفسهم وبوصية منهم، فقد روى ابن عبد البر عن ابن معين أنه قال: "كان فيما أوصى به صهيب بنيه أنه قال: يا بني لا تقبلوا الحديث عن رسول الله ﷺ إلا من ثقة"^(١). وقد كان الزهري (ت: ١٢٤هـ) لا يحدث إلا بالإسناد. وعلم الجرح والتعديل علم يبحث فيه عن جرح الرواة وتعديلهم بألفاظ مخصوصة عن مراتب تلك الألفاظ^(٢)، قال الإمام مسلم في مقدمة صحيحه: "وإنما أئزموا أنفسهم الكشف عن معايب رواة الحديث وناقلي الأخبار، وأفتوا بذلك حين سئلوا، لما فيه من عظيم الخطر؛ إذ الأخبار في أمر الدين إنما تأتي لتحليل أو تحريم، أو أمر أو نهى، أو ترغيب أو ترهيب، فإذا كان الراوي ليس لها بمعدن للصدق والأمانة ثم أقدم على الرواية عنه من قد عرفه ولم يبين ما فيه لغيره ممن جهل معرفته، كان آثماً بفعله ذلك غاشاً لعوام المسلمين، إذ لا يؤتمن على بعض من سمع تلك الأخبار أن يستعملها، أو يستعمل بعضها، ولعلها أو أكثرها أكاذيب لا أصل لها، مع أن الأخبار الصحاح من رواية الثقات، وأهل القناعة أكثر من أن يضطر إلى نقل من ليس بثقة ولا مقنع"^(٣).

١. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، مطابع الشويخ، المغرب، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، (١/ ٤٥).

٢. انظر: الوضع في الحديث وجهود العلماء في مواجهته، د. محمد سعيد رسلان، مرجع سابق، ص ١٢١: ١٦٥.

٣. شرح صحيح مسلم، النووي، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، مكتبة نزار الباز، الرياض، ط ٢، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، (١/ ١٨٢).

خلال القرن الثالث الهجري، الذي يُعدُّ بحق العصر الذهبي لتدوين السنة وعلومها، حتى شمل التدوين سائر فروعها، وبرزت الاصطلاحات الحديثية التي تداولها العلماء.

فلما كان منتصف القرن الرابع الهجري وما بعده ظهرت الكتب الخاصة، والتي تعد من أمهاتها، ولا تزال المرجع الذي لا غنى عنه لمبتغي هذا العلم، منها:

- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، وهو لأبي محمد الحسيب بن عبد الرحمن بن خلّاد الرّامهرمزي (ت: ٣٦٠هـ).

- معرفة علوم الحديث، وهو لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)، وقد بحث في اثنتين وخمسين قاعدة من قواعد علوم الحديث.

- الكفاية في معرفة أصول علوم الرواية، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، وهما للخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ).

- الإلماع في أصول الرواية والسمع للقاضي عياض (ت: ٥٤٤هـ).

- علوم الحديث، لابن الصلاح (ت: ٦٤٣هـ)^(١).

وهكذا قُعدت القواعد في مسائل النقل، وعلل الحديث، والجرح والتعديل، والتوثيق والتضعيف، وتقييم أحوال الرواة في الأسانيد ضبطاً وعدلاً، واتصلاً وانقطاعاً، وقبولاً وردّاً حتى انكشف الصبح

معنى هذا أن البدايات الأولى للقواعد قد ظهرت في عهد النبوة وإن لم تأخذ صفة الانتشار، أو تتبلور في صورة أفكار واضحة محددة، شأن كل العلوم التي حُدّدت معالمها فيما بعد ووضعت عليها أسماؤها.

وإننا لا نبالغ إذا قلنا: إن القواعد والضوابط للحكم على الحديث لم يبتدعها علماء الحديث، بل إن الصحابة الكرام قد مهدوا الطريق لها؛ إذ يرجع الفضل للصحابة في بدء علم الرواية بما وعته صدورهم، ثم بما وضعوا للرواية من قوانين، ومنها: إحجام كثير من أعلام الصحابة عن الإكثار من الرواية؛ لأن الحديث عن رسول الله شديد، ومنه التشدد في قبول الأخبار والتثبت في السماع، ومنها ظهور بعض المصطلحات الحديثية خاصة ما يتعلق بالجرح والتعديل، بل لقد اعتبر الحاكم زعماء الطبقة الأولى من طبقات الجرح والتعديل: أبا بكر وعمر وزيد بن ثابت، وقال: إنهم قد جرحوا وعدّلوا ويحشوا عن صحيح الروايات وسقيمها.

هذه بعض الأدلة التي يقف القارئ من خلالها على أن لقواعد المحدثين بدايات مبكرة تزامنت مع عصر الرواية ومراحلها الأولى.

ومن ثم يمكن القول: إن القرن الأول الهجري يُعدُّ بداية التكوين الرسمي لقواعد المحدثين، وبعده وخلال القرن الثاني الهجري مرت القواعد بعدة أدوار اكتملت من خلالها سائر مباحثها وأنواعها. كل هذا، وهذه القواعد معروفة بين العلماء مشتهرة بينهم تجري على ألسنتهم ألفاظ الجرح والتعديل والحكم على الرجال وعلى الأحاديث.

وبعد ذلك بدأ تدوين هذه القواعد في مؤلفات

١. التأصيل الشرعي لقواعد المحدثين، د. عبد الله شعبان، دار السلام، القاهرة، ط ١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٥م، ص ١٣: ٢١. بتصرف.

والضعفاء للعقبيلي (ت: ٣٢٢هـ)، والضعفاء للجرجاني (ت: ٣٢٣هـ)، والضعفاء والمتروكين للدارقطني (ت: ٣٨٥هـ).

وكثير غير هذه الكتب مما أُلّف في القرون المتقدمة على القرن الثامن الهجري بقرون، والتي تدل على وعي تام من العلماء بقواعد وضوابط الحكم على الحديث ومعرفة الصحيح من الضعيف والموضوع.

كما أولى أئمة النقد وعلماؤه التصنيف في الكذابين والضعفاء أهمية كبيرة، اعتنوا أيضًا بتأليف الكتب في الأحاديث الموضوعية، ومن هذه الكتب: موضوعات النقاش (ت: ٤١٤هـ)، الأباطيل للجوزقاني (ت: ٥٤٣هـ)^(٢).

وقد بدأت حركة جمع الحديث ونقده وتمييز صحيحه من ضعيفه، والبحث في أحوال الرجال والحكم لهم أو عليهم - في القرن الثالث الهجري، ففي هذا العصر أُلّفَت كتب الحديث، فظهر صحيح البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، وكذلك صحيح مسلم (ت: ٢٦١هـ)، وسنن ابن ماجه (ت: ٢٣٧هـ)، وسنن أبي داود (ت: ٢٧٥هـ) وجامع الترمذي (ت: ٢٧٩هـ)، وسنن النسائي (ت: ٣٠٣هـ)^(٣).

ولا يشك عاقل في أن هؤلاء الذين أُلّفوا في الصحيح كالبخاري ومسلم، أو في السنن كابن ماجه، وأبي داود، والترمذي، والنسائي كانوا على دراية واسعة بقواعد الحكم على الحديث وضوابطه، وعلى علم كامل

لذي عينين، وتميز صحيح الأحاديث من سقيمها، وأصيلها من منحولها، بفضل الله ﷻ، ثم بفضل همة المخلصين من علماء الأمة وصلحاء البرية؛ إذ تصدّى فريق من حفاظهم للتأليف، والإبانة عن الثقات من الرواة، واقتصر المؤلفون في كتبهم على العدول من أهل الثقة والأمانة والتثبت والحفظ والإتقان، ومن متقدمي هذا الفريق: الإمام أبو الحسن أحمد بن عبد الله العجلي (ت: ٢٦١هـ)، وأبو حاتم بن حبان البستي (ت: ٣٨٥هـ).

وتصدّى فريق ثانٍ للتأليف والإبانة عن "الضعفاء" من الرواة، تحذيرًا للأمة منهم، وتنبهًا للباحثين من التعويل على نقلهم، واقتصر المؤلفون في كتبهم على ذكر أسماء وأحوال المجروحين من أهل الغفلة، والكذب، ووضع الأحاديث زورًا على النبي ﷺ، ومن هذا الفريق الأئمة الحفاظ من أمثال البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، والنسائي (ت: ٣٠٣هـ)، ومحمد بن عمرو العقيلي (ت: ٣٢٢هـ)، والدارقطني (ت: ٣٨٥هـ)^(١)، وهم من علماء القرن الثالث والرابع الهجريين.

ومن هذه الكتب كذلك، كتاب الضعفاء لابن المديني (ت: ٢٣٤هـ)، وهو شيخ البخاري، وكتاب الضعفاء لابن البرقي (ت: ٢٤٩هـ)، وكتاب الضعفاء للبخاري (ت: ٢٥٦هـ)، وكتاب الضعفاء والمتروكين السعدي (ت: ٢٥٩هـ)، وكتاب الضعفاء والمتروكين للبرذعي (ت: ٢٩٢هـ)، والضعفاء لابن الجارود (ت: ٢٩٩هـ)، والضعفاء والمتروكين للنسائي (ت: ٣٠٣هـ)، والضعفاء للساجي (ت: ٣٠٧هـ)،

٢. انظر: الوضع في الحديث، د. عمر فلاتة، مرجع سابق، (٣/ ٤٥٣، ٤٥٤).

٣. الحديث النبوي ومكانته في الفكر الإسلامي الحديث، د. محمد حمزة، مرجع سابق، ص ٢٠٣.

١. انظر: الموضوعات، ابن الجوزي، مرجع سابق، (١/ ١٨، ١٩).

لكتابيهما الصحيحين منزلة لا تُصارع في هذا المجال. ولذلك صوّب خصوم الإسلام سهامهم نحو هذين العلمين؛ لأن في النيل منهما نيلاً من المعارف التي برزا فيها، ولذا سعوا لتحقيق ذلك بكل ما أوتوا من دهاء ومكر وخديعة.

إن صحيحي البخاري ومسلم كتب الله لهما الذبوع، وقد تلقتهما الأمة بالرضا والقبول، وأجمعت على اعتمادهما بعد كتاب الله في العمل للدنيا والآخرة، والأمة لا تجتمع على ضلالة كما في الحديث الشريف من طرق متعددة^(١).

لقد كانت هناك عناية تامة من الإمام البخاري، والإمام مسلم في انتقاء الأحاديث التي أودعها كل منهما كتابه، وفي وضع شروط خاصة وعالية في وضع المتن والأسانيد حتى لا يدون في الكتابين إلا ما كان صحيحًا، ولهذا انتشر الكتابان باسم الصحيح، "صحيح البخاري" و"صحيح مسلم"، واشتهرا بالصحيحين^(٢).

لقد كان البخاري ومسلم على درجة عالية من الدقة في انتقاء الرجال والأخذ عنهم، ولقد انتقى البخاري كتابه وجامعه الصحيح، والذي تبلغ عدة أحاديثه أربعة آلاف حديث دون المكرر والمعلقات والمتابعات من ستمائة ألف حديث، وانتقى مسلم جامعه، والذي تبلغ عدة أحاديثه أربعة آلاف أيضًا بإسقاط المكرر من كثير

١. الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ص ٧٣، ٧٤ بتصرف.
٢. مكانة الصحيحين والدفاع عن صحيح مسلم، أبو عمر عبد العزيز بن ندي بن عبد الرحمن العتيبي الأثري، شركة غراس، الكويت، ط ١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م، ص ١٣.

بأسس تمحيص الروايات ونقدها، وإلا لما درأ كل منهم الأحاديث غير الصحيحة وأقصاها عن مؤلفه، أو أدرجها وأشار إلى درجة ضعفها كما فعل الترمذي، فعلى أي أساس فعلوا ذلك، إلا على أساس معرفة القواعد والضوابط التي كانوا يمارسونها ويباشرونها على أرض الواقع، كل ذلك قبل القرن الثامن.

وأما أن ابن القيم هو الذي أفرد هذه القواعد في مصنف مستقل، فإن هذا لا يعني عدم وجودها قبله، سواء كانت موجودة بالممارسة الفعلية أو كانت في بطون الكتب كما ذكرنا، وما زاد ابن القيم على أن جمع شتات هذه القواعد والضوابط في مكان واحد.

إن التقول بعدم معرفة العلماء لقواعد الحكم على الحديث الموضوع وضوابطه إلا في القرن الثامن الهجري قول بغير دليل، والواقع يرده ويحكم بطلانه، وهو اعتساف بغير تدبر، يتنزه عنه الباحث عن الحق[®].

ثانياً. صحيحا البخاري ومسلم في ميزان النقد:

لقد سطع في سماء علوم الحديث الإمام البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، والإمام مسلم (ت: ٢٦١هـ)، وصار

® في "قواعد الحكم على الأحاديث أدق من قواعد الحكم على أخبار المؤرخين" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثالثة عشرة، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها). وفي "جهود العلماء في الحفاظ على السنة من الوضع" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثالثة عشرة، والوجه الأول، من الشبهة السابعة عشرة، من هذا الجزء. وفي "معنى علم النقد الحديثي ونشأته المبكرة" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية، من الجزء السابع (الإسناد والمتن). وفي "قواعد معرفة الحديث الموضوع ونقده" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية، من الجزء السابع (الإسناد والمتن). وفي "اهتمام علماء الحديث بنقد المتن والسند على السواء" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة، من الجزء السابع (الإسناد والمتن).

من الأحاديث التي كان يحفظها^(١).

يدل على ذلك ما قاله الحافظ العقيلي (ت):

٣٢٢هـ): "لما صنف البخاري كتاب الصحيح، عرضه على ابن المدني وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وغيرهم فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة، إلا أربعة أحاديث، قال العقيلي: والقول فيها قول البخاري وهي صحيحة". قال الإمام النووي: "قد استدرك جماعة على البخاري ومسلم أحاديث أخلاً بشرطها فيها ونزلت عن درجة ما التزمها... وقد ألف الدارقطني (ت): ٣٨٥هـ) في بيان ذلك كتابه المسمى بـ "الاستدراكات والتتبع"^(٢)، وذلك في مائتي حديث معاً في الكتابين، ولأبي مسعود الدمشقي أيضاً عليهم استدراك، ولأبي علي الغساني الجبلي في كتابه "تقييد المهمل" في جزء العلل منه استدراك أكثره على الرواة عنهما، وفيه ما يلزمهما، وقد أوجب عن كل ذلك أو أكثره"^(٣).

إن ما قام به الدارقطني وغيره من علماء الحديث من استدراكات على صحيح البخاري ومسلم هو دليل على الحرية التي كان يتمتع بها المسلمون مع كتب الصحاح، باعتبارها كتب حديث تُطبَّق عليها القواعد والضوابط الحديثية، ولو كانت هذه الكتب منتقاة أحاديثها من آلاف الأحاديث.

وإن هذا النقد ليدل على الإتيان الذي يثبت في النفوس الاطمئنان إلى سلامة السنة المعتمدة لدى الأمة من التزوير والخلل؛ إذ لم ينظر المحدثون إلى هذين الإمامين نظرة تقديس ترفعهما إلى درجة العصمة من

ولا ريب أن دَرَأَهُم للأحاديث الأخرى التي لم يذكرها في صحيحها دليل على معرفتهم الواعية الفاحصة بقواعد الحكم على الحديث ونقده وتمحيصه، فاختيارهم لرجال بأعينهم، وبشروط صارمة، دليل على معرفة قواعد التحديث، والحكم على الرجال، أي معرفة قواعد الجرح والتعديل.

وأما أن قواعد الحكم على الحديث لم يعرض عليها صحيح البخاري ومسلم فهذا كلام غير صحيح، ولا دليل عليه؛ وإليك البيان:

إن صحيح البخاري ومسلم لم يؤخذا قضية مسلمة فأبعدَ عنها بحث النقاد وتوثيقهم لها، وإنما الذي حدث هو العكس، فقد درس الأئمة كلاً من الكتابين سنداً وامتناً، وعرضوهما على أدق المقاييس النقدية الصحيحة التي التزمها صاحبا الصحيحين في كتابيهما، فنظر الأئمة فيما اشترطه كل منهما، هل وثق به أم أخل؟

فكانت النتيجة أن استدرك جماعة من الحفاظ على البخاري ومسلم عدة أحاديث رأوا أنها أخلا فيهما بشرطهما، وأنها لا تبلغ في صحتها مبلغ ما غلب عليهما إخراجها، وتكلموا في هذه الأحاديث من جهة أسانيدها، ومن جهة متونها، ولا يصل استدراكم على هذه الأحاديث إلى حد النزول بها إلى درجة الوضع، بل ولا حتى إلى درجة الضعف الذي لا يُحتمل، وغاية ما هنالك أنهم رأوا قصورها عن درجة ما دأب عليه الشيخان، وما التزمه من إخراج أصح الصحيح.

٢. وسمي كذلك بـ "الإلزامات والتتبع"، وطبعته تحت هذا العنوان: دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق ودراسة: الشيخ مقبل بن هادي الوادعي.

٣. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (١/ ١٣٣).

١. انظر: السنة النبوية ومصطلح الحديث، د. حسين سمره، مرجع سابق، ص ٣٠٨: ٣١٩.

صحيح ليس له علة، فهو الذي أخرجت^(٢). فاستقر الأمر على قبول الكتباين، وقد تلقت الأمة هذين الكتباين بالقبول، وحصل لهما من الإجماع ما لم يحصل لغيرهما من كتب الحديث^(٣).

الخلاصة:

- بدأت مقاومة الوضع في السنة منذ عهد الخلفاء الراشدين، وقد تمثل ذلك في تشبههم وحيطتهم في السماع والتشدد فيه، كما ظهر ذلك في قول ابن سيرين: "إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم"، وفي وصايا الأئمة بذلك مثل مالك بن أنس، مما يدل على حرصهم على الأخذ عن الأنبات الثقات.

- ظهر الكشف عن معاييب رواة الحديث منذ فجر الرواية والتحديث، وقد وردت رواية عن ابن عباس تؤكد هذا، ثم تابعت جهود العلماء في القرن الثاني والثالث وما بعدهما، لتمييز صحيح الحديث من ضعيفه، وكان العلماء يتقربون إلى الله ببيان أحوال الرواة الكذابين على رسول الله ﷺ.

- لقد كان من مسالك مقاومة الوضع فحص الإسناد، والذي أدى إلى ظهور علم الجرح والتعديل، وكان ذلك في مرحلة مبكرة بعد الفتنة مباشرة، أي بعد سنة أربعين للهجرة، أي قبل نهاية القرن الأول، فإذا

٢. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (١٢ / ٥٦٨).

٣. مكانة الصحيحين والدفاع عن صحيح مسلم، د. ابن عبد الرحمن العتيبي، مرجع سابق، ص ١٣، ١٤.

® في "إجماع الأمة على صحة صحيح البخاري ومسلم" طالع: الشبهة الثانية عشرة، من الجزء السادس (دواوين السنة). وفي "الاستدراكات على صحيح البخاري ومسلم ليست أخطاء؛ بل هي إكمال للعمل على شرطها" طالع: الشبهة الثالثة عشرة، من الجزء السادس (دواوين السنة).

الخطأ والسهو، ولكن ليعلم أن بعض هذه الأحاديث التي انتقدت على الصحيحين كان مرجع النقد فيها إلى عدم التزام شروطها التي التزم بها في الرواية، وهذا لا يعني أن هذه الأحاديث ضعيفة أو مكذوبة، ولم يقل بذلك أحد من علماء الحديث الخبراء بأصول الرواية متناً وسنداً، بل قال بعض هؤلاء النقاد: إن ما أخذ على الإمامين معتمد عند الحفاظ ووارد من جهات أخرى^(١).

وإذا كان الصحيحان ليس بهما أحاديث ضعيفة فضلاً عن أن تكون فيها أحاديث موضوعة، فماذا يقصد المدعون بتطبيق قواعد الحكم على الحديث الموضوع عليها؟ إن كانوا يقصدون أن بهما أحاديث موضوعة تطبق عليها القواعد والضوابط للحكم على الحديث الموضوع، فهذا ما لا يقول به متأمل منصف أو باحث متحرر.

لقد كان نقد الكتباين ابتداءً من المشايخ المعاصرين للإمامين، وما تلا ذلك من القرون، مروراً بأبي الحسن الدارقطني، وأبي علي الغساني، وأبي مسعود الدمشقي، ومن بعدهم من أرباب وأئمة هذا الشأن.

ومثاله: عَرَضُ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري كتابه "الصحيح" على سيد الحفاظ، إمام الجرح والتعديل أبي زرعة الرازي.

قال مكّي بن عبدان: "سمعت مسلماً يقول: عرضت كتابي هذا - المسند - على أبي زرعة، فكل ما أشار عليّ في هذا الكتاب أن له علة وسبباً تركته. وكل ما قال: إنه

١. الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ص ٧٥ بتصرف.

• إذا كان ابن القيم (ت: ٧٥١هـ) هو الذي جمع قواعد الحكم على الحديث الموضوع في كتاب واحد فإن ذلك لا يدل على أن هذه القواعد لم تكن معروفة قبله؛ لأنه لم يزد على أن جمع القواعد التي كان يستخدمها العلماء وبيارسونها - والتي كانت موجودة في بطون الكتب - في كتاب واحد، ولقد سبق ببعض المحاولات في ذلك.

• صحيح البخاري ومسلم لم يكونا بمنأى عن العرض على قواعد النقد الحديثي، فلقد تناولهما العلماء بالبحث والفحص سنداً ومتناً، وطَبَّقُوا عليهما القواعد النقدية الحديثية، وفيما استدركه عليهما الدارقطني، وأبو علي الغساني والحاكم والبيهقي وأبو مسعود الدمشقي دليل على ذلك.

• لا يوجد حديث واحد موضوع في صحيح البخاري ومسلم، حتى نقول: إن قواعد الحكم على الحديث الموضوع لم تطبق عليهما، وأما إذا كان المقصود أن القواعد النقدية الصحيحة لم تطبق عليهما فهذا أيضاً غير صحيح؛ لأن العلماء لم يضعوها موضع القداسة، بل تناولوها بالفحص متناً وسنداً، فاستقر الأمر على قبول الكتابين، عدا أحرف يسيرة بيّنها العلماء، وقد تلقت الأمة هذين الكتابين بالقبول، وحصل لها من الإجماع ما لم يحصل لغيرهما من كتب الحديث.



علمنا أن علم الجرح والتعديل وهو أهم علم لمعرفة حال الرواة، قد نشأ مبكراً كما رأيت، علمنا أن هذه القواعد كانت موجودة معروفة قبل القرن الثامن الهجري خلافاً لما يتقوله المدَّعون.

• يُعَدُّ القرن الأول الهجري بداية التكوين الرسمي لقواعد المحدثين، ثم اكتملت بمرورها بعدة أدوار في القرن الثاني الهجري، ثم بدأ تدوين هذه القواعد في مؤلفات في القرن الثالث الهجري وليس في القرن الثامن، علماً بأنها كانت تستخدم وتمارس فعلياً وإن لم تكن مدونة، فقد كانت حية فعلية يتداولها العلماء وبيارسونها، ويحكمون على الرواة والأحاديث من خلالها منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم.

• إذا علمنا أن البخاري ومسلماً وأصحاب السنن قد ألفوا كتبهم في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وقد قاموا باستبعاد الأحاديث الضعيفة فضلاً عن الموضوعية، إذا علمنا ذلك تأكد أنهم كانوا على معرفة تامة بهذه القواعد والضوابط لانتقاء الرواة، والحكم على الحديث.

• كتب العلماء في الوضاعين والضعفاء والكذابين، والكتب التي تحدثت عن قواعد المحدثين، والحكم على الأحاديث، كانت كلها في القرون المتقدمة على القرن الثامن الهجري، وهذا مما يكذب ادعاء المبطلين بعدم معرفة قواعد الحكم على الحديث الموضوع قبل القرن الثامن الهجري.

• إن طرق معرفة وضع الحديث، سواء كانت عائدة إلى الراوي أو المروي، والتي كان يستخدمها العلماء للحكم على الحديث، تدل على معرفتهم بهذه القواعد وممارستها.

في كتابه، إنما أراد أن يجمع أبواب الإسلام لتقريب السنة من الأمة، وألا يجمع إلا ما كان على شرطه الذي اشترطه على نفسه في تصنيف كتابه.

دعوى أن أحاديث التفسير كلها موضوعة^(*)

مضمون الشبهة :

التفصيل :

أولاً. إن كثيراً من أحاديث التفسير قد ثبت بطرق صحيحة لا غبار عليها :

لا يخفى على كل من طالع كتب السنة أن كثيراً من أحاديث التفسير قد ثبت بطرق صحيحة لا غبار عليها، وما من كتاب في السنة إلا وقد أفرد فيه مؤلفه باباً خاصاً لما ورد في التفسير عن الرسول ﷺ أو الصحابة أو التابعين، وقد اشترط علماء التفسير على من يفسر كتاب الله ﷻ أن يعتمد فيه على ما نُقل عنه ﷺ في ذلك^(١).

يدّعي بعض المغالطين أن السنة مليئة بالأحاديث الموضوعة، خاصة أحاديث التفسير، ويستدلون على ذلك بما نُقل عن الإمام أحمد من قوله: "ثلاثة ليس لها أصل: التفسير، والملاحم، والمغازي"، وأن البخاري انتقى سبعة آلاف حديث فقط من بين ستائة ألف كانت متداولة في عصره. ويتساءلون: كيف لنا أن نعتمد على السنة وهي ملأى بالأحاديث الموضوعة؟! رامين من وراء ذلك إلى القول بأن السنة موضوعة.

وجوه إبطال الشبهة :

قال الإمام أبو جعفر الطبري في تفسيره: "إن مما أنزل الله من القرآن على نبيه ﷺ ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ، وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه أمره ونهيه وندبه وإرشاده"^(٢).

(١) إن أحاديث التفسير كغيرها من الأحاديث تم فحصها وتمييز صحيحها من سقيمها، وقد ثبت كثير منها بطرق صحيحة لا غبار عليها، مما يؤكد تواتر الأحاديث الصحيحة التي تبين القرآن، ومنها أحاديث التفسير.

وإن مهمة الرسول ﷺ تجاه القرآن قد اتضحت من

(٢) إذا صحّت مقولة الإمام أحمد فإنها لا تعني التشكيك في أحاديث التفسير كلها، بدليل ثبوت أحاديث التفسير في أمهات الكتب، وفي مسند الإمام أحمد نفسه.

خلال قوله ﷺ: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا

نَزَّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل: ٤٤)، فمهمة الرسول ﷺ هي بيان القرآن، وتعدد وسائل بيان الرسول للقرآن وتنوع، فمنها البيان العملي الذي أشارت إليه السيدة عائشة بقولها عن رسول الله ﷺ: "كان خلقه القرآن"^(٣)، ومنها

(٣) لم يُرد الإمام البخاري أن يحصر الصحيح كله

١. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ٢٢٦ بتصرف.

٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، مرجع سابق، (١ / ٧٤).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث عائشة رضي الله عنها، رقم (٢٤٦٤٥). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

(*) حجة السنة ورد الشبهات التي أثرت حولها، الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية، مرجع سابق. دفع أباطيل د. مصطفى محمود في إنكار السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، مرجع سابق. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق.

الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾ (النحل: ٤٤) فائدة
إذا صح الادعاء القائل بأن أحاديث التفسير لم يصح
منها شيء.

ومما تجدر الإشارة إليه أن المنقول في التفسير بالمأثور
ليست كلها أحاديث للنبي ﷺ، ولكن منها ما هو خبر
عن النبي ﷺ، ومنها ما هو خبر عن أهل الكتاب، ومنها
ما هو قول للصحابي علمه من رسول الله ﷺ أو فهمه
من النص، ولا شك أن فهمهم أولى؛ لمعايشتهم الوقائع
والأحداث ومعاينتهم أسباب النزول، ونزول القرآن
بلغتهم ولسانهم الذي لم يكن قد اختلطت به عجمة
بعد، ولقد كان المفسرون على وعي كامل وهم ينقلون
كل ذلك؛ فلم ينسبوا رواية من الإسرائيليات أو قول
الصحابي للنبي ﷺ بل نقلوها على حالها منسوبة
لأصحابها، ثم إن ذلك كله قد مُحِّصَ وفُحِّصَ فحَصًّا
دقيقًا سواء ما كان من السنة أو غيرها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والاختلاف في
التفسير على نوعين: منه ما مستنده النقل فقط، ومنه ما
يُعلم بغير ذلك، والمنقول إما عن المعصوم أو غيره،
ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره، ومنه ما لا
يمكن ذلك.

وهذا القسم - أي الذي لا يمكن معرفة صحيحه
من ضعيفه - عامته ما لا فائدة فيه، ولا حاجة بنا إلى
معرفة، وذلك كاختلافهم في لون كلب أهل الكهف
واسمه، وفي البعض الذي ضُربَ به القتيل من البقرة،
وفي قدر سفينة نوح وخشبها، وفي اسم الغلام الذي
قتله الخضر ونحو ذلك، فهذه الأمور طريقة العلم بها
النقل، فما كان منها منقولاً نقلًا صحيحًا عن النبي ﷺ

البيان النظري الذي يعتمد على شرح المبهم، أو تفصيل
المجمل، أو تخصيص العام، أو تقييد المطلق.

وفي هذا المعنى يقول الإمام أحمد: "الأمر بالصلاة
والزكاة والحج ونحو ذلك مجمل". ولا يُعرف تفسير ما
جاء مجملًا في مثل هذه القضايا التشريعية إلا بالرجوع
إلى سنة الرسول ﷺ، فهو وحده صاحب الشأن في
بيانها، وليس للعقول مجال لإعمال الرأي فيها؛ لأنها لا
تُدرَك إلا بواسطة الوحي.

وقد أثبت ذلك الإمام السيوطي بقوله: "وقد يقع
التبيين بالسنة، مثل: "وأقيموا الصلاة"، "وآتوا الزكاة"،
"ولله على الناس حج البيت"، وقد بينت السنة أفعال
الصلاة والحج ومقادير نُصِبَ الزكوات في أنواعها.
وهناك آثار في التفسير لا يصح تجاهلها، ولا يسوغ
لأي عالم إنكارها، وقد ذكر الشافعي أنه لا يحل تفسير
المتشابه إلا بسنة عن النبي ﷺ أو خبر عن أحد من
أصحابه، أو إجماع العلماء"^(١).

وقال الإمام أحمد بن حنبل: السنة تفسر الكتاب
وتبينه"^(٢).

وقد وضح من كلام الأئمة أنه لا بد من السنة لبيان
مجمل الكتاب وتوضيح مشكله، ولا يباري في هذا الحق
الدامغ، أو يحاول طمس الواقع الملموس إلا جاهل أو
ضال"^(٣). ولن يصبح لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ

١. التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، الإسنوي، مؤسسة
الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٠هـ، ص ٥٠٢.

٢. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، مرجع سابق، (٢/
١١٩٤).

٣. منزلة السنة من الكتاب وأثرها في الفروع الفقهية، محمد
سعيد منصور، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م،
ص ٣٥٠، ٣٥١. بتصرف.

نتيجة مفادها قوله: "وكلمة الإنصاف في هذا الموضوع أن التفسير بالمأثور نوعان:

أحدهما: ما توافرت الأدلة على صحته وقبوله، وهذا لا يليق بأحد رده، ولا يجوز إهماله وإغفاله، ولا يجمل أن نعتبره من الصوارف عن هدي القرآن، بل هو على العكس عامل قوي من أقوى العوامل على الاهتداء بالقرآن.

ثانيهما: ما لم يصح لسبب من الأسباب، وهذا يجب رده ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به، اللهم إلا لتمحيصه والتنبيه إلى ضلاله وخطئه حتى لا يغتر به أحد، ولا يزال كثير من أيقاظ المفسرين؛ كابن كثير، وابن جرير الطبري، والقرطبي، وغيرهم يتحررون الصحة فيما ينقلون ويزيفون ما هو باطل أو ضعيف ولا يجابون ولا يجنبون"^(٣).

ولذلك أوجب علماء الإسلام النظر في سلسلة الرواة، رجلاً رجلاً لا سيما أن لدينا من كتب الجرح والتعديل ما يفي بهذه الغاية، ولا يكفي الاعتماد على ذكر السند في كتاب كبير كتفسير ابن جرير، فقد يذكر ابن جرير أو غيره أشياء غير صحيحة، ويسوق أسانيدها ثم لا يبين المجروح من رجال السند ولا المعدل فيهم؛ وعذره في ذلك أن أحوال الرجال كانت معروفة لأهل ذلك الزمان، فيستطيعون أن يحكموا في ضوء هذه المعرفة بقبول الخبر أو برده.

ولقد اعتنى المحققون من المحدثين والمفسرين بنقد هذه الرويات في التفسير قديماً وحديثاً، وبينوا ما يُقبل

٣. مناهل العرفان في علوم القرآن، الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، (٢ / ٢١).

قُبِل، وما ليس كذلك بأن نُقِلَ عن أهل الكتاب ككعب ووهب وُقِفَ عن تصديقه وتكذيبه؛ لقوله ﷺ: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم..."^(١)، وكذا ما نُقِلَ عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض، وما نُقِلَ عن الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين؛ لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين. وأما القسم الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود كثيراً، والله الحمد، وإن قال الإمام أحمد: "ثلاثة لا أصل لها: التفسير والملاحم والمغازي"؛ وذلك لأن الغالب عليها المراسيل.

أما ما يُعلم بالاستدلال لا بالنقل، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثنا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان..."، ثم ذكر ابن تيمية الجهتين اللتين هما مثار الخطأ فقال:

"إحدهما: حمل ألفاظ القرآن على معان اعتقدوها، لتأييدها به.

الثانية: التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية من غير مراعاة المتكلم بالقرآن وهو الله ﷻ، والمنزل عليه، والمخاطب به"^(٢).

ويحقق الشيخ الزرقاني هذه المسألة ثم يصل إلى

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الشهادات، باب: لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها، (٥ / ٣٤٤) معلقاً.

٢. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، (١٣ / ٣٤٤): (٣٥٥) بتصرف.

منها وما لا يقبل.

الجوزي، و "ترتيب الموضوعات" للذهبي، و"الآلئ
المصنوعة في الأحاديث الموضوعة" للسيوطي.

ويمحس بنا قبل أن نتكلم عن أحاديث التفسير في
كتب الحديث أن نشير إلى عدد من كتب الحديث،
ونعرف درجة صحتها من كلام العلماء عنها، وبعد
ذلك نتحدث عن أحاديث التفسير فيها.

• فهذا الإمام مالك، وهو أقدم من ألف كتابًا
جامعًا لحديث رسول الله مقسمًا على أبواب الفقه،
وساه الموطأ.

وقد أثنى عليه العلماء قديمًا وحديثًا وتلقته الأمة
بالقبول؛ فقد قال عنه الإمام الشافعي: "ما على ظهر
الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك".

وقال مغلطاي: "أول من صنف في الصحيح
مالك".

وقال الشيخ أحمد شاكر: "والحق أن ما في الموطأ من
الأحاديث الموصولة، والمرفوعة إلى رسول الله صحاح
كلها، بل هي في الصحة كأحاديث الصحيحين".

أما المرسل والمنقطع والمعضل فيه، فقد قال ابن عبد
البر: "وجميع ما في الموطأ من قول مالك (بلغني)، ومن
قوله عن الثقة عنده مما لم يسنده أحد وستون حديثًا،
كلها مسندة من غير طريق مالك إلا أربعة لا تعرف".

وقد وصل ابن الصلاح هذه الأربعة في تأليف
مستقل.

• أما مسند الإمام أحمد فقد بلغ عدد ما جمعه
صاحبه فيه ثلاثين ألف حديث أو يزيد.

وأحاديث المسند تدور بين الصحيح والحسن
والضعيف، قال السيوطي: "كل ما في مسند الإمام أحمد
فهو مقبول، فإن الضعيف الذي فيه يقرب من الحسن".

وبذلك يتأكد لنا بطلان الادعاء القائل بأن أحاديث
التفسير كلها موضوعة، أو لم يصح منها شيء، فقد ميّز
العلماء بين صحيحها وسقيمها[®].

ثانيًا. أحاديث التفسير في كتب الحديث:

إن المطلع على تاريخ التأليف في كتب السنة النبوية
يجد أن المحدثين اهتموا بجمع الأحاديث الصحيحة
والحسنة، وتفننوا في التصنيف فيها، فوجدنا من اهتم
بجمع الصحيح البالغ أعلى درجات الصحة خاصة،
كالبخاري ومسلم، ومن حاول أن يسير على نهجهما
كابن خزيمة وابن حبان والحاكم في استدرآكاته عليهما.
ووجدنا أيضًا من جمع الصحيح والحسن، كما هو
عند أصحاب السنن، وقد نجد الضعيف وشيئًا من
الموضوع فيها، إلى غير ذلك من أنواع التأليف في السنة.
ثم إن الحديث عن كثرة الموضوع في السنة ينقضه كثرة
المؤلفات التي اعتنت بالصحيح المتعبد به لله ﷻ، ولو
كانت الموضوعات بالكثرة التي يصفونها لوجدنا
مؤلفات ظهرت في التاريخ نفسه الذي ظهرت فيه
دواوين السنة الصحيحة، تحاول جمع هذه الموضوعات،
والواقع أن هذه التأليف تأخر ظهورها إلى أوائل القرن
الخامس الهجري بظهور كتاب "موضوعات النقاش"
(ت: ٤١٤ هـ)، وبعد ذلك تواترت الكتب التي
تتحدث عن الموضوعات مثل: "الموضوعات" لابن

® في "بيان السنة للقرآن وتأكيدها له وأدلة أمر الله للنبي
بذلك" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الأولى، والوجه الأول،
من الشبهة الرابعة، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها)،
والشبهة الثالثة، من الجزء الثامن (الإلهيات)، والوجه الأول، من
الشبهة التاسعة والثلاثين، من الجزء الحادي عشر (العبادات).

لا نعرف كيفية إقامة الصلاة من خلال قوله ﷺ:
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ (البقرة: ٤٣)، وإنما نعرف ذلك بعد
قراءة أحاديث رسول الله في الصلاة.

ومسند الإمام أحمد نفسه مليء بالأحاديث التي
تفسر آيات من القرآن الكريم، ومن ذلك ما رواه عن
عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: "لما نزلت:
﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر)، قال
رسول الله ﷺ: نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي، بأنه مقبوض في تلك
السنة" (٢).

ومن يتصفح صحيح البخاري يجد كتاباً كاملاً
بعنوان "التفسير"، ويجد العديد من الأبواب التي
تتصدرها آيات قرآنية وتحتها حديث أو أكثر في شرحها
هذه الآيات.

وكذلك نجد في صحيح مسلم كتاباً اسمه التفسير،
ونجد كثيراً من الأحاديث مرتبطة بالآيات القرآنية.

وكذلك الأمر في كتب السنة الأخرى؛ إذ نجدها
ملأى بالأحاديث المتعلقة بالقرآن شرحاً، أو تقييداً، أو
تخصيصاً، أو إضافة، أو غير ذلك.

وبذلك يتأكد بطلان الزعم القائل بعدم صحة
أحاديث التفسير.

أما الاحتجاج بعبارة الإمام أحمد: "ثلاثة ليس لها
أصل: التفسير، والملاحم، والمغازي" على عدم صحة
كل أحاديث التفسير فهو خطأ شنيع؛ فالراجع أن هذه
العبارة موضوعة عليه؛ لأن الإمام أحمد قد ذكر في
مسنده أحاديث كثيرة في التفسير، فكيف يُعقل أن يخرج

• أما صحيح البخاري فقد قال عنه ابن حجر:
"عدد أحاديث البخاري بالمكرر سوى المعلقات
والمتابعات سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون
حديثاً".

وقال النسائي: "ما في هذه الكتب كلها كتاب أجود
من كتاب محمد بن إسماعيل البخاري". وقال
السيوطي: "البخاري أصح الكتب بعد كتاب الله،
وعليه الجمهور".

• وهذا صحيح مسلم قال عنه ابن الصلاح:
"وجملة ما في صحيح مسلم بإسقاط المكرر نحو أربعة
آلاف".

وذهب أبو علي النيسابوري وبعض المغاربة إلى
تفضيل صحيح مسلم على صحيح البخاري - وإن كان
هذا مرجوح - وقال: "ما تحت أديم السماء أصح من
كتاب مسلم بن الحجاج في علم الحديث".

يتضح مما سبق إذن أن هذه الكتب المذكورة وغيرها
مثل: صحيح الترمذي، وسنن النسائي، وسنن أبي داود
وسنن ابن ماجه - هذه الكتب قد تلقته الأمة بالقبول،
وإن كان فيها شيء ضعيف أو غير صحيح فهو يسير،
وقد بينه العلماء (١).

وإذا جئنا إلى أحاديث التفسير في هذه الكتب نجدها
متعددة ومتنوعة، فموطأ الإمام مالك مقسم على أبواب
الفقه من عبادات ومعاملات وحدود... إلخ، ومالك
يذكر في كل باب الأحاديث والأقوال التي وردت فيه،
وهذه الأحاديث ما هي إلا بيان لمجمل القرآن، فنحن

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم، مسند عبد
الله بن عباس، (٣/ ٢٦٥)، رقم (١٨٧٣). وصححه أحمد شاكر
في تعليقه على المسند.

١. انظر: في السنة النبوية ومصطلح الحديث، د. حسين سمرة،
مرجع سابق، ص ٢٨٤: ٣٤٨. الحديث والمحدثون، د. محمد
محمد أبو زهو، مرجع سابق، ص ٣٦٩: ٤١٨.

هذه الأحاديث في مسنده، ثم يحكم بأنه لم يصح منها شيء، كما أن مقتضى العبارة يحكم على أخبار العرب ومغازي المسلمين بالكذب، وهذا ما لم يقله أحد.

وإذا سلمنا بصحة نسبة العبارة إلى الإمام أحمد، فإنها لا تُفيد أن كل أحاديث التفسير موضوعة؛ لأنه لم يقل: لم يصح في التفسير شيء، ولكن قال: "ثلاثة لا أصل لها"، والظاهر نفي كتب خاصة بهذه العلوم الثلاثة، بدليل ما جاء في الرواية الثانية مصرحاً: "ثلاثة كتب".

وهذا المعنى هو ما فهمه الخطيب البغدادي إذ يقول: إن هذا محمول على كتب مخصوصة في هذه المعاني الثلاثة، فأشهرها كتابان: للكلبي ومقاتل بن سليمان، وقد قال الإمام أحمد في تفسير الكلبي: من أوله إلى آخره كذب لا يحل النظر فيه^(١).

كما أن نفي الصحة لا يستلزم الوضع أو الضعف، وقد عُرف من الإمام أحمد خاصّة نفي الصحة عن أحاديث مقبولة، وقال العلماء في ذلك: إن هذا اصطلاح خاص به.

قال اللكنوي: "كثيراً ما يقولون: لا يصح، ولا يثبت، ويظن من لا علم له أنه موضوع، وهو مبني على جهله بمصطلحاتهم وعدم وقوفه على مصراتهم؛ فقد قال علي القاري في تذكرة الموضوعات: لا يلزم من عدم الثبوت وجود الوضع"^(٢)، وقال ابن حجر: "لا يلزم من نفي الثبوت ثبوت الضعف؛ لاحتقال أن يراد

١. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، (٢/ ٢٣٢).

٢. الرفع والتكميل، أبو الحسنات اللكنوي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط ٣، ١٤٠٧هـ، ص ١٩١.

بالثبوت الصحة فلا ينتفي الحسن"^(٣).

ويحتمل أن يكون المراد من عبارة الإمام أحمد أن ما صح في التفسير قليل، بالنسبة لما لم يصح، وقد حملها على هذا المعنى كثير من أهل العلم^(٤).

مما سبق يتبين عدم صحة الادعاء القائل بكثرة الأحاديث الموضوعة في التفسير، ونحن لا ننكر وجود بعض الأحاديث الضعيفة، بل الموضوعية، في هذا الباب ولكنها ضئيلة جداً إذا ما قورنت بالأحاديث الصحيحة والمقبولة.

ومما يدحض هذه الشبهة أن مسند الإمام أحمد مليء بالأحاديث التي ترتبط بتفسير القرآن، فكيف يقال بعد ذلك: إن أحاديث التفسير لم يصح منها شيء؟!^(٥)

ثالثاً. لم يُرد الإمام البخاري أن يحصر الصحيح في كتابه، إنما أراد أن يجمع أبواب الإسلام:

روي عن الإمام البخاري أنه قال: "ما أدخلت في كتاب الجامع إلا ما صح، وتركت من الصحاح لحال الطول"^(٥). إن البخاري لم يُرد أن يجمع الصحيح كله في كتابه، وإنما أراد أن يجمع أبواب الإسلام، ويضع تحت كل باب من الأحاديث ما يكفيه، على أن تكون هذه الأحاديث صحيحة، فغطى أبواب الإسلام من عقيدة، وشرعية، وآداب، وفضائل، وتفسير، وأشراف

٣. نتائج الأفكار في تحريج الأذكار، ابن حجر العسقلاني، نقلاً عن: المرجع السابق، ص ١٩٥.

٤. حجية السنة ورد الشبهات التي أثيرت حولها، الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية، مرجع سابق، ص ١٥٣، ١٥٤ بتصرف.

٥. في "آراء علماء الحديث في الصحيحين" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء الثالث (أبو هريرة).

٥. علوم الحديث، ابن الصلاح، مرجع سابق، ص ١٥، ١٦.

حديث صحيح، وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح" (٤)، وقال أيضًا: "لم أُخَرِّج في هذا الكتاب إلا صحيحًا، وما تركت من الصحيح أكثر" (٥).

وعليه فإن القول بأن البخاري دوّن أربعة آلاف حديث، من ستمائة ألف خوفًا من الوضع والتقول، قول في غاية البطلان[®].

الخلاصة:

- أحاديث التفسير هي المبيّنة للقرآن الكريم، وهي محفوظة بحفظ الله ﷻ للقرآن؛ لأن الله تعهد بحفظ القرآن في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر)، وحفظ المبيّن يقتضي حفظ المبيّن، وهذا يدحض الزعم القائل بعدم صحة أحاديث التفسير كلها؛ لأنه إذا صح هذا الزعم فلن يصبح لقوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤) معنى ولا فائدة.

- كتب السنة مليئة بالأحاديث الصحيحة التي تفسّر القرآن أو آيات منه، ومن ذلك صحيحا البخاري ومسلم، وهما أصح كتب السنة، فقد عقد كل منهما كتابًا في جامعته بعنوان "التفسير"، وتحت الأحاديث التي

٤. المرجع السابق، ص ٥١٢.

٥. السابق، ص ٩.

® في "هدف البخاري من جمع صحيحه الانتقاء لا الحصر" طالع: الشبهة الرابعة، من الجزء السادس (دواوين السنة). وفي "الاستدراكات على صحيح البخاري ومسلم ليست أخطاء؛ بل هي إكمال للعمل على شرطها" طالع: الشبهة الثالثة عشرة، من الجزء السادس (دواوين السنة). وفي "البخاري ومسلم لم يستوعبا الصحيح ولم يلتزما حصره" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء الثالث (أبو هريرة).

الساعة، غطى كل ذلك بأحاديث صحيحه، وكان حريصًا على ألا يطول الكتاب، فإنه لم يكن يضعه لجمع الأحاديث الصحيحة، وإنما وضعه لتقريب السنة من الأمة^(١).

قال الإمام النووي في مقدمة شرحه لصحيح مسلم: "ألزم الإمام أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني رحمه الله وغيره البخاري ومسلمًا إخراج أحاديث تركا إخراجها مع أن أسانيدنا أسانيد قد أخرجنا لرواتها في صحيحهما بها... وصنف الدارقطني وأبو ذر الهروي في هذا النوع الذي ألزموهما، وهذا الإلزام ليس بلازم في الحقيقة، فإنها لم يلتزما استيعاب الصحيح، بل صحّ عنهما تصريحهما بأنهما لم يستوعبا، وإنما قصدا جمع جمل من الصحيحين كما يقصد المصنف في الفقه جمع جملة من مسائله، لا أنه يحصر جميع مسائله"^(٢).

فالواضح أن الإمامين البخاري ومسلمًا تركا إخراج أحاديث كثيرة في صحيحهما إيثارًا لترك الإطالة أو رأيا أن غيرها مما ذكره يسد مسدّها.

ويؤيد هذا ما ذكره إبراهيم بن معقل النسفي عن البخاري إذ قال: سمعت البخاري يقول: "ما أدخلت في كتابي الجامع إلا ما صحّ، وتركت من الصحيح حتى لا يطول"^(٣).

فالبخاري لم يلتزم أن يُخَرِّج كل ما صح من الحديث، ويشهد لصحة ذلك قوله: "أحفظ مائة ألف

١. دفع أباطيل د. مصطفى محمود في إنكار السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، مرجع سابق، ص ٥٢.

٢. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (١/ ١٣٠).

٣. هدي الساري مقدمة فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، ص ٩.

تتعلق بتفسير القرآن وبيانه، وكذلك نجد كتب السنة الأخرى مليئة بالأحاديث التي تفسر آيات من القرآن.

• أما مقولة الإمام أحمد: "ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي"، فالراجح أنها موضوعه عليه؛ وذلك لكثرة الأحاديث المفسرة للقرآن في مسنده، وإذا صحَّ أنه قالها فهو لا يقصد بها أن كل أحاديث التفسير لا تصح؛ إذ كيف يُعقل أن يعتمد عليها في كتابه إذا كان يعتقد عدم صحتها؟!

• لقد حرص الإمام البخاري على ألا يطول جامعه، فإنه لم يضعه لخصر الأحاديث الصحيحة، وإنما وضعه لتقريب السنة من الأمة، ولقد كان البخاري يحفظ مائة ألف حديث صحيح، ولكنه لم يدونها جميعاً في كتابه، وقد صرح بذلك كثيراً.



الشبهة الثالثة والعشرون

الزعم أن السنة مليئة بالأخطاء التاريخية (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن السنة النبوية مليئة بالأخطاء التاريخية، لما فيها من أغلاط واضطرابات في الأحداث التاريخية التي أخبرت بها، بسبب الوضع الذي تسرب إليها، فأصبحت سجلاً مضطرباً من الأغلاط التاريخية الفادحة، ومن هنا يرون أن السنة لا تُبنى عليها الحقائق التاريخية، ولا يعول عليها في دراسة

(*) الرد على شبهات المستشرقين ومن شايعهم من المعاصرين حول السنة، د. أحمد محمد بوقرين.

التاريخ.

وجهاً إبطال الشبهة:

(١) إن المعارف التاريخية والأحداث التي أخبر بها النبي ﷺ، لم يكن الرسول ﷺ ليعلمها ويخبر بها من تلقاء نفسه، وهو الأمي الذي لم يقرأ كتاباً في التاريخ أو العلم، وإنما هي وحي من الله إليه، تثبت الأحداث التاريخية كل يوم صدقها وصحتها، ومن أصدق من الله حديثاً.

(٢) لقد جاءت السنة النبوية لتبين للناس ما نُزل إليهم من القرآن الكريم، وقد حوت بين طياتها أحداثاً تاريخية صادقة، مما يجعلها أحد مصادر التاريخ الصادقة، وليس هناك دليل على وجود أي من هذه الأغلاط التاريخية المزعومة في الأحاديث الصحيحة، وأما الأحاديث غير الصحيحة فلا يُعتد بها، وقد تناولها العلماء بالفحص والتمحيص.

التفصيل:

أولاً. ما ورد في السنة من علوم ومعارف وأخبار وحي من الله ﷻ:

اشتمل القرآن على سير كثير من الأنبياء والمرسلين وأخبار كثير من الأمم السابقة، والنبي ﷺ هو المبلغ عن ربه ﷻ، وهو المبين لما جاء في كتاب الله، بوحي من الله، فيعلم النبي ﷺ الصحابة علوماً ومعارف غير ما ورد في القرآن، أو يبين ما جاء في القرآن من قصص وأخبار، وهذا هو الشطر الثاني من رسالته ﷻ، قال تعالى:

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (البقرة).

صورة ما من صورهِ، أما التبيين فهو من رسول الله ﷺ للناس، ومصدره رسول الله ﷺ المتلقي عن الله، ومستقبله المخاطبون بهذا القرآن، وطريقة عرضه عليهم اللغة والكلام^(٢).

إن السنة وكل ما أخبر به النبي ﷺ وحي من الله له: ﴿وَمَا يَطِئُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ (النجم)؛ ولذا قال ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق"^(٣)، وقال الله ﷻ: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُمْسِكُ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (الأحزاب: ٣٤).

وقد نقل القرطبي رحمه الله عن أهل العلم بالتأويل تفسير الحكمة ها هنا بالسنة، فإذا كانت الحكمة معناها السنة، والله ﷻ قرن بين الكتاب والسنة في الإنزال، فهذا يقتضي كونها من عند الله تعالى.

وقد جاء في السنة أن السنة وحي، فقد قال النبي ﷺ: "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه..."^(٤).

قال ابن حزم رحمه الله: "فصح أن كلام رسول الله ﷺ كله في الدين وحي من عند الله ﷻ لا شك في ذلك، ولا خلاف بين أحد من أهل العلم في أن كل

وهذه العلوم والمعارف التاريخية وأخبار القدماء وأحداث القصص التاريخي القرآني - لم يكن ليعلمها النبي ﷺ من تلقاء نفسه، ولم يتعلمها في أماكن التعليم، أو في أديرة الأبحار والرهبان، وإنما علمه الله ﷻ إياها، وفي ذلك يقول تعالى في مناسبات تتصل بها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤١) (هود). ويقول عز من قائل عن قصة ابنة عمران: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْ نَكُنْ مِنْ قَبْلِهِمْ مَكْرُمًا وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٤) (آل عمران)، وعن أخبار الرسل الكرام وقصصهم يقول الله ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (هود: ١٢٠).

فالرسول ﷺ كان يوضح لصحابته ما يغيب عن أذهانهم من أمور، ويذكر لهم مدلولاتها وما حوته من إشارات تاريخية، وذكر لسير الأنبياء والمرسلين، وأخبار عن أحداث الماضين من الشعوب البائدة والأمم الفانية المنقرضة.

وكل هذا بوحي من الله له، ومن أصدق من الله حديثاً، ومن أصدق من الله قبيلاً^(١).

لقد جاء لفظ التبيين في جانب رسول الله ﷺ بقوله ﷻ: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤)، وهو قصد مقصود وراءه دلالات يبحث عنها، وهي: أن بيان الله للقرآن إنما هو لنبيه ﷺ، ومصدره هو الله ﷻ، ومستقبله رسول الله ﷺ، وطريقه الوحي في

٢. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشريبي، مطابع دار الصحافة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٣م، ص ٣٥٣.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، (١٠ / ١٥، ١٦)، رقم (٦٥١٠). وصححه أحمد شاكراً في تعليقه على المسند.

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث المقدم بن معد يكرب الكندي، رقم (١٧٢١٣). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

١. الحديث النبوي والتأريخ، د. أحمد جمال العمري، دار المعارف، القاهرة، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ص ١٠ بتصرف.

وحي نزل من عند الله فهو ذكر منزَّل^(١).

وقال أبو البقاء الحسيني: "والحاصل أن القرآن والحديث يتحدان في كونها وحيًا من عند الله"^(٢).

إذا كان الأمر كذلك، وإذا كان كل ما يتحدَّث به النبي ﷺ وحيًا من عند الله، فكلامه ﷺ الصدق، وحديثه الحق، ومن أصدق من الله حديثًا ومن أصدق من الله قِيلًا؟

وليس في القرآن الكريم - بفضل الله - مقولة واحدة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث، كما يقول المستشرق موريس بوكاي، وكذلك السنة وحي من الله تعالى ليس بها خطأ أو غلط، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وأني لهذا النبي الأُمِّي أن يأتي بشيء من هذه الأخبار من تلقاء نفسه؟ وقد كان بعض أهل الكتاب يسأل النبي ﷺ عن شيء أو حدث أو شخصية؛ كأهل الكهف، وخبر موسى والخضر، وذي القرنين، ويأجوج ومأجوج... إلخ، فينتظر النبي ﷺ الوحي حتي يأتيه فيجيبهم، وما كان أحد من أهل الكتاب يكذب النبي ﷺ؛ لأن كل ما جاء به صحيح صادق، لأنه بوحي من الله تبارك وتعالى، ومن أصدق من الله قِيلًا[®]؟

ثانيًا. السنة النبوية سجلٌ صادق، له أهميته في دراسة التاريخ:

إن القرآن الكريم في الأصل كتاب هداية، لكنه يعدُّ أيضًا مصدرًا صادقًا من مصادر التاريخ لما حواه من إشارات تاريخية، وذكره لأحداث جسام في الأزمنة الغابرة؛ وكذلك الحديث النبوي الذي جاء في الأصل لتبيين القرآن الكريم يعدُّ أيضًا من مصادر التاريخ، فهو مصدر توضيحي تحليلي صادق لكل هذه الأحداث التاريخية القديمة التي حدثت في تاريخ الأقسام السابقين وحياتهم، ومرجع تفسيري لقصاص الأنبياء، وغيرها من القصص الواردة في القرآن الكريم.

ومن هنا تأتي أهمية دراسته بوصفه مصدرًا تاريخيًا مهمًا، يوضح ما جاء في القرآن مجملًا، ويفسر ما ورد عامًا، ويحلل الدقائق التاريخية، ويلقي عليها الضوء لتظهر في جلاء ووضوح^(٣).

إن كل ما جاء عن النبي ﷺ من أخبار وأحداث تاريخية، وأخبار الأمم السابقة، وحياة الأنبياء والمرسلين، بدءًا من حديث بدء الخلق وخلق آدم، وانتهاء بما سيكون في أمته - كل هذا صحيح صادق غير مكذوب، هذا إن كان في الأحاديث الصحيحة المعتمد عليها في دراسة التاريخ، ولقد تنبأ النبي ﷺ بأشياء سوف تحدث، من مثل استيلاء المسلمين على ملك كسرى وفتح القسطنطينية، وقد حدث كل هذا بالفعل، وغير ذلك مما تحقق وقد تنبأ به الرسول ﷺ، وما هو آت لا محالة مما أخبر به الصادق ﷺ، وليس هناك

١. الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ، (١/ ١١٧).

٢. مصادر التشريع ومنهج الاستدلال والتلقي، حمدي عبد الله الصعدي، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، ط ١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ١٣١، ١٣٢.

® في "السنة وحي من عند الله" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السابعة والعشرين، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها).

٣. الحديث النبوي والتأريخ، د. أحمد جمال العمري، مرجع سابق، ص ١١.

دليل واحد لحدث رواه النبي ﷺ أو أخبر به وكان خطأً.

ولو كان فيما يخبر به النبي ﷺ من خطأ أو غلط تاريخي، أو وهم في رواية الأحداث لشنع به أهل الكتاب فيما يحكيه ويرويّه عن ربه، ولو وجد العرب - الذين كانوا يودون لو ظفروا بما يتوصلون به إلى تكذيب النبي ﷺ وإقصاء الناس عنه - لو وجدوا ذلك لما سكتوا عن النبي ﷺ، بل لأذاعوا ذلك ونشروه، وشهروا به ﷺ.

وما دمنّا نتحدث عن الحديث النبوي وعلاقته بالتاريخ، فإننا ينبغي علينا أن ننظر سريعاً في عناصر التاريخ الأساسية وهي: الزمان، والمكان، والأحداث، وعالم الغيب وارتباطه بعالم الواقع، والأشخاص والأبطال.

• وأما العنصر الأول من هذه العناصر وهو الزمان، فقد جاء في الحديث النبوي أنواع من الزمان يمكن إجمالها فيما يأتي:

١. الزمن الكوكبي.

٢. ما قبل الزمن الكوكبي.

٣. ما بعد الزمن الكوكبي.

٤. الزمن النفسي.

والزمن الكوكبي: هو الزمان الذي نقيم عليه حساباتنا وأقسامها ومضاعفاتها، وقد ورد في أحاديث الرسول ﷺ ذكر ما يتصل بهذا الزمن وأجزائه، مثل حديث "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض"^(١)، وحديث "خير يوم طلعت

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في سبع أرضين... (٦ / ٣٣٨)، رقم (٣١٩٧).

عليه الشمس يوم الجمعة..."^(٢).

وبهذا الزمن تتحدد أعمار الأفراد ومراحل السنين، فعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً يُؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وشقي أو سعيد"^(٣)، وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي لا يتسع المقام لذكرها.

وبهذا الزمن تتحدد العبادات اليومية؛ كالصلوات الخمس، والعبادات السنوية؛ كالصيام والحج، والعبادات ذات الطابع الاقتصادي كالزكاة.

أما ما قبل الزمن الكوكبي: وهي تلك المدة الزمنية التي خلقت فيها السماوات والأرض، فقد جاء في الأحاديث ذكره، وقد جاء بعضها إجابة على أسئلة اليهود لرسول الله ﷺ.

أما ما بعد الزمن الكوكبي: فهو المدة التي جاءت بعد خلق الكون إلى أن يأذن الله بانتهاء كل العوالم الدنيوية، وقد جاءت أشراف الساعة والحديث عن قيام الساعة والحشر والموقف الصعب في عرصات القيامة، جاء كل ذلك في الحديث النبوي، وقد تحققت كثير من أشراف الساعة، وسيكون ما أخبر به النبي الصادق الأمين ولتعلمن نبأه بعد حين.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجمعة، باب: فضل يوم الجمعة، (٤ / ١٤٤٠)، رقم (١٩٤٣، ١٩٤٤).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، (٦ / ٣٥٠)، رقم (٣٢٠٨). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: القدر، باب: كيفية خلق آدمي في بطن أمه، (٩ / ٣٧٥٩)، رقم (٦٥٩٩).

أما الزمن الرابع فهو الزمن النفسي: وهو الذي يبدو فيه إحساس الإنسان بطول الزمن أو قصره.

إن الزمان في الحديث النبوي مقاييس معلومة ومقاييس مجهولة، سابقة ولاحقة وإحساس به قصرًا وامتدادًا، يطغى على القياس المعلوم^(١).

• أما العنصر الثاني من العناصر الأساسية فهو المكان، والقرآن الكريم مصدر تاريخي مهم، بل أقدم المصادر العربية المدونة لتاريخ العرب في عصر الجاهلية وعصر النبوة، وأصدقها على الإطلاق؛ لأنه تنزّل من رب العالمين، لا سبيل إلى الطعن أو الشك في صحة نصه.

ففيه ذكر لبعض مظاهر حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، وفيه ذكر لبعض أخبار الأمم البائدة (عاد وثمود)، وفيه أخبار عن أصحاب الفيل (أبرهة الحبشي وجيشه)، وسيل العرم، وهو السيل الذي أصاب سد مأرب، وأصحاب الأخدود (أهل نجران الذين أحرقهم ذو نواس الحميري في أخايد).

ولقد أثبتت الدراسات التاريخية والكشوف الأثرية الحديثة في الأماكن المختلفة صحة ما ورد في القرآن الكريم من أخبار العرب البائدة ودقتها.

فلقد ورد في القرآن الكريم أن قبائل عاد وثمود قد بادت بصاعقة دمرت كل شيء، وأن الله أرسل عليهم في أماكنهم ريحًا صرصرًا عاتية أتت على كل شيء.

وفي عصر النبوة تتجلى الأهمية التاريخية للقرآن الكريم؛ إذ إن النبي ﷺ تولى توضيح ما جاء في القرآن

الكريم من ذكر أماكن وتحديد مساكين، وتفسير لكل ما جاء في القرآن الكريم من أمور تتصل بالجوانب التاريخية، هذا بالإضافة إلى توضيح تطور الدعوة الإسلامية، وما اتصل بها من غزوات وفتوحات واتصال بالأمصار المختلفة.

وما ذلك إلا لأن الحديث النبوي الشريف كان مواكبًا للقرآن، مسيرًا لأحداثه، موضحًا لمعانيه، مفصّلًا لمجمله، مبيّنًا لغامضه.

والباحث المدقق في الحديث النبوي يجد تحديدًا دقيقًا لكثير من الأماكن، وتفسيرًا جيدًا لأماكن الأحداث الطارئة على تاريخ الدعوة الإسلامية، كما يجد ذكرًا وتحليلًا للعديد من الأمور التاريخية التي وردت في القرآن، أو التي لم ترد في القرآن، وإنما كان الرسول ﷺ يذكرها للعلم والتوضيح، تمامًا كما كان يذكر الكثير من الأحكام والقوانين الخاصة بالمجتمع الإسلامي المتطور.

من هنا يمكن القول بأن الحديث النبوي يُعدُّ مصدرًا مهمًّا، بل من أصدق المصادر التاريخية.

وعلى الحديث النبوي الشريف اعتمد المؤرخون على اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم في إيراد شروح تفصيلية لما ورد في القرآن الكريم، من أخبار مختصرة عن بعض الأحداث وأماكنها في الجاهلية وعصر النبوة.

وقد ورد في الحديث ذكر لأماكن عدة ترتبط بأحداث التاريخ الإسلامي، وسير الدعوة، وتعاقب الأحداث^(٢).

• والعنصر الثالث هو عنصر الأحداث،

١. انظر: الحديث النبوي والتأريخ، د. أحمد جمال العمري، مرجع سابق، ص ٥٥: ٩٧ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص ١٠٩: ١١٢ بتصرف.

ويوضحها ويتحدث من خلالها عن خصائص هذا العالم اللامحسوس ومضامينه، مثل الإله (الله ﷻ)، والملائكة، والجن والشياطين، وكتب الله، وأنبياء الله ورسله (٢).

• أما العنصر الخامس والأخير فهو الأشخاص والأبطال، وقد احتفل الحديث النبوي بالحديث عن الأشخاص الذين كانت لهم علاقة برسول الله ﷺ في حياته وتحديث عنهم وسجل أخبارهم في حديثه الشريف (٣).

إن السنة بحر واسع عميق، مليء بالآلئ والكنوز والثروات الثمينة التي لا يجدها إلا من يحسن الغوص في الأعماق، ولا يقف عند الشواطئ أو السطوح.

ففيها من جوامع الكلم وجواهر الحكيم ولطائف المعارف وروائع التوجيه ونوابغ الثقيف ما لا تجد معشاره في كتب وتراث كبار الفلاسفة (٤).

وفي السنة كثير من الحقائق التاريخية والأحداث والوقائع الحقيقية، ومن ادعى غير ذلك فليأت بحديث واحد فيه خطأ أو غلط تاريخي، شريطة أن يكون حديثاً صحيحاً، ليس ضعيفاً ولا موضوعاً؛ لأن العلماء قد وضّحوا الضعيف والموضوع في ضوء المنهج النقدي الذي لم يُعرف له مثال في التاريخ، ألا وهو منهج الإسناد، حتى قال مرجليوث: "ليفتخر المسلمون ما شاءوا بعلم حديثهم".

فإن كان هؤلاء المغرضون يقصدون بادعائهم وجود

والأحداث التي سجلها الحديث النبوي كثيرة، منها أحداث حدثت قبل البعثة النبوية، كالأحداث التي حدثت لأنبياء الله ورسله السابقين والإرهاصات الأولى لبعثته، ومنها ما حدث في عهده من جهاده وغزواته ومعجزاته، ومنها ما تنبأ به ﷺ كأحداث الفتوحات والفتن والصراعات، وأحداث رجوع المسيح، وأحداث فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج وغير ذلك.

والرسول ﷺ المصطفى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى، كان من إرادة الحق ﷻ أن يطلع على أمور مستقبلية، جعل أخبارها وذكر أحداثها على لسانه ﷺ تأييداً لصدق نبوته، ودليلاً على صحة رسالته.

أما الأحداث التي تنبأ بها وحدثت في حياته، فمثل تنبئه بمصرع كسرى، وأسر الشيا بن بنت بقليلة الأزديّة، وإسلام عمير بن وهب وغيرها.

وأما الأحداث التي تنبأ بها وحدثت بعد وفاته، فمنها أحداث تتصل بالفتوحات، كما تتصل بالفتن والاضطرابات، وما ينشأ عنها من صراعات، وأحداث تتصل بما يحدث في الكون، كما ذكر أموراً مستقبلية من مثل مبعث المسيح ابن مريم ﷺ وظهور الدجال (١).

• وأما العنصر الرابع من عناصر التاريخ فهو عالم الغيب وارتباطه بعالم الشهادة، وقد احتفل الحديث النبوي الشريف بذكر هذا العالم الغيبي، وتناول كل عناصره وجزئياته تناولاً دقيقاً، ينم عن سعة علم واتساع أفق ومعرفة إلهامية من الله لنبية ﷺ لكي يذكرها

٢. السابق، ص ٢٧٣.

٣. السابق، ص ٤٠٩.

٤. السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة، د. يوسف القرضاوي، دار

الشروق، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، ص ٣٠١.

١. السابق، ص ١٩٧.

يقول الأستاذ محمد أسد: "فوجود الأحاديث الموضوعية إذن لا يمكن أن يكون دليلاً على ضعف نظام الحديث في مجموعه؛ لأن تلك الأحاديث الموضوعية لم تخف قط على المحدثين، كما يزعم بعض النقاد الأوربيين عن سذاجة"^(٢).

ولقد كان حرياً بهؤلاء أن يتحاشوا ادعاءاتهم الكاذبة، ويظهروا - لو كانوا منصفين للبحث العلمي حقاً - كيف أبان القرآن والسنة وجه الحق فيها دخل على بعض القصص الديني والتاريخي من زيف أو تحريف، سواء في كتب العهدين القديم والجديد أو في كتب التاريخ القديمة. ويوضحوا ما تضمنه القرآن والسنة من إشارات لا تخلو من أصول علم التاريخ وبذور فلسفته، وغير ذلك مما جاء فيه على أكمل نظام وأتقن ترتيب"^(٣).

يقول د. شوقي ضيف: "فالحديث هو الذي فتح باب الكتابة التاريخية، وهياً لظهور كتب الطبقات في كل فن، وهذا غير ما نشأ عنه من علوم الحديث وغير مشاركته في علوم التفسير والفقه، مما بعث على نهضة علمية رائعة"^(٤).

ويكفينا في التدليل على أهمية دراسة الحديث وأثره في علم التاريخ أن قواعد مصطلح الحديث باتت هي أصح طريقة علمية لتصحيح الأخبار والروايات، يقول

٢. السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، (١/ ٤٢٢، ٤٢٣).

٣. أباطيل الخصوم حول القصص القرآني: عرض ومناقشة، د. عبد الجواد محمد المحمص، الدار المصرية، الإسكندرية، د. ت،

ص ٩٧، ٩٨ بتصرف.

٤. السنة في كتابات أعداء الإسلام، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، (١/ ٥٧).

أخطاء تاريخية بالحديث النبوي في أحاديث بعينها فليأتونا بها، وسوف نبين لهم وهمهم في فهمها إن كانت صحيحة؛ لأنه لا يرد عن النبي ﷺ حديث صحيح يخالف الواقع أو الحقائق التاريخية.

ونضرب مثلاً لذلك ما ورد في صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة قال: "لما قدمت نجران سألتوني، فقالوا: إنكم تقرأون: ﴿يَتَأَخْتَهُرُونَ﴾ (مريم: ٢٨)، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك؛ فقال: إنهم كانوا يستمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم"^(١).

والحقيقة أن ما ابتكره المحدثون من علم مصطلح الحديث، الذي تفردت به الأمة الإسلامية عن سائر الأمم، وتميزت بتأسيسه وإنشائه وتقعيده والتفنن فيه يُعدُّ من أكبر النتائج النافعة التي تولدت عن تلك الحملة الضارية على السنة النبوية المطهرة والله دُرُّ القائل:

قصدت مساتي فاجتلبت مسرتي

وقد يحسن الإنسان من حيث لا يدري

كما كان هذا العلم صخرة صلبة تكسرت عليها كل

المؤامرات التي حيكت في الظلام على أحاديثه ﷺ

وخرجت السنة النبوية من المعركة الطويلة سليمة

منتصرة، ولا يمكن أن تكون حركة الوضّاعين، وما

وضعوا من أحاديث دليلاً على ضعف السنة

بمجموعها، وبالتالي عدم حجيتها؛ لأن ما وضعوه لم

يخف على المحدثين.

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الآداب، باب: النهي

عن التكني بأبي القاسم، وبيان ما يستحب من الأسماء، (٨/

٣٢٥٨)، رقم (٥٤٩٤).

تكذبوهم"^(٢) قال: "أي: إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً لثلاثاً يكون في نفس الأمر صدقاً فتكذبوه أو كذباً فتصدقوه؛ فتقعوا في الحرج، ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعاً بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعاً بوفاقه"^(٣).

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يستندون في ذكر الحقائق التاريخية وتصويبها على ما جاء في كتاب الله وما نص عليه رسول الله ﷺ، فقد روي عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نَوْفًا البكائي يزعم أن موسى ليس بموسى بني إسرائيل إنما هو موسى آخر، فقال: كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب عن النبي ﷺ: "قام موسى النبي خطيباً في بني إسرائيل، فُسئِلَ أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك..."^(٤)، فقد استدل ابن عباس رضي الله عنهما على صدق الخبر وحقيقته بحديث رسول الله ﷺ، وكذب بذلك نَوْفًا، وتلك حقيقة تاريخية دل عليها الحديث.

بل أكثر من ذلك، فقد كانوا يلجئون إلى الأحاديث

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، (٨ / ٢٠)، رقم (٤٤٨٥).

٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٨ / ٢٠).

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: ما يستحب للعالم إذا سُئِلَ: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله، (١ / ٢٦٣)، رقم (١٢٢). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام، (٨ / ٣٥٥)، رقم (٦٠٤٧).

د. أسد رستم أستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية: فإنهم اضطروا اضطراً إلى الاعتناء بأقوال النبي ﷺ وأفعاله لفهم القرآن، فقالوا في قوله ﷺ: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم) ما تُلي منه فهو القرآن، وما لم يتل فهو السنة، فانبروا لجمع الأحاديث ودرسها وتدقيقها، فأتحفوا علم التاريخ بقواعد لا تزال في أسسها وجوهرها محترمة في الأوساط العلمية حتى يومنا هذا^(١).

والذي يطالع دواوين السنة - وخاصة الصحيحين - يجد حشداً ضخماً من الأحاديث النبوية التي تشير إلى وقائع وأحداث تاريخية ماضية؛ كقصص الأنبياء والأمم السابقة وبدء الخلق، كما أن هناك كثيراً من الأحاديث التي تدل على أمور تحدث في المستقبل؛ كأحاديث الفتن وغيرها، وكثير من هذه الأحاديث صحيح ثابت تلقته الأمة بالقبول، وصدقت بما جاء فيه، وأمنت بكل ذلك؛ لأن الذي نطق بها رسول الله ﷺ الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٣) ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٤) (النجم).

وقد اعتمد علماء الأمة على تلك الأحاديث في بيان الحقائق التاريخية وإثباتها، بل تعتبر عندهم من أقوى الأدلة بعد القرآن الكريم، ولذلك ملئت بها كتب السيرة والتاريخ، وحكموها في كثير من أخبار أهل الكتاب، فقبلوا منها ما أيدته الأحاديث النبوية، وردوا منها ما خالفته، وتوقفوا فيما لم يرد شاهد من القرآن الكريم أو السنة عليه، قال الحافظ ابن حجر في بيان معنى قوله ﷺ: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا

• لما كان القرآن الكريم مصدرًا مهمًا من مصادر التاريخ بما تضمنه من إشارات تاريخية وذكر لأحداث جسام حقيقية، كان الحديث النبوي كذلك مصدرًا تاريخيًا وسجلًا من السجلات المهمة الصحيحة في دراسة التاريخ، بل هو مصدر تفسيري تحليلي لكل هذه الأحداث؛ لأنه يبين مبهم القرآن، ويفصّل مجمله، ويحلل دقائقه التاريخية.

• في الحديث النبوي تتجلى عناصر التاريخ الأساسية الخمسة، وهي الزمان، والمكان، والأحداث، وعالم الغيب، والأشخاص والأبطال، وكل ما ورد فيه متعلق بهذه العناصر أتى في أصدق سرد، وأحكم كلام، ومن ادّعى غير ذلك فليأت بحديث واحد به خطأ تاريخي يقوم دليلاً على صحة ما ذهب إليه: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة).

• لا يُعتد بالحديث الضعيف أو الموضوع، ولا يُستدل به على وجود أخطاء أو أغلاط تاريخية في الحديث؛ لأن علماء الحديث قد بينوا كل هذا وأظهروه، فوجود الأحاديث الضعيفة والموضوعة لا يُعدّ دليلاً على ضعف نظام الحديث أو وجود الخطأ؛ لأن ذلك لم يخفَ قط على المحدثين.

• الحديث الشريف هو الذي فتح باب الكتابة التاريخية، وهياً لظهور كتب الطبقات في كل فن، ويكفي في التدليل على أهمية دراسة الحديث وأثره في علم التاريخ - أن قواعد مصطلح الحديث باتت أصح طريقة علمية لتصحيح الأخبار والروايات.

• إن في دواوين السنة حشدًا ضخماً من الأحاديث التي تشير إلى وقائع وأحداث تاريخية ماضية، كقصص

في فض النزاع، إذا اختلفوا في حقيقة تاريخية، كما يلجئون إليها في الأحكام.

روى البخاري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما: أنه تمارى هو والحرب بن قيس بن حصن الغزاري في صاحب موسى، قال ابن عباس: هو خضر فمرّ بهما أبي بن كعب، فدعاه ابن عباس، فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل موسى السبيل إلى لُقيّه؛ هل سمعت النبي ﷺ يذكر شأنه؟ قال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: "بينما موسى يمشي في ملاً من بني إسرائيل جاءه رجل..."^(١).

ولقد استطاع هذا العلم في الناحية التاريخية أن يوجد سلسلة متماسكة لتراجم مفصلة لجميع الأشخاص الذين ذُكروا على أنهم رواة أو محدّثون، سواء أكانوا رجالاً أم نساءً، فقد خضعت تراجمهم لبحث دقيق من كل ناحية، ولم يُعدّ منهم في الثقات إلا أولئك الذين كانت حياتهم وطريقة روايتهم للحديث تتفق تماماً مع القواعد التي تعتبر، على أشد ما يمكن أن يكون من الدقة^(٢).

الخلاصة:

• إن العلوم والمعارف والوقائع والأحداث التاريخية التي أخبر بها النبي ﷺ إن هي إلا وحي من الله لنبيه، وما كان له وهو الأمي أن يعلم ذلك ويخبر به من تلقاء نفسه، إن هو إلا وحي يوحى.

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، (٦/٤٩٧)، رقم (٣٤٠٠).

٢. الرد على شبهات المستشرقين ومن شايعهم من المعاصرين حول السنة، د. أحمد محمد بوقرين، مرجع سابق، ص ٤٠.

أعمال أمتي إلى يوم القيامة". رامين من وراء ذلك إلى إدخال أقوال موضوعة في السنة على أنها من أقوال النبي ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

(١) إن هذه الأحاديث التي وردت في مضمون هذه الشبهة لا يصح منها شيء في ميزان النقد الحديثي، فهي إما موضوعة وإما ضعيفة، وقد بين المحدثون كذبها أو ضعفها وعللها.

(٢) إن منزلة علي بن أبي طالب ﷺ ومكانته في الإسلام ثابتة بالقرآن الكريم والسنة الصحيحة، فليس في حاجة لمن يضع له أحاديث تعلي شأنه.

التفصيل:

أولاً. الأحاديث التي يدعون صحتها في فضل علي ﷺ لا تصح في ميزان النقد الحديثي:

كان من أهم أسباب الوضع في الحديث النبوي التعصب للمذهب ما أو شخص بعينه، فيضع المتعصبون من الأحاديث ما يُعَلِّي من شأن هذا المذهب، أو ذلك الشخص، وكان علي بن أبي طالب ﷺ ممن امتطى اسمه الكريم أناس مغرضون ذوو مآرب، وعلى رأسهم إمام الباطنية عبد الله بن سبأ الذي خَلَّف من بعده مدرسة ضالة شوهت جمال التاريخ الإسلامي، وجعلت علياً ﷺ - حاشاه - وكأنه مُكَمَّل للنبوة، فكأن النبوة لم تكتمل قبله، وكان الله لم يُنزل في كتابه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

بل إن بعضهم رفعه إلى درجة الألوهية، فجاءوا إليه وقالوا: أنت هو، قال: من أنا؟ قالوا: أنت هو، قال:

الأنبياء وأخبار الأمم السابقة، ولم يعثر فيها على أي خطأ، وقد أثبتت الدراسات التاريخية والكشوف الأثرية صحة ما جاء في القرآن والسنة من الوقائع والأخبار، ولو أنصف هؤلاء لأظهروا كيف أبان القرآن والسنة وجه الحق فيما دخله التحريف في الكتاب المقدس - بعهديه القديم والجديد - من وقائع التاريخ.



الشبهة الرابعة والعشرون

الزعم أن الأحاديث الواردة في فضائل علي بن

أبي طالب ﷺ كلها صحيحة* (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين صحة كل الأحاديث الواردة في فضائل علي بن أبي طالب ﷺ وقد دفعهم إلى ذلك حبه الشديد له، وهذه الأحاديث التي يدعون صحتها كثيرة نذكر منها: "اللهم إن عبدك علياً احتبس نفسه على نبيك فرد عليه شرقها"، وفي رواية: "اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس، قالت أسماء: فرأيتها غربت، ثم رأيتها طلعت بعدما غربت"، وقوله: "أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت بابها"، وقوله: "إن الله تعالى أوحى إلي في علي ثلاثاً أشياء ليلة أسري بي، أنه سيد المؤمنين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين"، وقوله: "لمبارزة علي بن أبي طالب لعمر بن عبد ود يوم الخندق أفضل من

(*) رياض الجنة في الرد على أعداء السنة، أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار الحرمين، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

بنت عميس "أن النبي ﷺ صلى الظهر بـ"الصهباء"، ثم أرسل علياً ﷺ في حاجة فرجع وقد صلى ﷺ العصر، فوضع النبي ﷺ رأسه في حجر علي (فنام) فلم يحركه حتى غابت الشمس، فقال النبي ﷺ (فذكره باللفظ الأول وزاد): قالت أسماء: فطلعت الشمس حتى وقعت على الجبال وعلى الأرض، ثم قام فتوضأ وصلى العصر، ثم غابت وذلك في الصهباء".

قال الطحاوي: "محمد بن موسى هو المدني المعروف بـ"الفطري"، وهو محمود في روايته، وعون بن محمد هو عون بن محمد بن علي بن أبي طالب، وأمه هي أم جعفر ابنة محمد بن جعفر بن أبي طالب"، ثم يقول: وهذا سند ضعيف مجهول، أما الرواية الثانية من طريق الفضيل بن مرزوق، وإن كان من رجال مسلم فإنه مختلف فيه، وقد أشار إلى ذلك الحافظ في التقريب بقوله: "صدوق يهم"، وقال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية في "منهاج السنة" (٤ / ١٨٩): "وهو معروف بالخطأ على الثقات، وإن كان لا يتعمد الكذب"، وقال فيه ابن حبان: "يخطئ على الثقات، ويروي عن عطية الموضوعات"، وقال فيه أبو حاتم الرازي: "لا يُحتج به"، وقال يحيى بن معين: "هو ضعيف".

ثم قال الألباني: والحديث أورده ابن الجوزي في "الموضوعات" (١ / ٣٥٦)، وقال: موضوع بلا شك، وقال الجوزقاني: هذا حديث منكر مضطرب، هذا من ناحية السند، أما من ناحية المتن فقد نقل الألباني كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه "الرد على الروافض"، حيث قال: وحديث رد الشمس لعلي، قد ذكره طائفة كالطحاوي والقاضي عياض وغيرهما، وعدوا ذلك من معجزات النبي ﷺ، لكن المحققين من أهل العلم

ويلكم من أنا؟ قالوا: أنت ربنا. قال: ارجعوا فأبوا، فضرب أعناقهم، ثم خَدَّ لهم^(١) في الأرض، ثم قال: يا قنبر ائتني بحزَم الحطب فحرِّقهم بالنار وقال:

لَمَّا رَأَيْتُ الْأَمْرَ أَمْرًا مُنْكَرًا

أَوْقَدْتُ نَارِي وَدَعَوْتُ قَنْبَرًا^(٢)

وعلى نهج هؤلاء سار أقوام، فوضعوا أحاديث مكذوبة في عليٍّ ﷺ، منها ما هو خاص بالوصية والإمامة، ومنها ما يتحدث عن خلقه قبل البشر، ومنها ما يتحدث عن فضله على سائر الخلق يوم القيامة، ومنها ما يجعله في مرتبة أعلى من الأنبياء والمرسلين، وما إلى ذلك مما لا يخفى على ذوي الأبواب من الأهداف الخفية التي يرمون إليها، وقد وَفَّقَ اللهُ ﷻ علماء الحديث إلى بيان معرفة الموضوع من هذه الأحاديث والضعيف، وبيان عللها، حتى فَرَّقُوا بين الحق والباطل منها. وأما ما استدل به أصحاب هذه الشبهة من أحاديث في فضائل عليٍّ ﷺ، فإنها لا تصح، وإليك بيانها كما أوردها الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة:

الحديث الأول: "اللهم إن عبدك علياً احتبس نفسه على نبيك فردَّ عليه شرقها"، وفي رواية: "اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس، قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعدما غربت".

هذا الحديث قال عنه الألباني: موضوع، أخرجه الطحاوي في "مشكل الآثار" (٢ / ٩) من طريق أحمد بن صالح، حدثنا ابن أبي فديك، حدثني محمد بن موسى عن عون بن محرر عن أمه أم جعفر عن أسماء

١. خَدَّ لهم: حفر لهم الأحاديث.

٢. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، ص ٢٤٤.

الحفاظ على هذا الحديث من جهة متنه، وعلم قبل ذلك أنه ليس له إسناد يُحتج به، تيقن أن الحديث كذب موضوع لا أصل له^(٢).

الحديث الثاني: "أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأته من بابها".

يقول الألباني: موضوع أخرجه ابن جرير الطبري في "تهذيب الآثار"، والطبراني في "المعجم الكبير" (٣/ ١٠٨ / ١)، والحاكم في "المستدرک" (٣/ ١٢٦)، والخطيب في "تاريخ بغداد" (١١/ ٤٨)، وابن عساکر في "تاريخ دمشق" (١٢/ ١٥٩ / ٢) من طريق أبي الصلت عبد السلام بن صالح الهروي، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً. وقال ابن جرير والحاكم: صحيح الإسناد، وردّه الذهبي بقوله: "بل موضوع"، ثم قال الحاكم: "وأبو الصلت ثقة مأمون"، فتعقبه الذهبي بقوله: "لا والله لا ثقة ولا مأمون".

وقال في كتابه "الضعفاء والمتروكين": اتهمه بالكذب غير واحد، قال أبو زرعة: لم يكن بثقة، وقال ابن عدي: متهم، وقال غيره: رافضي، وقال الحافظ في "التقريب": صدوق له مناكير، وكان يتشيع، وأفرط العقيلي فقال: كذاب^(٣).

ثم يقول الألباني: لم يوثقه أحد سوى ابن معين، وقد اضطرب في توثيقه.

أما بالنسبة لمتن الحديث فقد نقل الألباني ما قاله ابن

المعرفة بالحديث يعلمون أن هذا الحديث كذب موضوع، ثم إن تفويت الصلاة بمثل هذا إما أن يكون جائزاً، وإما ألا يكون، فإن كان جائزاً لم يكن على علي عليه السلام إثم إذا صلى العصر بعد الغروب، وليس علي أفضل من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد نام صلى الله عليه وآله وسلم ومعه علي وسائر الصحابة عن الفجر حتى طلعت الشمس، ولم ترجع لهم إلى الشرق. وإن كان التفويت محرماً فتفويت العصر من الكبائر، وعلي كان يعلم أنها الوسطى وهي صلاة العصر، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في الصحيحين أنه قال: "شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً"^(١)، وهذا كان في الخندق، وهذه القصة كانت في خيبر كما في بعض الروايات، وخيبر بعد الخندق، فعلي أجل قدرًا من أن يفعل مثل هذه الكبيرة ويقره عليها جبريل عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن فعل هذا كان من مثالبه لا من مناقبه، ثم إذا فاتت لم يسقط الإثم عنه بعود الشمس. وأيضًا فإذا كانت هذه الواقعة في خيبر في البرية أمام العسكر، والمسلمون أكثر من ألف وأربعمائة، وكان هذا مما يراه العسكر، ومثل هذا مما تتوافر المهمم والدواعي على نقله، فيمتنع أن ينفرد بنقله الواحد والاثنان، فلو نقله الصحابة لنقله عنهم أهل العلم، كما نقلوا أمثاله.

وجملة القول: أن العاقل إذا تأمل فيما سبق من كلام

١. صحيح البخاري (شرح فتح الباري)، كتاب: الدعوات، باب: الدعاء على المشركين، (١١/ ١٩٧)، رقم (٦٣٩٦).
صحيح مسلم (شرح النووي)، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، (٣/ ١٢٠٧)، رقم (١٣٩٩).

٢. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الألباني، مرجع سابق، (٢/ ٣٩٥: ٤٠١).

٣. المرجع السابق، (٦/ ٥١٨، ٥١٩).

عيسى بن سودة، وبه وحده أعله الهيثمي في "المجمع" (٩/ ١٢١)، فقصر. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذا حديث موضوع عند من له أدنى معرفة بالحديث، ولا تحلُّ نسبته إلى الرسول المعصوم ﷺ، ولا نعلم أحدًا هو: سيد المسلمين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، غير نبينا ﷺ، واللفظ مطلق، ما قال فيه: من بعدي. وأقره الذهبي في "مختصر المنهاج" (ص ٤٧٣) (٢).

الحديث الرابع: "لمبارزة علي بن أبي طالب لعمر بن عبد ودّ يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة". قال الألباني: كذب، أخرجه الحاكم في "المستدرک" (٣/ ٣٢) من طريق أحمد بن عيسى الخشاب: حدثنا عمرو بن أبي سلمة: حدثنا سفيان الثوري عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده مرفوعًا. سكت عنه الحاكم، قال الذهبي في تلخيصه: قبَّح الله رافضياً افتراه.

ثم قال الألباني: وعلته الخشاب هذا، فإنه كذاب؛ كما قال ابن طاهر وغيره، ولعله سرقه من كذاب مثله، فقد أخرجه الخطيب (١٣/ ١٩) من طريق إسحاق بن بشر القرشي عن بهز بن حكيم به.

وإسحاق هذا هو الكاهلي الكوفي، وهو كذاب أيضًا، وقد سبقت له أحاديث موضوعة. وقصة مبارزة علي ﷺ لعمر بن عبد ودّ وقتله إياه مشهورة في كتب السيرة، وإن كنت لا أعرف لها طريقًا مسندًا صحيحًا، وإنما هي من المراسيل والمعاضيل (٣).

وهناك أحاديث كثيرة موضوعة أو ضعيفة في فضل

تيمية في "منهاج السنة"، حيث قال: حديث "أنا مدينة العلم وعلي بابها" أضعف وأوهى، ولهذا إنسا يعد في الموضوعات، وإن رواه الترمذي، وذكره ابن الجوزي ويَبِّن أن سائر طرقه موضوعة، والكذب يُعرف من نفس منته، فإن النبي ﷺ إذا كان مدينة العلم ولم يكن لها إلا باب واحد، ولم يُبلِّغ العلم عنه إلا واحد، فسد أمر الإسلام، ولهذا اتفق المسلمون على أنه لا يجوز أن يكون المبلِّغ عنه العلم واحدًا، بل يجب أن يكون المبلِّغون أهل التواتر الذين يحصل العلم بخبرهم الغائب، وخبر الواحد لا يفيد العلم بالقرآن والسنة المتواترة، ثم إن علم الرسول ﷺ من الكتاب والسنة قد طبق الأرض، وما انفرد به علي عن رسول الله ﷺ فيسير قليل، وأجلّ التابعين بالمدينة هم الذين تعلموا في زمن عمر وعثمان، وتعليم معاذ للتابعين، ولأهل اليمن أكثر من تعليم علي ﷺ، وقدم علي على الكوفة وبها من أئمة التابعين عدد: كسريح وعبيدة وعلقمة ومسروق وأمثالهم (١).

وبناء على هذا فإن الحديث موضوع سندًا ومنتًا.

الحديث الثالث: "إن الله تعالى أوحى إليّ في عليّ ثلاثة أشياء ليلة أسري بي: أنه سيد المؤمنين وإمام المتقين وقائد الغرّ المحجلين" فهذا الحديث موضوع، ويوضح الشيخ الألباني ذلك فيقول: هذا الحديث موضوع، أخرجه الطبراني في "المعجم الصغير" (ص ٢١٠) عن مجاشع بن عمرو، حدثنا عيسى بن سودة النخعي، حدثنا هلال بن أبي حميد الوزان عن عبد الله بن عكيم الجهني مرفوعًا، وقال: تفرد به مجاشع.

قلت: وهو كذاب - أي مجاشع - وكذا شيخه

٢. السابق، (١/ ٥٢٨).

٣. السابق، (١/ ٥٧٦، ٥٧٧).

١. السابق، (٦/ ٥٢٩، ٥٣٠).

علي بن أبي طالب وآل بيته.

على رسول الله ﷺ، وغيرها كثير مما هو على شاكلتها من إخبار عن غيب، أو إفراط في تقديس علي، أو غير ذلك، مما لا يخفى على المحدثين الذين بينوا زوره وبطلانه؛ لأن كلام النبي ﷺ نور لا يُرى في تلك الأحاديث المكذوبة الموضوعية في حق علي ﷺ، والذي هو في غنى عن الوضع عليه؛ إذ قد ثبت فضله بالطرق الصحيحة التي لا يمتري فيها أحد، وهذا ما سنبينه في الوجه التالي[®].

ثانياً. مكانة علي ﷺ في القرآن والسنة الصحيحة:

إن علي بن أبي طالب ﷺ أحد الصحابة الأطهار، رابع الخلفاء الراشدين، ابن عم النبي ﷺ وصهره، وهو من المنزلة العالية والمكانة الرفيعة التي لا ينكرها إلا صاحب هوى - ليس في حاجة إلى وضع أحاديث تعلي من شأنه، فشأنه عالٍ، وقدره عظيم بشهادة القرآن والسنة الصحيحة؛ يقول الله ﷻ في فضل الصحابة ومنهم علي ﷺ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ (التوبة)، وقال ﷺ: ﴿لَنْ يَكُنَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: "ولكن ينبغي أن يعرف أنه قد كُذِبَ على علي وأهل بيته - لا سيما على جعفر الصادق - ما لم يكذب على غيره من الصحابة، حتى إن الإسماعيلية والنصيرية يضيفون مذهبهم إليه وكذلك المعتزلة، وكذلك فرقة التصوف يقولون: إن الحسن البصري صحبه، وإنه دخل المسجد فرأى الحسن يقصُّ مع القصاص فقال: ما صلاح الدين؟ قال: الورع، قال: فما فساده؟ قال: الطمع فأقره وأخرج غيره؛ وقد اتفق أهل المعرفة بالمنقولات على أن الحسن لم يصحب علياً ولم يأخذ عنه شيئاً، وإنما أخذ عن أصحابه كالأحنف بن قيس، وقيس بن سعد بن عباد، وأمثالهما ولم يقص الحسن في زمن علي؛ بل ولا في زمن معاوية؛ وإنما قصَّ بعد ذلك، وقد كانوا في زمن علي يكذبون عليه حتى كان الناس يسألونه كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي جحيفة قال: سألت علياً ﷺ هل عندكم شيء ما ليس في القرآن؟ وقال مرة: ما ليس عند الناس؟ فقال: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة ما عندنا إلا ما في القرآن - إلا فهماً يُعطى رجل في كتابه - وما في الصحيفة، قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العقل^(١)، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر^{(٢)(٣)}.

وبعد، فهذه بعض الأحاديث التي وضعها مُدعو حب علي بن أبي طالب ﷺ، الذين استحلوا الكذب

® في "وضع غلاة الشيعة الأحاديث في مدح آل البيت" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثالثة عشرة، من هذا الجزء. وفي "أثر الشيعة في وضع الأحاديث" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة العشرين، من هذا الجزء. وفي "اختلاق قصة وصاية النبي لعلي بالإمامة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة عشرة، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة).

١. العقل: اللدنية.

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الديات، باب: العاقلة، (١٢ / ٢٥٦)، رقم (٦٩٠٣).

٣. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، (١٣ / ٢٤٤).

القيامة. وقال قيس بن عباد: وفيهم أنزلت: ﴿هَذَا الَّذِينَ خَصِمْنَا أَنْصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ (الحج: ١٩)، قال: هم الذين تبارزوا يوم بدر، حمزة وعلي وعبيدة أو أبو عبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة" (١).

وعلي ﴿أحد من نزل فيهم قول الله ﷻ﴾: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَآبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران)، وكان ذلك في وفد نجران حينما جادلهم النبي ﷺ في عيسى ابن مريم، وأنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى أمه الطاهرة، وكذبهم في أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا، فدعاهم إلى المباحلة، فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص، قال: لما نزلت ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦١) دعا رسول الله ﷺ عليًا، وفاطمة، وحسنا وحسينًا ﷺ فقال: "اللهم هؤلاء أهلي" (٢).

هذا هو علي ﷺ ومكانته العظيمة في القرآن الكريم. وقد وردت في السنة الصحيحة أحاديث كثيرة في فضل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، منها:

١. ما رواه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال رسول الله ﷺ: "اهدأ فما عليك

﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ (التوبة)، وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۗ وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٩١) (النحل)، وقال ﷻ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح)، وقال ﷻ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْلَا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٩٠) (الحديد).

ولا شك أن عليًا من هؤلاء الفائزين، المبشرين برحمة ربهم، الموعودين بالخيرات، الخالدين في الجنة، الذين فازوا برضا الله عنهم، وهل هناك أعظم من شهادة الله تعالى في كتابه بعدالة الصحابة ومنهم الإمام علي بن أبي طالب، ووعدته تعالى إياهم بالخيرات، وأنهم خالدون في الجنة أبدًا، بل لقد نزل قرآن في علي بن أبي طالب وبعض الصحابة خاصة؛ مثل قول الله ﷻ:

﴿هَذَا الَّذِينَ خَصِمْنَا أَنْصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُّصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْنَعٌ مِنَ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ اعْبُدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْرُونَ فِيهَا مِنْ نَحْوِ مَا يَدَّبُ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٢٣) (الحج).

روى البخاري بسنده عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: "أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم

١. صحيح البخاري (شرح فتح الباري)، كتاب: المغازي، باب: قتل أبي جهل، (٧/ ٣٤٦)، رقم (٣٩٦٥).
٢. صحيح مسلم (شرح النووي)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل علي بن أبي طالب، (٨/ ٣٥٤٠)، رقم (١٦٠٣).

إلا نبيًّا أو صِدِّيق أو شهيد" (١).

ما يسرني أن لي بها حمر النعم وسودها، قال: وكان علي ﷺ إذا غَسَلَ مِيْتًا اغتسل" (٥).

٦. عن ذر الهمداني قال: قال علي: "والذي فلح الحبة، وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي الأمي ﷺ إلي: ألا يجبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق" (٦).

٧. عن ابن أبي ليلى قال: "حدثنا علي أن فاطمة رضي الله عنها شكَّت ما تلقى من أثر الرحي، فأتي النبي ﷺ بسبي فانطلقت لتطلب منه من يخدمها من السبايا فلم تجده، فوجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة، فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبت لأقوم فقال: على مكانكما، فقعد بيننا، حتى وجدت برد قدميه على صدري، وقال: ألا أعلمكما خيرًا مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما تكبران أربعًا وثلاثين، وتسبحان ثلاثًا وثلاثين، وتحمدان ثلاثًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم" (٧).

٨. عن مصعب بن سعد عن أبيه: أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف عليًّا، فقال: أُخْلَفْنِي فِي الصَّيَّانِ وَالنِّسَاءِ؟ قال: "ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي" (٨).

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند علي بن أبي طالب ﷺ، (١٣٦ / ٢)، رقم (٨٠٧). وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

٦. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: الدليل إلى حب الأنصار وعلي، (٢ / ٤٥٧)، رقم (٢٣٦).

٧. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مناقب علي، (٧ / ٨٨)، رقم (٣٧٠٥).

٨. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المغازي، باب: غزوة تبوك، (٧ / ٧١٦)، رقم (٤٤١٦).

٢. عن علي ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت: يا رسول الله، إنك تبعثني إلى قوم هم أسنّ مني لأقضي بينهم قال: "اذهب فإن الله تعالى سيثبت لسانك ويهدي قلبك" (٢).

٣. وقال ﷺ: "أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة" (٣).

٤. عن حبشي بن جنادة السلولي - وكان قد شهد حجة الوداع - قال: قال رسول الله ﷺ: "علي مني وأنا من علي، ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي" (٤).

٥. عن علي ﷺ قال: "لما توفي أبو طالب أتيت النبي ﷺ فقلت: إن عمك الشيخ قد مات، قال: اذهب فواره، ثم لا تحدث شيئًا حتى تأتيني، قال: فواريته ثم أتيته، قال: اذهب فاغتسل ثم لا تحدث شيئًا حتى تأتيني، قال: فاغتسلت ثم أتيته قال: فدعا لي بدعوات

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما، (٨ / ٣٥٥٢)، رقم (٦١٣٠).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند علي بن أبي طالب، (٧٣ / ٢)، رقم (٦٦٦). وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، حديث عبد الرحمن بن عوف الزهري ﷺ، (٣ / ١٣٦)، رقم (١٦٧٥). وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

٤. حسن: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذى)، كتاب: مناقب علي بن أبي طالب، باب رقم (٨٦)، (١٠ / ١٥٢)، رقم (٣٩٦٧). حسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٣٧١٩).

الخلاصة:

• إن هذه الأحاديث التي استدلووا بها على فضل علي بن أبي طالب عليه السلام لا يصح منها شيء في ميزان النقد الحديثي، وقد تصدَّى العلماء لها، ومثلها من هذه الأحاديث وبينوا أنها موضوعة أو ضعيفة، موضحين علة ذلك الحكم سندًا وامتًا.

• إن التعصب للمذهب الشيعي، ولشخص علي بن أبي طالب عليه السلام كان السبب في وضع مثل هذه الأحاديث، ولكن علماء الحديث أوضحوا أن كلام النبوة له نور لا يرى في تلك الأحاديث المكذوبة.

• لقد ذكر القرآن الكريم فضل علي بن أبي طالب ومكانته الرفيعة؛ إذ هو أحد الصحابة الكرام الذين أثنى عليهم القرآن جملة في آيات عديدة فيبين أنهم أعظم درجة عند الله تعالى، وهم الفائزون المبشرون برحمة الله ورضوانه وجناته التي تجري من تحتها الأنهار.

• إذا كانت هذه مكانة علي في القرآن، فإن السنة النبوية لم تترك بيان فضله، فقد صحت أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم منها:

- أنه شهيد.
- أنه في الجنة.
- أنه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم والنبي صلى الله عليه وآله وسلم منه، ولا يؤدي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا هو.

○ أنه لا يحبه إلا مؤمن، ولا يبغضه إلا كافر.

○ أنه كان من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمنزلة هارون من موسى عليهما السلام إلا أنه لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

• إن هذه المكانة العالية والمنزلة العظيمة لعلي عليه السلام لا يحتاج بعدها إلى من يضع أحاديث تبين فضله.

٩. عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يوم خيبر: "لأعطين هذه الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، قال: فبات الناس يدركون ليلتهم: أيهم يُعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم يرجو أن يُعطاها. فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عينيه، ودعا له فبرأ حتى كأنه لم يكن به وجع، فأعطاها الراية، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم"^(١).

ويكفي للتدليل على فضله صلى الله عليه وآله وسلم أن البخاري خصص بابًا في صحيحه لبيان فضله ومكانته بين المؤمنين فسماه "باب: مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن عليه السلام"، وذكر فيه سبعة أحاديث تبين فضله وعلمه. فهل بعد هذا كله، وبعد المكانة العالية التي كانت لعلي بن أبي طالب، هل هو في حاجة لمن يضع له أحاديث تعلي من شأنه ^②!

١. صحيح البخاري (شرح فتح الباري)، كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر، (٧/ ٥٤٤)، رقم (٤٢١٠).

② في "ثبوت فضل آل البيت بالأحاديث الصحيحة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة عشرة، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها). وفي "أبو هريرة من رواية أحاديث فضائل علي" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثالث (أبو هريرة). وفي "احتواء صحيح البخاري على مناقب ومرويات لأهل البيت" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة، من الجزء السادس (دواوين السنة).



صحيحها من موضوعها.

التفصيل:

إنكار الأحاديث الواردة في فضائل البلدان وأهلها (*)

أولا. فضائل بعض البلدان والأمصار ثابتة بالأحاديث

الصحيحة:

مضمون الشبهة:

العصبية القومية مرضٌ قلَّ أن تسلم منه أمة من الأمم؛ فقد وضع الشعوبيون مثلاً أحاديث في ذم العرب، ومدح أنفسهم وإعلاء شأنهم، ومما وضعوه في ذلك حديث "إن الله إذا غضب أنزل الوحي بالعربية، وإذا رضي أنزل الوحي بالفارسية"^(١)، فقابلهم جهلة العرب بالمثل فوضعوا: "إن الله إذا غضب أنزل الوحي بالفارسية، وإذا رضي أنزل الوحي بالعربية"^(٢)، ومثل هذا كثير يمكن أن يقال في الأحاديث الموضوعية في فضائل بعض البلدان والقبائل.

ينكر بعض المغرضين بعض الأحاديث الثابتة في فضل بعض البلدان والأمصار، زاعمين أن "النعرة القومية" لدى أهالي الأقاليم والمدن والأمصار المفتوحة كانت سبباً في وضع جملة هذه الأحاديث التي تشني على هذا الإقليم أو ذاك، وعلى حسب ما يزعمون فإن النعرة القومية كانت سبباً لوضع المصريين حديثاً في فضل مصر وشعبها ونصه هكذا: "إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يُسَمَّى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحماً". وهم من وراء إنكار الأحاديث الثابتة في فضل بعض البلدان وأهلها يرمون إلى وصم السنة بتهمة الوضع؛ تمهيداً للإنكار نصوصها جملة، وترك العمل بمقتضاها.

وجهاً لإبطال الشبهة:

بيد أن هذا لا يعني أن كل ما ورد في فضائل الأمصار والبلدان موضوع لا أساس له، فلقد أثنى القرآن الكريم على بعض البلدان التي فتحها المسلمون؛ فقال الله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾ (الإسراء: ١)، وقال ﷺ لنبيه موسى ﷺ: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (طه)، وقال أيضاً: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ (المائدة: ٢١).

(١) إن فضل بعض البلدان والأمصار ثابت بالقرآن والسنة الصحيحة، والحديث الذي في حق مصر حديث صحيح، كما أنه ليس فيه ثناء واضح مباشر على شعب مصر حتى يُزعم أن المصريين وضعوه تحت إملاء النعرة القومية.

وفي فضائل المدينة أخرج البخاري أحاديث عدة في كتاب فضائل المدينة عن علي بن أبي طالب، وعن أنس (حديثين)، وعن أبي هريرة (حديثين) وعن غيرهم؛

(٢) إن مع الاعتراف بكثرة الأحاديث الموضوعية أو الضعيفة التي جاءت في الثناء على بعض الأمصار، فإن علماء الحديث قد فحصوها حديثاً حديثاً، وبيّنوا

١. موضوع: ذكره ابن الجوزي في كتاب الموضوعات، مرجع

سابق، (١/ ١١١).

٢. موضوع: ذكره الفتني في تذكرة الموضوعات، (١/ ١١٣).

(*) كيف ولماذا التشكيك في السنة؟ د. أحمد عبد الرحمن، مرجع سابق.

إن المبدأ الإسلامي العظيم هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، فإذا أثنى النبي ﷺ على بلد أو قوم أو مصر فعلى هذا الأساس، فلا غرو أن يوصي النبي ﷺ بأهل مصر خيرًا "فإن لهم منكم صهراً وذمة" - أو كما قال - وقد كان ردُّ كبير القبط على رسالة النبي ﷺ خير ردٍّ (٧)، وهو الذي كتب إلى النبي ﷺ ما نصّه: "بسم الله الرحمن الرحيم... لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وكنت أظن أنه يخرج من الشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك".

هذا ما كتبه المقوقس، وهو يدل على أنه اقتنع بالقرآن الكريم والإسلام، ولكن تردد في القبول، وتلطف في الرد، وبنى ترده على أنه كان يظن أن نبي آخر الزمان سيخرج من الشام (٨). فما العجب - إذن - أن يوصي النبي بأقباط مصر خيرًا، "فإن لهم صهراً وذمة"؟ أو لم تكن هاجر زوج إبراهيم عليهما السلام مصرية؟

هذا وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده أحاديث عديدة في الثناء على بعض الأمصار، لكنها ليست مقتصرة على البلاد التي فتحها المسلمون، بل عليها وعلى أماكن في قلب الجزيرة العربية.

٧. كيف ولماذا التشكيك في السنة؟ د. أحمد عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ٨٥، ٨٦ بتصرف.
٨. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، (٣/ ٨٦٧).

فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "المدينة حرم من كذا إلى كذا، لا يُقطع شجرها، ولا يحدث فيها حدث، من أحدث حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين" (١).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "حُرِّمَ ما بين لابتي المدينة" (٢) على لساني، قال: وأتى النبي ﷺ بني حارثة فقال: أراكم يا بني حارثة قد خرجتم من الحرم، ثم التفت فقال: بل أنتم فيه" (٣).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أمرت بقرية تأكل القوي، يقولون: يشرب، وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد" (٤).

• وأخرج البخاري ستة أحاديث في ذكر "أسلم" و"غفار" و"مزينة" و"جهينة" و"أشجع"، وأنهم موالى النبي ﷺ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وغفار وأشجع موالى، ليس لهم مولى دون الله ورسوله" (٥).
وعنه رضي الله عنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: "أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها" (٦).

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضائل المدينة، باب: حرم المدينة، (٤/ ٩٧)، رقم (١٨٦٧).
٢. لابني المدينة: ناحيتها.
٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضائل المدينة، باب: حرم المدينة، (٤/ ٩٧)، رقم (١٨٦٩).
٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضائل المدينة، باب: حرم المدينة، (٤/ ٩٧)، رقم (١٨٧٠).
٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المناقب، باب: مناقب قريش، (٦/ ٦١٧)، رقم (٣٥٠٤).
٦. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المناقب، باب: ذكر أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع، (٦/ ٦٢٦)، رقم (٣٥١٢).

ثانياً. تمحيص العلماء لأحاديث فضائل البلدان وأهلها:

خلصنا فيما سبق إلى نتيجة مؤداها أن ثمة أحاديث صحيحة - وليست بالقليلة - وردت في فضائل بعض البلدان وأهلها، وإن كانت هذه النتيجة في الوقت ذاته لا تعني التسليم بصحة كل ما ورد في هذا الشأن، بل إننا معترفون بكثرة الأحاديث التي وُضعت في فضائل البلدان أو ذمها، ولسنا مبالغين إذا قلنا: إنه "لا تكاد توجد مدينة من مدن الدولة الإسلامية إلا وضع فيها حديث يشيد بفضلها أو يظهر ذمها والخط منها، أو يحذر من السكنى بها أو يرغب في ذلك، ولعلَّ تَنَقُّلَ مقر السلطة بين الحجاز والشام والعراق كان له دور في ذلك" (٤).

فقد وضعت أحاديث في فضائل مكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق وجدة والإسكندرية وعسقلان وقزوين ونصيبين وخراسان، وكذلك وضعت أحاديث في ذم القسطنطينية وطبرية وأنطاكية وصنعاء ومصر والبصرة وبغداد والسودان، إلى غيرها من الأحاديث التي تشير إلى أن العصبية القبلية والفخر بالجنس أو اللون أو الدم أو المدن كان له أثر بارز في وضع الحديث والاختلاق على رسول الله ﷺ.

ومن ذلك ما ورد من الأحاديث في ذم الحبشة والسودان، "قال ابن القيم: كل ما ورد من الحديث في ذم الحبشة والسودان فهو كذب" (٥)، وكذلك أيضًا ما

وأما الحديث الذي جاء في مسند أحمد في فضل مصر فإنه صحيح، ولا غبار عليه، ولم يكن قد وضع تحت إملاء النعرة القومية كما زعموا، وإليكم نص الحديث؛ قال النبي ﷺ: "إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا" (١)، هذا وقد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه تحت باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إنكم ستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا" (٢).

وفي رواية عنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: "إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا"، أو قال: "ذمة وصهرًا" (٣).

وكلا الحديثين كما رأيت ورد في أصح كتب السنة بعد صحيح البخاري، ألا وهو صحيح مسلم، وليس في هذا وضع أو اختلاق تحت تأثيرات النعرة القومية كما يزعمون، فإن قواعد النقد الحديثي لا تعرف العصبية القومية أو القبلية.

وإذا وقفنا على ما عليه هذا الحديث من الصحة وثبوته إلى النبي ﷺ علمنا أن الزعم بأن النعرة القومية كانت سببًا في وضعه زعم لا أساس له من الصحة.

١. صحيح، أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث المشايخ عن أبي بن كعب رضي الله عنه، رقم (٢١٥٦٠). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: وصية النبي ﷺ بأهل مصر، (٩/ ٣٦٧٠)، رقم (٦٣٧٥).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: وصية النبي ﷺ بأهل مصر، (٩/ ٣٦٧٠)، رقم (٦٣٧٦).

٤. الوضع في الحديث، د. عمر بن حسن عثمان فلاتة، مرجع سابق، (١/ ٢٦٢).

٥. المنار المثيف في الصحيح والضعيف، ابن القيم، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ٢، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٧م، ص ١٠١.

فضائل بعض البلدان وأهلها؛ لأنه لا يجوز التعميم إلا بحقه.

وعليه فإنه كما ضعّف المحدثون بعض الأحاديث في باب فضائل بعض البلدان وأهلها، فإنهم أيضًا أثبتوا صحة بعض الأحاديث في بعض البلدان وأهلها مدحًا أو ذمًا، وليس أمامنا إلا أن نردّ ما ضعفوه، أو أخرجوه من جملة الكلام المنسوب للنبي ﷺ، وأن نقبل ما قبلوه منه، وثقتنا في قبول هذه الأحاديث الصحيحة لا تقل عن ثقتنا في رفض تلك الأقوال الموضوعية!

الخلاصة:

- على الرغم من تسليمنا بكثرة الأحاديث التي وُضعت في فضائل البلدان وأهلها، فإننا لا نسلم بأن كل ما ورد في هذا الشأن موضوع لا أساس له، فلقد أخرج البخاري في فضائل المدينة عدة أحاديث صحيحة، وأخرج كذلك ستة أحاديث في ذكر أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع، وكذا أخرج مسلم في صحيحه أحاديث في فضائل أهل اليمن، وعبان وفارس.

- إن الحديث الذي جاء في مسند أحمد في حق مصر ليس فيه ثناء على شعب مصر حتى يقال: إن المصريين وضعوه تحت إملاء النعرة القومية؛ إذ لا غضاضة في أن يوصي النبي ﷺ بهم خيرًا "فإن لهم صهرا وذمة".

- رغم كثرة الأحاديث الموضوعية في فضائل البلدان ومناقب أهلها، فإن علماء الحديث قد فحصوها ونقدوها حديثًا حديثًا، ولم يمنعهم من ذلك مجيئها في بعض المسانيد، ومن ذلك مثلاً الحديث الخاص بفضل

جاء في فضلهم ففيه ضعف. روى ابن حبان في الضعفاء: "اتخذوا السودان، فإن فيهم ثلاثة فيهم سادات الجنة: لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال"^(١).

لقد "وجد العلماء في كل باب أحاديث صحيحة وأخرى ضعيفة أو موضوعة، فخصصوا للصحيح بدرجاته المختلفة كتبًا، وللموضوعات كتبًا، فليس الوضع في باب "فضل البلدان ودم البلدان" شيئًا خاصًا به دون سائر الأبواب، فهذا ابن الجوزي رحمه الله يخصص كتابًا ضخماً في الموضوعات بعنوان: "العلل المتناهية في الأحاديث الواهية"، وقد أورد أحاديث واهية في ذم الإسكندرية وفضل عدن ودمشق وحمص ومزرو والأردن والشام والبصرة، وكذلك في ذم بعضها"^(٢).

ومها يكن من أمر فقد صحت أحاديث في فضائل بعض البلدان وأهلها، فليست كل الأحاديث التي وردت في فضائل البلدان موضوعة، وقد صح في فضل اليمن حديث: "أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوبًا، الإيمان بيمان، والحكمة بيمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم"^(٣).

إن ورود كثير من الأحاديث الموضوعية والضعيفة في فضائل بعض البلدان وأهلها، والتي تحمّصها العلماء والمحدثون - لا تجعلنا نتبنى مبدأ التعميم في الحكم، فننكر الأحاديث الصحيحة الواردة في

١. الموضوعات، ابن الجوزي، مرجع سابق، (١/ ٢٣٢).

٢. كيف ولماذا التشكيك في السنة؟ د. أحمد عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ٨٨، ٨٩.

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المغازي، باب: قدوم الأشعرين وأهل اليمن، (٧/ ٧٠١)، رقم (٤٣٨٨).

• إننا وإن لم نقبل من هذه الأخبار ما وصفه
جهايزة الحديث بالوضع، فإننا نقبل الأخبار الأخرى
الصحيحة الثابتة في فضائل بعض البلدان ومناقب
أهلها، بثقة في القبول لا تقل عن تلك الثقة في الرفض.



عسقلان، وكذلك ما ورد من الأحاديث في ذم الحبشة
والسودان.

• إن من المنطق - أمام تثبت المحدثين بشأن
الأحاديث الواردة في باب فضائل البلدان وأهلها - ألا
نعتم الحكم عليها بقبول مجمل أو رفض مجمل، وهم
الذين قبلوا بعضاً وردوا بعضاً.

المصادر والمراجع

- أباطيل الخصوم حول القصص القرآني: عرض ومناقشة، د. عبد الجواد محمد المحمص، الدار المصرية، الإسكندرية، د. ت.
- الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث في القرن الثاني الهجري، د. عبد المجيد محمود، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ.
- الإحكام في أصول الأحكام، الأمدي، مكتبة نزار الباز، الرياض، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- اختلاف الحديث، الإمام الشافعي، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- اختلاف الحديث، الشافعي، دار الفكر، بيروت، ط ١.
- أخطاء وأوهام في أضخم مشروع تعسفي لهدم السنة النبوية، د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٩٩٩م.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- الاستشراق والمستشرقون: ما لهم وما عليهم، د. مصطفى السباعي، دار الوراق، السعودية، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- الإسرائيليات في التفسير والحديث، د. محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- الإسرائيليات والموضوعات وبدع التفسير قديماً وحديثاً، حامد أحمد الطاهر البسيوني، دار التقوى، القاهرة، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، د. ت.
- أصل الشيعة وأصولها، آل كاشف الغطاء، مؤسسة الأعلمي، بيروت، د. ت.
- أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٣م.
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، السخاوي.
- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط ٣، د. ت.
- الأنوار الكاشفة، المعلمي اليماني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- اهتمام المحدثين، د. محمد لقمان.

- إيقاظ الهمم، القلاني.
- الباحث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، أحمد شاكر، دار التراث، القاهرة، ط ٢، ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٨ هـ / ١٩٩٨ م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، دار التقوى، القاهرة، ٢٠٠٤ م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط ١، ١٩٦٨ م.
- بين الشيعة وأهل السنة، إحسان إلهي ظهير، إدارة ترجمان السنة، باكستان، ط ١، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
- تاريخ الأمم والملوك، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٧ هـ.
- التاريخ الكبير، البخاري، تحقيق: السيد هاشم، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- تاريخ دمشق، ابن عساكر، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.
- تأسيس الشيعة لعلوم الشريعة القرآنية، حسن الصدر، شركة الطباعة والنشر، بغداد، ١٩٥١ م.
- التأصيل الشرعي لقواعد المحدثين، د. عبد الله شعبان، دار السلام، القاهرة، ط ١، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٥ م.
- تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م.
- تدوين السنة النبوية: نشأته وتطوره، د. محمد بن مطر الزهراني، مكتبة الصديق، السعودية، ط ١، ١٤١٢ هـ.
- تدوين وتوثيق السنة في حياة الرسول والصحابة، د. جمال محمود خلف، مكتبة الإيمان، مصر، ٢٠٠٧ م.
- تذكرة الحفاظ، الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: أبي الأشبال صغير أحمد شاغف، دار العاصمة، الرياض، ط ١، ١٤١٦ هـ.
- تقييد العلم، الخطيب البغدادي، تحقيق: يوسف العشي، دار إحياء السنة النبوية، بيروت، ط ٢، ١٩٧٤ م.
- التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، الإسنوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٠ هـ.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، مطابع الشويخ، المغرب، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م.
- التنبيه والإشراف، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، ١٩٣٨ م.
- تنزيه الشريعة المرفوعة، ابن عراق الكناني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.
- تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.

- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ المزني، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٣ / ١٩٩٢ م.
- توثيق السنة في القرن الثاني الهجري أسسه واتجاهاته، د. رفعت فوزي عبد المطلب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨١ م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م.
- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، مكتبة التوعية، القاهرة، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م.
- الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت.
- حاشية زاد المختار على الدر المختار، ابن عابدين، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.
- حجية السنة والرد على الشبهات التي أثيرت حولها، الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية، د. ت.
- حجية السنة، د. الحسين شواط.
- حجية خبر الأحاد في العقائد والأحكام، ربيع بن هادي عمير المدخلي، دار المنهاج، القاهرة، ط ١، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.
- الحديث الضعيف وحكم الاحتجاج به، د. عبد الكريم الخضير، دار المنهاج، الرياض، ط ٢، ١٢٤٦ هـ.
- الحديث النبوي والتأريخ، د. أحمد جمال العمري، دار المعارف، القاهرة، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م.
- الحديث النبوي ومكانته في الفكر الإسلامي الحديث، محمد حمزة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٥ م.
- الحديث والمحدثون، د. محمد محمد أبو زهو، مطبعة مصر، القاهرة، ط ١، ١٩٥٨ م.
- حماية السنة من الأكاذيب والأباطيل، د. صالح الفقي، دار النور، القاهرة، ١٩٩٥ م.
- خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م.
- دراسات في الحديث النبوي، د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م.
- دراسات في السنة النبوية، صديق عبد العظيم أبو الحسن، دار هجر، القاهرة، ط ٢، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.

- دفاع عن الحديث النبوي، د. أحمد عمر هاشم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتّاب المعاصرين، د. محمد محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط ١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- دفع أباطيل د. مصطفى محمود في إنكار السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- دفع الشبهات عن السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، دار الإيمان، القاهرة، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.
- دور السنة في إعادة بناء الأمة، جواد موسى محمد عفانة، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ط ١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- الدولة الأموية المفترى عليها، د. حمدي شاهين، دار القاهرة، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٥م.
- الدولة الأموية: عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، د. علي محمد محمد الصلابي، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط ١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- الرحيق المختوم، المباركفوري، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- رد السهام الموجهة إلى السنة في العصر الحديث من خلال جهود الإمام محمد رشيد رضا في خدمة السنة، د. يوسف عبد المقصود إبراهيم، دار التوعية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.
- رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشرييني، مطابع دار الصحافة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٣م.
- الرد على المستشرقين في شبهاتهم حول السنة النبوية، محمد شيخ عبد الله، مكتبة عباد الرحمن، القاهرة، ط ١، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.
- الرد على شبهات المستشرقين ومن شايعهم من المعاصرين حول السنة، د. أحمد محمد بوقرين.
- الرد على شبهات منكري حجية السنة، د. عبد الغني محمد عبد الخالق، مكتبة السنة، القاهرة، د. ت.
- رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ابن تيمية، مكتبة السنة، القاهرة، ط ١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- الرفع والتكميل، أبو الحسنات اللكنوي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط ٣، ١٤٠٧هـ.
- رياض الجنة في الرد على أعداء السنة، تأليف أبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار الحرمين، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط ٢، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- السنة المفترى عليها، سالم علي البهنساوي، دار الوفاء، مصر، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
- السنة النبوية بين دعاة الفتنة وأدعياء العلم، د. عبد الموجود محمد عبد اللطيف، مكتبة الإيمان، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- السنة النبوية بين كيد الأعداء وجهل الأذعياء، حمدي عبد الله الصعيدي، مكتبة أولاد الشيخ، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٧م.
- السنة النبوية حجية وتدوينًا، محمد صالح الغرسي، مؤسسة الريان، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: مناقشتها والرد عليها، د. عماد السيد الشربيني، دار اليقين، مصر، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- السنة النبوية: مكائنها، عوامل بقائها، تدوينها، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، دار النصر، القاهرة، ١٩٨٩م.
- السنة النبوية وعلومها، د. أحمد عمر هاشم، مكتبة غريب، القاهرة، ط ٢، د. ت.
- السنة بين الأصول والتاريخ، حمادي ذويب، المؤسسة العربية للتحديث الفكري، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥م.
- السنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- السنة ومكائنها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، دار السلام، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
- سنن ابن ماجه، ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، د. ت.
- سنن الدارمي، عبد الله أبو محمد الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمري وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ.
- السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- السنن الكبرى، الإمام أبي عبد الرحمن بن شعيب النسائي، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن علي النسائي، جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، د. ت.

- سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٩، ١٤٢٣هـ / ١٩٩٣م.
- الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية: عرض وتفنيذ ونقض، د. عبد العظيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، محمد الزرقاني.
- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي.
- شرح علل الترمذي، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: نور الدين عتر.
- شرح مشكل الآثار، الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.
- شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن هبة الله بن الحسين بن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م.
- شرف أصحاب الحديث، الخطيب البغدادي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط ٢، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
- الشفاعة: محاولة لفهم الخلاف القديم بين المؤيدين والمعارضين، د. مصطفى محمود، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٩م.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
- صحيح ابن خزيمة، ابن خزيمة النيسابوري، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.
- صحيح مسلم بشرح النووي، النووي، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط ٢، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
- صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني.
- صحيح وضعيف سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني.
- صحيح وضعيف سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني.
- صحيح وضعيف سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني.
- صفة صلاة النبي ﷺ، الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط ٢، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
- ضوابط الرواية عند المحدثين، الصديق بشير نصر، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط ١، ١٩٩٢م.

- طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى.
- الطبقات الكبير، ابن سعد، تحقيق: د. علي محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- ظلال اللجنة في تخريخ السنة لابن أبي عاصم، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- عدالة الصحابة ﷺ في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ودفع الشبهات، د. عماد الشربيني، مكتبة الإيمان، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، دار الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٠م.
- علوم الحديث، ابن الصلاح، المكتبة العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- علوم السنة وعلوم الحديث، د. عبد اللطيف محمد عامر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- عون المعبود شرح سنن أبي داود مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية، شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرين، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- الفصل في الملل والنحل، ابن حزم، تحقيق: د. محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- الفقه الإسلامي وأدلته، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
- فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧٤م.
- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعية، الشوكاني، تحقيق: المعلمي الياني، المكتب الإسلامي، بيروت، د.ت.
- في السنة النبوية ومصطلح الحديث، د. حسين سمرة، دار الهاني، القاهرة، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
- في رحاب السنة النبوية، د. إبراهيم عوضين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- قصة الهجوم على السنة، د. علي أحمد السالوس، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.
- قضايا حديثة، أشرف خليفة عبد المنعم السيوطي، مكتبة أولاد الشيخ، القاهرة، د.ت.
- قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، محمد جمال الدين القاسمي، دار العقيدة، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
- الكامل في ضعفاء الرجال، الحافظ أبو أحمد بن عدي الجرجاني، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ / ١٩٩٨م.

- كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، ابن حبان، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الواعي، سوريا، ط ٢، ١٤٠٢هـ.
- كتابة الحديث بأقلام الصحابة، د. ساجد الرحمن الصديقي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠١م.
- الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، الخطيب البغدادي، مكتبة ابن عباس، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- كيف ولماذا التشكيك في السنة، د. أحمد عبد الرحمن، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.
- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعية، الحافظ السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، ط ١، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- مجلة روز اليوسف، بتاريخ ١٠ / ٤ / ١٩٩٩م.
- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، مصر، ط ٣، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، الراهمزمي، تحقيق: د. محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- المدخل إلى السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
- مدخل إلى القرآن والحديث، د. عدنان محمد زرزور، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- المدخل لدراسة السنة النبوية، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- مسائل الإمام أحمد، أبو داود.
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.
- المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، سلسلة دعوة الحق، العدد (١٠٤)، السعودية، ١٩٩٠م.
- المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد شاکر، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م.
- مسند أبي داود الطيالسي، أبو داود الفارسي الطيالسي، دار المعرفة، بيروت.
- مسند أبي يعلى الموصلي، أبو يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط ١، ١٩٨٤م.
- مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة قرطبة، القاهرة، د. ت.
- المشتهر من الحديث الموضوع والضعيف والبديل الصحيح، عبد المتعال الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

- مصادر التشريع ومنهج الاستدلال والتلقي، حمدي عبد الله الصعيدي، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، ط ١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- مصادر الشعر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد، دار الجيل، بيروت، ط ٧، ١٩٨٨م.
- مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ.
- المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- معالم السنة، عبد الرحمن عتر.
- المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، العراق، ط ٢، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م.
- المقدمة، ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ط ٦، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- مكانة الصحيحين والدفاع عن صحيح مسلم، أبو عمر عبد العزيز بن ندي بن عبد الرحمن العتيبي الأثري، شركة غراس، الكويت، ط ١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م.
- من جهود الأمة في حفظ السنة، د. أحمد حسين محمد إبراهيم، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ط ١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- المنار المنيف في الصحيح والضعيف، ابن القيم، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط ٢، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٧م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
- منزلة السنة من الكتاب وأثرها في الفروع الفقهية، محمد سعيد منصور، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- منهجية جمع السنة وجمع الأنجيل، د. عزيزة علي طه، دار البحوث، القاهرة، ١٩٨٧م.
- الموضوعات، ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- الموطأ، الإمام مالك، جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، د. ت.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، د. ت.

- نتائج الأفكار في تخريج الأذكار، ابن حجر العسقلاني.
- الوزراء والكتاب، أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، مكتبة مصطفى الباي الحلبي، القاهرة، ط ١، د.ت.
- الوضع في الحديث، د. عمر بن حسن عثمان فلاتة، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، د. ت.
- الوضع في الحديث النبوي، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط ١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
- الوضع في الحديث وجهود العلماء في مواجهته، أبو عبد الله محمد بن رسلان، مكتبة البلاغ، مصر، ط ٢، ٢٠٠٥م.



موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الثالث: السنة النبوية

المجلد الأول

ج ٢

شبهات

حول تدوين السنة والوضع فيها